كتاب الهلال



أبو نواس

قصة حياته

تأليف

عبد الرحمن صدقي



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٢٩ – ذو القعدة ١٣٧٢ – أغسطس ١٩٥٣

No. 29 — August 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال – بوستة مصر العمومية – مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

مصر والسودان
١ قرشا سوريا
ن ١١٠ قروش
– فى سـائر
٩/٣٠ شلنا .

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال



أبو نواس

بريشة الاستاذ رافت البحيرى

أبو نواس

قصة حياته

تأليف

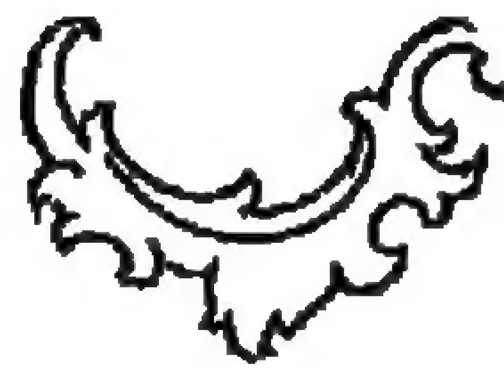
عبد الرحمن صدقي

مقدمة

توخينا فى وضع هـذا الـكتاب ورسم معالمه وسياقة أجزائه ، منهج التراجم الحديثة من اظهارالمترجم له شخصية حيـة ، موصول الرحم بآبائه ، معقود الأسباب بعصره ، يستبان هنا وهناك فى سماته ومتصرفاته عرق الوراثة وأثر البيئة . ولقد أفرغنا وسعنا وبذلنا غاية جهدنا فى الاستقراء والاستنتاج من شتات أخباره حينا ، ومن ديوان أشعاره فى معظم الأحيان ، حتى تهيأ لنا فى ترجمته ما تهيأ من تأسيس البنيان واقامة الاركان ، وملء الفجوات بما يتفق مع منطق الحياة ، دون أن يخلو قول من سند له ، أو — على الأقل — من مصداق على جواز صحته ، من سير الحوادث فى التاريخ العـام ، وخصـائص الشعوب فى شتى البلدان ، وطبائع الانسان من حيث هو انسان ، فجاءت الترجمة لأبى نواس — كما يراها القارىء — مطردة الانسياق متصلة الحلقات ، تنتظم حياته من نشأته الى وفاته مرحلة بعد مرحلة ، مع قلة المراجع فى هذا الشأن وانصراف الأقدمين الذين ترجموا له عن هذا السنن . كذلك كان همنا الاكبر — مع تصوير

دنياه وحياته الخارجية ـ تجلية حياته الوجدانية وتطوراته النفسية ، ليتم التركيب وتحصل على قدر توفيقنا المعجزة ، فيعود أبو نواس بعد نيف ومائة والف سنة الى عالم الحياة بشرا سويا ، كما بقى فى عالم الأدب شاعرا متدارس الشعر متعارف القدر عبقريا

عبد الرحمن صدقى



غرام جندى

كان كل شيء يؤذن بسقوط البيت المالك الأموى وأفول نجمه ، بعد أن بلغت رقعة الملك فى عهد بنى مروان مثل الذى بلغته فى أوج العظمة امبراطورية الرومان ، اذ كانت دولتهم تنبسط من الهند وحدود الصين شرقا الى المغرب الأقصى والأندلس غربا . ولقد كانت العاصفة تهب من كل حدب وصوب . فثمة العلويون شيعة آل البيت الذين لا يرون فى خلفاء بنى أمية الا أنهم غاصبون ، وثمة الشعوب المغلوبة التى يعاملها العرب معاملة السيد للمسود تترقب الساعة لخلع الطاعة ، وهنا قبائل العرب وبطونهم تجيش صدورهم على عصبية قريش واستبدادها من دونهم بالحكم ومناصب الدولة ، ثم الناقمون على السلطان من أفراد الناس وآحادهم لأسباب تخصهم ولا تعنى غيرهم ، وفى غمار هذا جميعه المهيجون دعاة الفتن الذين اتخذوا صناعتهم ايقاد جمرها وتأريث نارها

وفى هذه الفترة كان على عرش الخلافة القائد العالى الهمة مروان الثانى وهو وقتئذ شيخ قد ناهز الستين . وكان مروان ربعة ، ضخم الهامة ، أبيض البشرة ، أشهل (١) العينين شديد الشهلة ، كث اللحية أبيضها . وكان شجاعا حازما ، الا أن الفتوق كانت قد اتسعت قبل ولايته ، فلم يغن فيها حزمه ولا شجاعته . ولم يطل قراره فى دست

---

(١) أشهل : تشوب سواد عينه زرقة

الملك حتى انتقض أهـل حمص وفلسطين . فأبلى القـائد المحنك فى حربهم وأوقع بهم وأخمد ثائرتهم ، وخرج عليه الخوارج من الغلاة المتعصبين ، واجتاحوا اليمن والحجاز والعراق ، فدارت بينه وبينهم وقائع دامية ، وانتهى بأن ظهر عليهم واجـلى من كانوا منهم باليمن والحجاز الى حضرموت ومن كانوا بالعراق الى ما وراء دجلة

وطلب مروان بن محمد بعض الراحة والاستجمام فى قصره المحبب اليه فى « حران » . ولكنه كان مع ذلك غير مطمئن الخاطر من ناحية فارس وخراسان ، فأنفذ الجند الى ما وراء دجلة للشحنة والرباط

حامية الأهواز

كان من الأطراف التى أوفد اليها الخليفة الأموى البعوث لعظم شأنها من الوجهة الحربية ، كورة الأهواز بين البصرة وفارس . وكان من رجالها جندى من غمار الجند شاءت المقادير ان يحفظ التـاريخ اسمه طوال ما غبر من سوالف السنين ، وهو لا محالة حافظه فى مستأنف الأيام الى أبد الآبدين . ذلك الرجل هو « هانىء » . وكل فضله أن المقادير شاءت أن يكون أبا لابنه « الحسين بن هانىء » أحد الأعلام الخالدين من شعراء العربية المجددين

قدم « هانىء » مع سائر أجنـاد فرقتـه الى الأهواز ، وأقاموا معسكرهم فى ظاهر المدينة .. وكانت المدينة تعرف بسوق الأهواز لاجتماع التجارة فيها من النواحى المجاورة ولما يصدر عنها من السكر الجيد المنسوب اليها . ولم يكن بين الجند من ارتاحت نفسه الى هذه النقلة للذى وجدوه من حرها ووخامة هوائها . وقد كان لما حول المدينـة من مناقع المياه الغليظة والسباخ هبوة داخنة متصاعدة ، يقابلها الجبل الصخرى الناصب المطل عليها ، فتنعقد فى الجو وتزيده حرا ووخامة . فاذا أظل الليل واستروحوا بعض البرد فى

جنحه ، لم تطمئن جنوبهم الى المضجع من لسع البعوض فلا جرم يقبل بعضهم على بعض يذمون الأهواز ويبالغون

ولم تلبث الحامية ان تفشت فيها الحمى . ولم يسلم منها « هانىء » فقد أطبقت عليه لا تفارقه ليلا ولا نهاراً . وكانت لا تنزع عنه حتى تعاوده فأشرف على التلف . وقام من علته فى آخر الأمر موصب البدن منهوك القوى ، وظل أياما بعدها وهو فى سياق النقهة ، مأذونا له فى الخروج للنزهة

نزهة العليل

وكانت سوق الأهواز تخترقها مياه مختلفة . وكان هذا كل ما يستحبه « هانىء » فيها ، لما تذكره به المياه الجارية من مناظر دمشق الشام ، موطنه المحبب ، وحاضرة الملك وقتئذ وقصبة الاسلام . وهو أشد ما يكون انجذابا الى ذلك الوادى العظيم الذى يشق الأهواز ، لا يمل النظر الى مائه الأحمر الزاخر من المدود ، ولا يضجر من جلبة النواعير والأرحاء القائمة عليه . وكان لا يقنع منه بالضفة القريبة ، بل يعبر القنطرة العظيمة عليه ، مستغرقا فى تأمله ، يغوص بنظراته فى طوامى غمرته حتى يبلغ العدوة (١) الاخرى

فى عصر يوم شديد الحر خرج « هانىء » الى النهر ، واطال السير محاذيا له التماسا للنسيم وارتيادا للخضرة . فكانت تتوالى على ناظره من احد جانبيه خمائل أشجار وشجيرات موقرات بالفاكهة والثمار ، ثم مزارع الأرز مغمورة بالماء ، حتى اذا أبعد فى المسير انبسطت على مد البصر مغارس قصب السكر قائمة الشطاط كأنها الجيوش الكثيفة اعتقلت الرماح الخطية ، فاذا التفت الى الناحية الأخرى ، ناحية النهر الداكن الحمرة ، امتلأت نفسه روعة وجلالا ، من تدفق عبابه وسرعة انصبابه ، وهو يجرى فى

---

(١) العدوة : الجانب والضفة

حدود مسيله كالخيل الكمت فى مجاريها ، وموجه يضطرب ويغلى ويموج بعضه فى بعض ويعلو اثباجه (١) من شدة فوره وجيشانه مثـل اللغـام (٢) من قطع الزبد وطرائق الرغوة ، وقد عج عجيجه وارتفع هديره

ومضى « هانىء » مأخوذا يطوى الطريق ، وهو فى شغل عن المسافة التى قطعها ، والتى يلزمه فى العود أن يطوى أدراجها ، حتى اذا انقطعت المزارع وتبدل لعينيه المنظر ، ثاب الى نفسه فرأى الشمس جانحة للمغيب ، وطالعته غير بعيد منه قرية صغيرة على سفح ربوة . وأحس وقتئذ بما أصابه من التعب ، فمال الى صخرة يستريح

لقاء على غير ميعاد

وانه ليلتفت حوله الى الوان الأصيل على الموج وما ترسمه ظلال الصخور ، اذا بعينه تأخذ شخص امرأة على بعض الحجارة المتقدمة فى الماء ، وهى مكبة على شىء تغسله فى النهر ، وقد شمرت عن ساقيها وحسرت عن ذراعيها ، وهما كالعاج يضيئان من نصاعة البياض ، ولم تكن بالـكثيرة اللحم ولكنها كانت بضة الذراعين تامة الساقين ، وكان شعرها الأسود المعقوص قد استرسل من الحركة . ولما ان شعرت المرأة بالقادم أزاحت متهدل الشعر عن جانبى وجهها ونظرت الى ناحيته . وكان حسبها هذه النظرة لتعرف من هيئته وبزته أنه لابد من اجناد الحامية العربية . ولم يكن هانىء يشارك الجند فى خشونة الطباع والسرعة الى التقحم والاجتراء ، فلم تجفل المرأة منه وأخذت فيما كانت فيه ، وهو يلاحظها ويديم النظر اليها معجبا ببياضها وملاحة حركتها . ولعل ذلك ازدهاها ، فقد جعلت تخالسه النظر فى الحين بعد الحين ولا تمنعه أن تلتقى عيناهما . وقد وقع

(١) اثباجه : أواسطه وأعاليه (٢) اللغام : زبد أفواه الخيل

ــ ولا شك ــ فى نفسها قوامه وشاربه المفتول ووجهه الأسمر الذهبى تحت عمامته العربية . فلما فرغت من شأنها ، قامت تجمل اجانتها (١) ولم تحفل من العجلة أن تزم الجيب (٢) على صدرها . وقد توخت أن يكون طريقها من أمامه . وأقبلت وهو ينظر اليها . فلما دنت ابتسمت له وابتسم لها ، وتجرأ فسألها عن هذا الذى معها فقالت « صوف أغسله » . وعلم منها فى بعض ما علم أنها تنسج الجوارب وتصنع الأخراج . ولما كانت شمس الأصيل قد رنقت وكاد يختفي قرصها ، فقد انصرفت المرأة عنه مسرعة دون أن تبوح باسمها . ومضت مصعدة فى سفح الربوة ، وهى تميس ناعمة لينة ، وقد أبدى أعطافها ثوبها المبلل اللاصق بها ، وكان شعرها الوارد يضرب الى حقويها . فلم يملك هانىء نفسه أن تبعها على خطوات منها حتى دخلت القرية ، وكانت الدروب على ضيقها تزحمها قطعان الغنم القافلة من مراعيها . ولكنه لم يدع المرأة مع هذا تغيب عن عينه ، حتى دخلت بيتا من تلك البيوت المتضعة المتلاصقة . وقبل أن يحتويها البيت ، التفتت اليه لفتة زادته لهفة على لهفة

ولم يبرح « هانىء » حتى تعرف المكان ، فعرف انه بالقرب من الجبل المقطوع ، وأن اسم القرية « استانه آتار » (٣) ومعناه باب النار ، وأن اسم فاتنته « جلبان » أى غصن الورد

---

(١) الاجانة : اناء تغسل فيه الثياب

(٢) الجيب من القميص أو الثوب : طوقه وما قور منه

(٣) ورد اسمها « أستان ماتارد » ولعله خطأ فى النسخ وتخليط بسيط من تحريف الحروف عن مواضعها وصحته « استانه آتار » أى باضافة الميم التى بأول الكلمة الثانية الى النون فى آخر الكلمة الأولى فتكون هاء ، ثم جعل الدال التى فى آخر الكلمة الثانية سكونا على الراء ، فيكون اسم القرية « استانه آتار » وهى بعينها « باب أذر » التى وردت فى مراجع

من نعيم الحب الى جحيم الحرب

لم ينعم « هانيء » طويلا بقرب زوجته الفارسية الأهوازية . فقد انتزعه من بين ذراعيها ـ قبل أن ينصل خضاب العرس من يديها ـ نفير الحرب ، لدفع الفتنة المحذورة ، وقد ارتفعت بعد الخفاء أعلامها واندلع فى الأفق ضرامها.

الرايات السود

وفى ليلة الخميس ، لخمس بقين من رمضان سنة ١٢٩ هجرية ، أوقدت النيران على قنن الجبال بموضع بخراسان، وكانت العلامة المتفق عليها بين الثائرين على الأمويين اظهارا للدعوة واعلانا للثورة . فأقبلت العشرات والمئات والألوف من الأشباح المتشحين بالسواد ، مجهزين بالعدة والسلاح وانتشروا كقطع الظلام تظللهم الرايات السود . وكانت جيوش الثوار معظمها من الخراسانيين ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل وهامات ، ولحى وشوارب ، وأصوات فخمة تخرج من أجواف منكرة . وهم الى ذلك ذوو عدد كثير ، وجلد ظاهر ، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل. وانتظم الزحف ، واشتد الهجوم ، وغلظ أمرهم واستوثق . فاكتسحوا خراسان كلها ، وأقبلوا كالسيل على ما وراءها

زوال دولة وقيام دولة

وكان من حسن تنظيم الدعوة العباسية واحكام تدبير الثورة وتسيير دفتها ، ان أسقط فى يد عمال الأطراف من قبل الأمويين ودب الشقاق بينهم وفعلت الدسائس فعلها فيهم ، فاختل الأمر واستشرى الفساد وانخذلت

اخرى محلا لميلاده ، لأن استانه معناها باب ، ولفظ « أتر » أو « ادر أو « أذر » بمعنى واحد أى النار

الحاميات العربية فى خراسان ، ثم فى العراق . ثم التقى الجيشان ، وهما على حد اصطلاحهم « المبيضة والمسودة » جيش مروان ممن اختارهم من جند الشام والجزيرة وغيرهم وعدته مائة ألف فارس على مائة ألف قارح ، وجيش الثوار الكثيف برماحهم كأنها النخل غلظا ، وفى أوائلهم البنود كأنها قطع من الغمام سود يحملها الرجال على الجمال البخت وقد جعلت أقتابها من خشب الصفصاف والغرب . . وكانت وقعة فاصلة عند نهر « الزاب » ، لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هجرية ، فكتب النصر للثوار الخراسانيين وتمت لهم الغلبة ، وزالت على يدهم دولة بنى أمية وظفر بالخلافة بنو العباس

العودة الى أحضان الأسرة

وكان من أثر هذه الغلبة تسريح الحاميات العربية وتفرق شملها ، ومنها حامية الأهواز . وكان الخليفة العباسى الظافر « أبو العباس عبد الله بن محمد » قد وجه عمه اسماعيل عاملا على كورها . وعاد « هانىء » الجندى القديم الى زوجته فى قريتها بالقرب من الجبل المقطوع ، ولكنه عاد وهو موزع النفس بين الكمد والسرور . فقد كان يسره أن تنتهى الحرب ، ولكن لا على هذا الوجه من انقطاع مادة رزقه ، وسقوط شوكة قومه . واستقبلته « جلبان » كما تستقبل المرأة المحبة زوجها ، وقد استطارها الفرح وماد بعطفيها وغلب عليها . ولم يكن فرحها كله خالصا له ، فقد كان بعضه لقومها الغالبين ، ولكنه مضمر فى طوايا نفسها لايبين . ولم يعدم الجندى القديم وسيلة للكسب الشريف ، فاشتغل برعى الغنم وبالحياكة ، ومضت هى فى صنع الأخراج ونسج الجوارب . وتعاون الاثنان على العيش بالمجاهدة والسعى ، والهاهما عن الفاقة ورقة الحال ما كان بينهما من استدامة الصبوة والغرام

وقد أثمر هذا الحب ثمرته فأولدها عــدة أولاد (١) ، نعرف منهم فتاة يقال انها كانت عند فرج القصار وهو عبد كان لأحمد بن عصـــمة الله الباخرزى ، ونعرف من الذكور اسماعيل ، ونعرف أكثر منه أحمد ابا معاذ وهو الذى يقال انه كان يعمل مؤدبا لأولاد فرج الرخجى الخباز ، ثم نعرف الحسن ــ وكان مولده فى القرية نفسها المعروفة بباب النار سنة ١٤١ (٢) فى عهد ثانى الخلفاء العباسيين أبى جعفر المنصـــور ــ وهو الذى نبغ ذكره من الأسرة وبه

---

(١) قيل ان هانئا لم يكن له ولد ولا خالف غير أبى نواس ، وقيل ان له أولادا غيره • وقد رجح الرأى الأخير عندنا أنه قد جرى اسم أحمد أبى معاذ على السـن الرواة أكثر من مرة على أنه أخ لأبى نواس ، ثم زادنا ترجيحا ما ورد فى تاريخ الأمم والملوك للطبرى فى قوله فى الجزء العاشر فى الصفحة ٢١٩ ما نصه : (وذكر عن ابراهيم بن اسماعيل بن هانىء ابن أخى أبى نواس قال حدثنى أبى قال هجا عمك أبو نواس مضر فى قصيدته التى يقول فيها كذا فبلغ ذلك الرشيد الخ ••) • ولا يعتد بقول أبى نواس متغزلا :

لا تفجعى أمى بواحـدها   لن تخلفى مثلى على أمى

فذلك ينصرف الى أنه كان أنجب اخوته

(٢) اختلف الرواة كعادتهم فى مولد أبى نواس ووفاته • فذكروا فى مولده سنوات ١٣٦ ــ ١٤١ ــ ١٤٥ ــ ١٤٨ ــ ١٤٩ وجاء فى الجـــزء السادس عشر فى الصفحة ٧٤ من معجم الأدباء عن الجاحظ أنه قال : « أنا أسن من أبى نواس بسنة ، ولدت فى أول ســنة ١٥٠ وولد فى آخرها » • وذكر فى وفاته ســنوات ١٩٥ ــ ١٩٦ ــ ١٩٧ ــ ١٩٨ ــ ١٩٩ ــ ولكنهم على الاجماع أو ما يشبه الاجماع من أنه مات وعمره تسع وخمسون سنة • ولما كان أبو نواس قد رثى الأمين وكان قتل الأمين فى سنة ١٩٨ ، فالمرجح أنه توفى سنة ١٩٩ ، وهذا يحدد لنا مولده فى سنة ١٤١ • ولقد ذكر ابن قتيبة أن أبا نواس أقام سجينا بأمر الرشيد عند ابراهيم بن نهيك ، فلما مات الرشيد ، وخلفه محمد الأمين عام ١٩٣ أخرجه وهو ابن اثنتين وخمسين سنة ، فيخلص من ذلك أن مولد أبى نواس عام ١٤١ ، وذلك مصدق لما تقدم • وهذان التاريخـــان لمولده ووفاته يطابقان ما نقله جامع ديوان أبى نواس حمزة بن الحسن الأصـــبهانى عن أبى بكر أحمد بن شقير النحوى عن أحمد بن أبى طاهر

عرفت . وكان أخوه اسماعيل كثير الرواية له وعنه روى ابنه ابراهيم . كما كان أبو معاذ مع عطله من مذاهب الأدب وقلة احسانه لشيء منها يتعيش بأنه أخوه ، ويظهر أثر ذلك فيمن تأدبوا عليه من أولاد الرخجي . حكى ابن جحظة عن بعض أهل الحيرة قال : اجتاز بنا عمر بن فرج الرخجي منصرفا من الحج فتلقيناه وأعظمناه وسرنا معه ، فلما اجتاز بدير حنة سألنا عنه فعرفناه به ، فقال من ذا الذى يقول « يادير حنة من ذات الاكيراح » ؟ فقال له الحسن ابن هشام الحيرى : « هذا للحسن بن هانيء »

وهذا « الحسن بن هانيء » هو شاعرنا الذى عرفته الأجيال بعد ذلك باسمه المحبب « أبو نواس » ، واجتمع أكثر النقاد العرب على أنه أشعر الشعراء المحدثين



طالب علم

كان بأطراف البصرة فى بعض الدروب التى تخرج من سكة المربد ، بيت من القصب تسكنه امرأة أهوازية وفدت عام ١٤٣ على البصرة ومعها زوجها وهو وقتئذ طراز حائك . وكان الرجل بالمدينة العظيمة حديث عهد ، فلا جرم يكون ضعيف المقدرة مضيقا عليه فى الرزق . ولم تسكن امرأته لهذه الحال فجعلت ترضع بلبان غلامها « الحسن » — وكان ابن سنتين (١) — غلاما من ثقيف . ولم يكن رزقها من الرضاع كثير الغناء ، ولكنه كان عونا على كل حال لمن كان بموضعهما من الحاجة وكثرة العيال . ولم تطل المدة حتى أرملت « جلبان » واصبحت لا سند لها ولا عائل لولدها . وكانت من النساء برزة (٢) شملالا ، لها على الحياة جرأة واقبال ، فلم يركبها هم ولم تفتر لها همة . وعمدت الى ما كان لها من صناعة ، فجعلت تغشى البيوت بما تصنع من جوارب واخراج بيدها الصناع(٣) المدربة ، فانفرجت شدتها وحسن أمرها ، وانتقلت الى دار فى المدينة من الآجر والجص. ونفقت (٤) تجارتها ، وقصدها بعض الراغبين فى أشيائها من

---

(١) قيل فى بعض روايات ابن منظور ان ابا نواس انتقلت به أمه الى البصرة وهو ابن ست سنين ، ولكن الذى آثرنا هو ما ورد فى ابن خلكان من أنها انتقلت به وعمره سنتان ، لأن ذلك دون غيره يتفق مع حكاية الأصمعى أن أمه كانت فى البصرة ترضع بلبانه غلاما من ثقيف ، وهذا القول قاطع بأنه كان رضيعا وقت قدوم أمه به

(٢) برزة : تبرز للرجال يجلسون اليها ويتحدثون

(٣) الصناع بتشديد الصاد : الحاذقة فى الصنعة (٤) نفقت : راجت

الغوانى والرجال ، حتى قيل انهم كانوا يلتقون عندها على موعد ، وانها كانت تجمع بينهم لريبة

وكانت المدينة متسعة الرقعة ، كثيرة العمران ، تغص بالسكان من كل لون وسحنة . فهى واسطة العقد بين الشام وفارس ، تمتد تجارتها شرقا الى الهند والصين ، وتمتد غربا الى أقصى بلاد المغرب ، وترسو مئات السفن فى فرضتها (١) تحمل أصناف المتاجر من ناحية البحر أو الرافدين

وفى هذا المزدحم من التجار الوافدين والمقيمين ، وفى هذه الحال من وفور المال ، عاشت الأرملة « جلبـــان » عيشتها فى طلب الكسب . وكانت ـ مع ما يدخل اليها من ربح ـ لا تخرج عما انطبع عليه أهل الأهواز من البخل ، تعيش على خبز الأرز والكامخ من صغار السمك المملوح المعروف بالصحناء وبعض تمرات . ولم يزل هذا دابهـا فى البخل على نفسها وعلى ولدها

تقلب الأحوال فى عصر الانتقال

ولقد زاد « جلبان » استمساكا بالحرص ما كان يتقلب على عينيها أو يتصل بسمعها فى عصر الانتقال الذى تعيش فيه من فورات الهرج وكثرة الفتنة ، وما يشغب أحيانا من ثورات ويستشرى من فتوق ، حتى بعد أن استوثق الأمر للخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور ، ورسخت دولته بعد مقتل أبى مسلم الخراسانى وعلت فى النـاس كلمتـه وملأت الصـدور هيبته ، ومن ذلك ما جرى فى البصرة نفسها بين سمعها وبصرها . فقد ظهرت الدعوة فى سنة ١٤٥ لمحمد العلوى ـ الملقب بالنفس الزكية ـ من حفدة الحسن بن على ، وكان معظم رجال البيت الهاشمى ومنهم

---

(١) فرضة بضم الفاء وسكون الراء محط السفن

المنصور قد عاهدوه على المبايعة له بالخلافة فى أيام الثورة على البيت الأموى ، ثم عادوا فآثروا بها أنفسهم . وكان من شأن اظهار الدعوة أن وثب أخوه ابراهيم على البصرة، فغلب عليهــا وأبدل شعار أهلها من السواد الى البياض واتخــذها مقره ، ثم انبســط امره على الأهواز وفارس وواسط والمدائن والسواد . فلمــا وقر فى النفوس أن الدولة للعلويين ، وانه قد اديل لهم من خصومهم الأمويين والعباسيين جميعا ، حتى دخل على « ابراهيم العلوى » بشار بن برد مشيعا لعهد أبى جعفر المنصور متشفيا بمصير دولته بقصيدة مطلعها :

ابا جعفر ، ماطول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم(١)

اذا بالجيوش العلوية تنهزم ، ويتبدل الحال غير الحال ، وتعود البلاد كلها الى حوزة الخليفة العباسي فيعمل القتل فى العلويين ، وينكل بمن آزر دعوتهم من أشراف البصرة ، يصلب منهم من يصلب ويسجن من يسجن ، ويدك دورهم ويخرب بساتينهم ويصادر أموالهم . فاختلطت الامور فى المدينة واضطربت الأرزاق ردحا غير قصير من الزمن

وواضح من هذا أن الظروف المحيطة والأحوال الملابسة لم يكن من شأنها أن تعدل بجلبان عن طبيعتها — لو صح أن للمرء عن طبيعته معدلا — فهى ماضية فى حرصها بتواطؤ من طبعها وعقلها

الصبى فى المكتب

ولقد دفعت جلبان الصبى منذ نعومة أظفاره كسائر الصبيان فى البصرة الى كتاب من المكاتب القريبة من الدار.

---

(١) لما قتل ابراهيم العلوى خاف بشار ، وكتم امر القصيدة برهة ، ثم جعل موضع « أبا جعفر » « أبا مسلم » ، وحذف منها أبياتا وأظهرها بعد ذلك على انه قالها فى مدح الخليفة أبى جعفر لايقاعه بقائده الداعية أبى مسلم الخراسانى

فكان « الحسن » يغدو اليه كل يوم يتعلم القراءة والكتابة والقرآن . وكانت أمه ترسل الأجر للمعلم خبزا حتى تقدم الغلام فكانت ترسل الدرهم والدرهمين . وكان جزاء التقصير فى المكاتب الضرب والحبس . والذى يرجع الى ديوان شاعرنا يقرأ له فيما يقرأ وصف غلام فى « مكتب حفص » ناله الضرب من مقرعة المعلم وهو ناعم من الغلمان المترفين المدللين . والمقطوعة كسائر مقطمات شاعرنا غاية فى لطف التصوير وآية على خفة الروح والدعابة :

قال حفصٌ : « إجلدوهُ إنه عندى بليدُ
لم يزل مذ كان فى الدر س عن الدرس يحيد »
كُشفت عنه خُزوزٌ وعن الخزّ بُرود (١)
ثم هالوه بسَيْرٍ ليّنٍ ما فيه عود
عندها صاح حبيبى : « يا معلم لا أعود »

التعليم الدينى

وقد اشتهر فى البصرة فى ذلك الحين القارىء العالم يعقوب الحضرمى وهو من بيت علم بالعربية والأدب ، وقد ذاع تعليمه للقراءات واصبح امام البصرة فيها . وكان من أعلم أهل زمانه بمذاهب النحاة فى القرآن الكريم ووجوه الاختلاف فيه . فقرأ عليه « الحسن » القرآن . وكان زاهدا ورعا ناسكا ، فجعل يعلمه حسبة ولا يأخذ على تعليمه أجرا . وزاد أنه حين رأى حفظه وحذقه رمى اليه بخاتمه قائلا : « اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة » !

ولما شب الغلام رغب فى الأدب وتعلق بالشعر . ولم يقع

(١) الخز من الثياب ما نسج من حرير ، والبرد ثوب مخطط

ذلك من أمه موقعا ترضاه ، وكانت لا تؤثر على التجارة شيئا لما يحصل عنها فى البصرة من وافر الأرزاق . فأسلمته على رغمه الى بعض العطارين يعمل عنده ويبرى له عـود البخور . فلم يصرفه ذلك عما فى نفسه . وجعل كل يوم يأتى المسجد الجامع فيحضر العلم على شيوخه . وكان كل شيخ الى سارية ، ولكل مريد أن ينتظم فى الحلقـة التى يريدها . وكانت حلقات الدرس لا تقتصر فى المسجد على علوم الدين ، وانما علومها مختلفات باختلاف ما تخصص الشيخ فيه من المسائل والموضوعات

الدراسات الأدبية فى المسجد

وكان « الحسن » يقعـد بين من قعدوا الى أبى زيد الانصارى النحوى اللغوى ، يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البـلاغات من كلام العرب وقصـائدهم ورجزهم ، ويكتب عنه ما يشرح من نوادرها وغريب ألفاظها . ثم كان يتحول الى «أبى عبيدة معمر بن المثنى» الفارسى الأصل العربى المربى (١) ، فينفسح له الأفق وهو يصغى الى كلامه المستبحر الجامع عن أيام العرب وقبائلهم وأنسابهم وأخبارهم وعلومهم ، ومقابلة ذلك بما عند الفرس ، وكان لشعوبيته يتعرض للعرب أحيانا ويبسط القول فى مثالبها . ولقد كان أبو عبيدة ــ لأصله الفارسى ــ صاحب عبارة سيئة ، وقد يلحن ، واذا قرأ البيت من الشعر لم يقم أعرابه وينشده مختلف العروض ، مع وفور عقله واشتماله على علوم العرب حتى جرى قولهم فيه أن من يأتى مجلسه اشترى الدر فى سوق البعر . وكان فتانا « الحسن » على كثرة عبثه به يقول عنه : « أديم طوى على علم »

ثم كان الحسن يقبل على «خلف الاحمر» ــ وهو من أبوين

---

(١) المربى على وزن مفعل : مكان النشأة والتربية

فرغانيين وقد أصبح راوية البصرة الأشهر ، وأعلم الناس فيها بالشعر ونقده وبالشعراء ومذاهبهم – فيتلقى منه ويتتلمذ عليه ويكثر من الجلوس اليه . وكان يشهد أحيانا فى بعض الأركان من المسجد مناظرات الأدباء وملاحاتهم ويمر أحيانا ببعض الشعراء وقد انتحوا ناحية يملون أشعارهم فى شتى الأغراض من المديح الى الغزل

وكان يحضر الحديث على الامام « عبد الواحد بن زياد العبدى » وغيره من الحفاظ الأعلام ، والمحدثين الثقات . فاذا اشتهى الكلام ، فليس يخلو المكان من اصحابه يستمع اليهم ويأخذ عنهم

وظل الحسن أعواما على هذه الحال يعمل بالنهار عند العطار ويتنقل فى المساء بين هؤلاء وغيرهم فى مسجد البصرة وفى دورهم ، يلتهم علوم زمانه التهاما ، ويطوى مراحلها طيا . وهو فى أثناء ذلك لا يفتر عن معاناة الشعر وتسقط أخبار الشعراء وحضور مجالس الأدب ومصاحبة أهل المسجد والمجان

المجون فى حلقات الدرس

وكان الفتى جميل الطلعة ، رقيق اللون ، أبيض ناعم الجسم ، نحيفا كبير الهامة منسدل الذوائب ، معتدل القامة بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، فصيح اللسان ، لطيف المنطق مليح الاشارة ألثغ بالراء يجعلها غينا ، وفى حلقه بحة لا تفارقه ، وذلك الى لين طبع وحلاوة شمائل . فكان اذا دخل حلقة الدرس التفت القوم الى حسنه وحداثة سنه وجمعه خفة الروح والفراهة الى الذكاء وقوة التحصيل

وكان ممن لفتهم صاحبنا وفتنه الشاعر محمد بن مناذر . فقد دخل ابن مناذر فى بعض الأيام المسجد الجامع بالبصرة ،

فوقعت عينه على فتى مستند الى السارية ، فالتمس رقعة ودواة فكتب اليه أبياتا مدحه بها ، وسأل غلاما ان يوصل الرقعة اليه . فلما قرأها الفتى قلبها وكتب على ظهرها ساخرا ماجنا :

مثلُ امتداحِكَ لي بلا وَرِق (1) مثلُ الجدار بُنِي على خُصِّ
واللهُ عندي من مديحكَ لي سودُ المال ولِيِّنُ القُمُصِ

فلما قراها ابن مناذر قام اليـه فقال : « ويلك ، أأنت الحسن ؟ » . قال : « نعم » فسلم عليه وتعانقا . وكان ذلك أول المودة بينهما

اشتغال الأم عن ولدها

وكانت جلبان قد شغلت عن ابنهـا بغرام جديد بمن يدعى « العباس » شاع خبره حتى شهرت به ، ولقد اصاب الحسن من ذلك تعيير لذاته واقرانه ، وتعرض فيه لقول من هاجاهم وهاجوه بعد ذلك من الشعراء والشواعر . ومنه قول أبان اللاحقي :

إن يكنْ هـذا النواسيّ بلا ذنبٍ هجـانا
فلقـد عفنـاه حيناً وصفعنـاهُ زماناً
هانئُ الجَوْنُ (2) أبوه زاده الله هـوانا
سائِلِ العباس ، واسمعْ عنـه من أمك شانا

ولم يكن الا اليسير حتى حرم الفتى بعد أبيه البقية الباقية من رعاية أمه . فلقد انتهى الأمر بزواجها من الرجل الذي أحبته . وكانت من صنف المرأة التي لا تصبر على عزوبة

(1) الدراهم المضروبة
(2) الجون الأسود اشارة الى شدة سمرته

ولا تغنى عن زوج . فانصرفت الى الزوج الجديد بكليتها وأذهلت عن ولدها ، فأهملت شأنه غاية ما يكون الاهمال ، وتركت للعطار أمره . وانقطع منذ ذلك الحين ما بين الفتى وأمه ، ولم يتصل سبب بينهما حتى موته

ولعل الفتى ارتاح فى دخيلة نفسه الى ما صار اليه من مطلق الحرية ، اذا شاء ركب رأسه ، واذا شاء لزم درسه . فقد كان الحسن متقدما على سنه فى بكور عقله ، وفى يقظة حسه . فهو شديد النهم الى المعرفة والى الحياة معا . وكانت المدينة حوله بأسباب هذا وذاك عامرة زاخرة

الحياة فى البصرة

كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم ، وأحد المصرين ـ البصرة والكوفة ـ اللذين كانا قبل بغداد يقومان على اشاعة المعارف والعلوم العربية ، وسائر البحوث النقلية والعقلية ، ومذاهب الكلام وألوان الأدب وضروب الثقافات. وكانتا فى ذلك تتنافسان وتتفاخران وتتكاثران بالنوابغ والعظماء فى كل حلبة وميدان . وكانت البصرة كذلك ـ بما يزحم أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الاموال والخيرات ـ حاضرة عظيمة من حواضر اللهو ، تعج بما فيها من الملاهى وأسباب اللذة وموجبات الفتن والغوايات . وبلغ من ذلك أن خلفاء بنى العباس حين فكروا فى التحرز لملكهم من أطماع الأمراء الهاشميين من أهل بيتهم ، لم يجدوا غير البصرة يقطعونهم فيها القطائع والضياع الواسعة ، ويخصصون لهم الرواتب الجزيلة حتى يشغلهم مقامهم فيها بين القصف والمتعة عن الشره الى الخلافة

وكانت المدينة فى حفل من المناظر الحسنة والمجالس الأنيقة تتخللها المياه وتتوسطها الميادين العجيبة ، وتزهو بالخصب والنضارة والبساتين الكثيرة ذات الفواكه الأثيرة .

وكان واديها الاعظم ـ مجتمع الفراتين المعروف بشط العرب ـ يقبل ماؤه معنقا ويفيض متدفقا . وهو بالحدائق المتصلة منتظم ـ فأوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب ـ وبينها معاصر الدبس . ولم يكن فى الدنيا أكثر نخلا منها حتى كان يباع بأبخس الأثمان ، وكانت النخيل تتصل مسافات شاسعة الى أرباضها ومحلاتها وما جاورها ، فلا يكون الانسان فى مكان الا وهو فى نهر ونخيل ، أو بحيث يراهما

ولم يكن الحسن بالمغمض العينين ولا بالمغلق القلب عن هذه المفاتن . وهو من علمنا من يقظة الحس وتفزز الأعصاب وتشوف النفس . وكان يمر فى كل صباح ومساء بالجداول والبرك الفسيحة تجرى فيها الزواريق والسماريات وفيها المتنزهون ومعهم المغنيات من القيان ، والسقاة من الغلمان ، منحدرين ومصعدين . فاذا احتواه حانوت العطار الذى يعمل عنده تطرق الى سمعه ما يذكره المترددون لشراء الأطياب والبخور من وصف لما كان من مجالس اللهو ونوادر السكر ، وانشاد لأحدث ما نظمه الشعراء المحدثون فى الخلاعة والمجون . حتى اذا كان العشية مع أهل المسجد لم تخل حلقات الدرس من رواية بعض الملح والبطالات فى الحين بعد الحين ، يرويها المشايخ متفكهين غير متحرجين ، بحجة أن فى بعض الهزل تنشيطا للقلب وذهابا بالكلال ، فضلا عمن كان يلتقى بهم الفتى ويرافقهم فى الطريق من الشطار والعيارين ومن لف لفهم من خلطاء السوء

الذئب والحمل

لزم « الحسن » سوق العطارين فى البصرة بعد زواج أمه ، ولم يهجر حانوت العطار الذى اسلمته اليه ، وان يكن قد كره هذه الصناعة وملها ، بمقدار ما زاد اشتغاله بالأدب واهتمامه له وكثر غشيانه للأسمار وسماعه لرواة الأشعار . وكانت نفسه تهتز للشعر ، تتشرب معانيه شربا ، وتتطرب لوزنه وتغمه طربا ، وتغمرها منه غمرة تسكر حسه وتغلبه على وعيه . وكانت امنية حياته التى بها يحلم ، ان يتصل بهؤلاء الذين يتردد على سمعه ذكرهم ويتغنى أهل العصر بشعرهم

عطار البصرة فى الأهواز

وقد شاء القدر الساخر فيما يخلط من خير وشر ، أن احتاج عامل المنصور على الأهواز « أبو بجير الأسدى » الى عطر يعمل له ، فلم يجد فى الأهواز عطارا يصلح لذلك . فبعث الى البصرة فى طلبه ، فأشخصوا اليه أستاذ الحسن والحسن معه . واقاما يعملان فى داره . واتفق أن قدم الأهواز والبة بن الحباب الأسدى الشاعر قاصدا الأمير ــ وهو ابن عمه ــ فمدحه وأقام عنده . ووقع نظر الشاعر الفزل الماجن على « الحسن » فاستحلاه وأعجب بظرفه . ثم خاطبه ووصل معه الحديث ، فسره ما كان عليه «الحسن» من الذكاء والمعرفة ، ولم يلبث ان اطلع منه تعلقا بالشعر ،

ورغبة فى الاقتدار عليه ومجاراة صاغة القريض ورواض القوافى من الشعراء المذكورين

فقال له : « انى أرى فيك مخايل فلاح . وأرى لك ألا تضيعها . وستقول الشعر وتعلو فيه . فاصحبنى حتى اخرجك »

والبة بن الحباب

فتطلع الفتى متشوفا الى هذا الذى أحسن الظن باستعداده ، وقطع على نفسه العهد الاكيد بتخريجه ولم يملك ان سأله مبتدرا : « ومن أنت ؟ »

قال : « أبو أسامة » فهتف الفتى : « والبة ؟ » . قال : « نعم ! »

فتهلل الفتى وفاض قلبه بما كان يخالجه زمنا : « أنا والله — جعلت فداك — فى طلبك ، وقد أردت الخروج الى الكوفة والى بغداد من اجلك »

قال الرجل متعجبا مغتبطا : « ولماذا ؟ »

فاسترسل الفتى سابح النظرة فائر النفس : « شهوة للقائك ، ولأبيات سمعتها لك » . قال : « وما هى ؟ »

فأنشد الحسن بصوت حلو اللثغ ، يجعل الراء غينا ، وفى نبرته حرارة الاعجاب وهزة التأثر :

ولها — ولا ذَنْبَ لها — ... حُبٌّ كأطراف الرماحِ
جرحتْ فؤادَك بالهوى ... فالقلبُ مجروحُ النواحى

فازداد والبة حبا وعجبا

وكان والبة مذكورا فى البصرة ، وقد شاع ذكره واستطارت شهرته فيها لقدومه فى جملة من قدموا على « محمد بن أبى العباس السفاح » حين ولاه عليها الخليفة أبو جعفر المنصور فى سنة ١٤٧ بعقب مقتل ابراهيم العلوى . فلقد ورد العامل الجديد ومعه جماعة من الشعراء

والمغنين ، واصحبه عمه المنصور ـ داهية بنى العباس ـ قوما يعاب بصحبتهم وبجانا زنادقة ، ليبغض ذلك منه فيرتفع ابنه المهدى عند الناس . وكان «محمد بن أبى العباس» يغلف لحيته بأواق من الغالية فتسيل على ثيابه فتصير مسمرة حتى لقبه أهل البصرة « أبا الدبس » . وكان ممن يغنونه دحمان وحكم الوادى ويشترك معهما أحيانا مؤدبه الخليع حماد عجرد فى جماعة من ندمائه منهم والبة ، وهم جميعا يشربون ، فيسكر ويسكرون ، ويغلبهم السكر فينامون فى مواضعهم . وكان الأمير « محمد » قوى البنية شديدا نهاية فى الشدة ، فكان أول من يفيق منهم . وكان يهوى « زينب بنت سليمان بن على » فاذا شرب غنوه بما قال ـ أو بما قال حماد عجرد على لسانه ـ تشبيبا بها فيطرب ويضرب برجله . وكان يأنس أشد الأنس بوالبة ، ويسكن الى ظرفه وخفة روحه ، ويستحسن شعره ووصفه للشراب ، حتى يؤثر عن ذلك فى البصرة أن حكما المغنى دخل عليه أيام ولايته بها ، وكان يوم نيروز ، فاذا به يتململ خمارا وبيده كأس وهو يجتهد فى شربها فلا يطيقها ، وندماؤه بين يديه وفى أيديهم أقداحهم . قال : « يا حكم غننى ، فان أطربتنى فلك كل ما يهدى الى اليوم » وكان بين يديه من الهدايا أمر عظيم . فعمد الحكم الى أبيات لوالبة ، فاندفع يغنى بها :

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابرتنا النحوسُ
واليوم هُو نيروزٌ قد عظّمته المجوسُ
لم تُخْطِهِ فى حسابٍ وذاك مما تسوسُ

فطرب الامير لها ، واستعادها ثلاث مرات ، وعب قدحه ، واستمر فى شربه . وأمر لمطربه بأن يحمل اليه كل ما كان بين يديه

وكان هذا وغيره من الاخبار والأشعار يشيع عنه في البصرة ويتسامع به أهلها ، حتى صار حديث ظرفائها فى تلك الايام . فوقع الحسن ـ ولا جرم ـ تحت تأثيرها ، وأخذته شهرة الرجل بسحرها . فلما التقى به ، كان تلقاءه كالمنوم خدر النفس مضعضع الحس مسلوب الارادة . فلم ينشب والبة ان اختدعه حتى صار معه الى الكوفة

الاستاذ وتلميذه فى الكوفة

ورد الغلام مع أستاذه الى الكوفة ، فطالعه من جانبها الشرقى نخيل ملتفة متصلة تمتد امتداد البصر ، والفاها الطف من البصرة حرا ، وألفى الهواء فيها أصح ليس بالرطب الثقيل ولا بالذى يختلف فى اليوم الواحد ، وهى كذلك أطيب ريحا بما فى سوادها من الورد والياسمين والأترنج ، بخلاف البصرة اذا هبت الجنوب على أرضها النشاشة السبخة . والكوفة مرتفعة عن البصرة معظمها على الفرات ومنه شرب أهلها . ويأتيها الماء بعذوبته وبرده ، ولا يأتى البصرة الا بعد تغيره وفساده مع ما يصيبه من الملح الذعاق اذا كان المد فى الخليج الخارج من بحر فارس . ومع هذا كله فقد رأى الحسن ـ وان كان قد احتفظ بما رأى لنفسه ولم يصرح لوالبة وصحبه ـ أن البصرة حيث مدرج طفولته ومعهد صباه لم تزل احب الى قلبه واحلى فى عينه من أختها الكوفة ، وأنها أقوى منها عمارة ، وأكثر خلقا وازحم قدما وأدوم حركة ، كما أنها اشد تنوعا وأبهج مجلى ، أوتيت من كل حلى وزينة

مهاترات الشعراء

وكان والبة بن الحباب على قولهم فى نسبته ـ اسديا صليبة . ولكنه كان مع ذلك اشبه بالموالى الروم منه بالعرب ، فهو أشقر ، أبيض اللون محمره ذهبى الشعر ـ كما

تدل عليه صفته فى هجاء أبي العتاهية له وتهجينه لنسبه اذ يقول من قصيدة :

وابن الحُباب صليبة(1) زعموا، ... ومن المُحال صليبة أشقرْ
مابالُ مَنْ آباؤه عَرَبُ الأ ... وان يُحسب من بنى قيصرْ
أترون أهل البدو قد مُسخوا ... شُقْراً ؟ أماهذا من المنكر ؟
أكذا خُلقتَ «أبا أسامة» ، أم ... لطّختَ سالفتيك بالعُصفر ؟
مالى رأيتُ أباك أسودَ غر ... بيبَ(2) القذال كأنه زُرْزُرْ
وكأنّ وجهك حمرةً رئة ... وكأن رأسك طائر أصفر

ومن قصيدة أخرى :

أوالبُ ! ما دهاك ، وأنـ ... ـت فى الأعراب ذو نسب ؟
أراك وُلدتَ بالمرج ... يا ابن سبائك الذهب
نجئتَ أُقَيشر الخدّ ... ن ، أزرقَ ، عارمَ الذنب
هَلُمّ إلى الموالى الصّـ ... ـد فى سعة وفى رحب
فأنت بنا — لعمر اللـ ... ـه — أشبه منك بالعرب

واهاجي الشعراء فى والبة كثيرة ، واكثرها فاحش مقذع كالذى هجاه به « سلم الخاسر » — وهو راوية بشار وتلميذه — لما كان عليه والبة من القبائح والمقاذر الخلقية

خلط الفنون بالمجون

وكان والبة ابعد ما يكون عن ملازمة أهل الجد من العلماء والفقهاء والمحدثين وأصحاب الاجتهاد فى الدين

(1) صليبة : يقال عربي صليب اى خالص النسب
(2) غربيب : حالك السواد ، القذال : مؤخر الرأس ، زرزر : طائر اكبر من العصفور لونه أسود

ممن اشتهروا فى مدينة الكوفة الجليلة ، وفاخرت غيرها بهم . وانما كان يجتمع اليه فى الكوفة جماعة منهم مطيع ابن اياس ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد الحارثى من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، وهم فوق عبثهم بالجوارى والاماء يعدون أقدم المتهتكين فى تعشق الغلمان من الشعراء . فيتنادمون فى بعض دورهم على الشراب والغناء ، ويتناشدون الشعر ، ويسكرون فيعربد بعضهم على بعض أقبح العربدة ويتهاجون هزلا وعمدا أفحش الهجاء . وكان أهل الفن لذلك العهد يتعاشرون فلا يكادون يفترقون ، ويتشاركون فلا يكاد يستأثر أحدهم على صاحبه بمال ولا ملك حتى الجوارى والغلمان . ولا عجب فكلهم خلعاء مجان مستهترون ، ليس فيهم الا متظرف منسوب الى الزندقة خبيث العقيدة متهم فى دينه . فلما قدم والبة الى موطنه ومعه الحسن ، وجه الى أصحابه وندمائه ، فجعل لهم مجلسا احتفاء بتلميذه ، ولبثوا أياما فى صبوح وغبوق، يسمرون ويتمازحون وينشدون الأشعار

وكان والبة ماجنا طبعا . وكان مضياعا متخرقا فى النفقة على الجوارى والغلمان ، وعلى بواطى الخمر المعتقة مبذولة للمنادمين وعلى الخوان ممدودا للاخوان المؤاكلين . حافلا بكل ما لذ وطاب من غير حساب . وهومع هذا ليس بالعظيم الثراء ولا الموسع عليه فى العطاء ، فلقد فاته الحظ فى منادمة الخلفاء ، مع ما يؤثر من استحسان المهدى لبعض أشعاره، كراهة منهم لاسفافه فى أكثر قوله ، واشتهاره بين الناس بالفاحشة القذرة واستهتاره فيها . وانما كان يقصد الى من يشاكله من عمال الأمصار ، وهؤلاء كانوا لا تدوم لهم دولة . ولا يقامون بعملهم حتى يصرفوا عنه ويزالوا . فلم يكن له من معول على غير المجدودين من أقاربه ، ثم من هم أكثر منه حظوة أو أقل تبذيرا من أقرانه . ومن ذلك

ما ذكرناه من قدومه على ابن عمه أبى بجير الأسدى عامل الأهواز ، ثم ما نحن ذاكروه من قصده الى الشاعر حماد عجرد يطلب اليه بعض المال ، فلما إنظره لم يانف من العودة اليه . ويقول الرواة فى ذلك انه سأله عما وعد ، فقال حماد « لم اصنع شيئا » ، فدعا والبة بدواة وقرطاس وأملى من كتب له هذه الأبيات :

حمّاد ماكانت عِدا ... تُك بالعِدات الكاذبه

فعلامَ ، ياذا المكرما ... ت وذا الغيوث الصائبه

أخّرتَ ـ وهى يسيرة ... فى الرد ـ حاجةَ « والبه »

فأبو أسامة حقه ... أحدُ الحقوق الواجبه

فاستحى مِن ترداده ... فى حاجة متقاربه

ليستْ بكاذبة ، ولو ... والله كانت كاذبه

فقضيتَها أحمدتَ غِبَّ ... قضائها فى العاقبه

وبديهى أن حماد عجرد انما يسمع لأول مرة من يمدحه وينعته نعت ذوى المكرمات الضافية والغيوث الصائبة ، فلا غرو أن قيل بعد ذلك انه قضى للمادح حاجته وزيادة

وكان والبة يكثر من الخروج للنزهة ومعاقرة الخمر فى دساكر طيزناباذ بين الكوفة والقادسية ، فيظل يشرب حتى يسكر ، ولا يفيق من السكر الا ليعاود الشرب ، ويقيم على ذلك أياما لا يكاد يصحو . وقد صحبه « الحسن » الى هذه الأماكن يتنزه معه ويشرب ، وكان والبة لا ينى يغمز عليه الساقى فيسقيه حتى يتلف ، فاذا هو الى جانبه سكران لا يعقل ولا يعي ما يفعل ، قد خلع الحشمة ومجن . ولقد ذهب ذات مرة فى المجون ان جعل والبة فى سكره يقبض

على السكين ويهم بقتله ، لولا ما أظهر الفتى من سرعة البادرة واستحضاره لمثل من الأمثال السائرة ضحك له أستاذه الخليع . وظل والبة على هذه الحال مع تلميذه يحيف عليه بالشراب ويغريه بالمجون والاستهتار ، حتى تم له مراده من توهين خلقه وافساده

بوادر شاعرية

واذا كانت هذه المعاشرة لوالبة واصحابه قد علمت « الحسن » الفساد والعهر ، فقد هيأت له الاتصال بالشعراء ، وحفزته منادمتهم فى مجالس السكر الى النطق بالشعر . ومما يروونه فى ذلك أنه اجتمع وهو صغير فى صحبة أستاذه بالأقطاب الثلاثة حماد عجرد ومطيع بن اياس ويحيى بن زياد ، فقالوا « ليكن منا اجتماع فى دار أحدنا » فقال حماد :

يا إخوتى عندى لكم بطّةٌ ودَنُّ خمر من رَساطونِ (١)
ولحمُ طَيْرٍ وأتابيعُه فإن نَشِطتُم فأجيبونى

وقال مطيع :

اللهو عندى جميعاً حديثُهُ وعتيقُه
وقُرْطَقىٌّ (٢) شهىٌّ يفوحُ منه خَلوقُه (٣)
والخمر عندى عتيقٌ يشفى القلوبَ غَبوقُه (٤)

---

(١) لفظ رومى معرب وهو شراب يتخذه أهل الشام من الخمر والعسل
(٢) قرطقى : نديم يلبس القرطق ، وهو ضرب من القباء من زى العجم
(٣) ضرب من الطيب (٤) الشرب بالعشى

وقال يحيى بن زياد :

عندى نبيذٌ معسّــلْ والموصلىُّ وزلزلْ (١)
وبطةٌ وخـــــروف وماءُ مُزْنٍ مزمّــل
وبَرْبطٌ وصنوجٌ (٢) وصوتُ نايٍ وجُلجُلْ

وعندها التفتوا جميعهم الى « الحسن » كأنما له — وهو الصغير الغريب بينهم — دار ومال مثلهم ، فأرتج عليه لحظة ثم ضحك وقال :

لا تطمعوا فى شرابى فتَحصُلوا فى السراب
فدون خبزى ولحمى والخمرِ شيبُ الغراب

ومضى الحسن يشاركهم بالبيتين والثلاثة كلما تنادموا على الشراب . وكان ينعقد لهم فى كل يوم مجلس من هـــذه المجالس فى عقر دورهم أو على سطوحها أو فى ظاهر المدينة بين البساتين أو فى بيوت الخمارين . ولقد أفاد الفتى من ذلك مرانة على النظم وقدرة على الارتجال ، وصـــار فى مقدوره — كلما شاء — أن يكون كلامه كله شعرا بغير جهد ولا معاناة . خرج يوما مع والبة من الكوفة يريدان الحيرة وكانا يمشيان وأرجلهما تغوص فى الرمل وقد جاعا ، فدار بينهما من المقال ما يدور فى امثال هذه الحال الا انه شعر :
الحسن :

يا ليت فيما بيننا رِستّةً أرغفةً ما بينها وَزّه

---

(١) الموصل وزلزل من أعلام الموسيقى والغناء (٢) البـــربط نوع من العيدان والمزاهر ، والصنج صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب ، أو آلة للطرب لها أوتار

والبـة :

من وَزٍّ أرض الصين يُؤتى بها مشويةً تتبعهـا رزّه

الحسن :

خوذابة ، تُؤخَـذُ من بعدها خمرٌ من الحيريّـة المُزّه(١)

والبـة :

يديرها ساقٍ وقد شابها من ماء مُزنٍ صَوْبُ مُوْتَزّه(٢) .

الحسن :

طاب لنـا العيش ولـكننا أرجلنا فى الرمل مرتزّه(٣)

وجملة القول ، أن تواتر هذه المنادمات والمطارحات ، كان داعيا للحسن على شحذ قريحته وايقاظ ملكته الى ادراك المعاني واقتناصها ، والاستعداد لها باللفظ المناسب والقالب المحكم . فكان فى كل يوم يزداد تمكنا من فنه ، ويزداد معه ثقة بنفسه . فلم يقف عند المحاكاة والاقتداء، بل جعل يجاذب الجماعة ويباريهم ، ويطاولهم ويستقل عنهم

---

(١) خوذابة : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم (٢) سحابة فائرة
(٣) مغروزة ثابتة

صبوات الصبا

كانت الكوفة فى ذلك العهد مشهورة مذكورة عند أهل السماع بقيانها الحسان الضاربات بالعود الحاذقات بالغناء . وكان أجل المقينين بها وأكبرهم عبد الملك بن رامين ، ومن جواريه سلامة الزرقاء وسعدة وربيحة وغيرهن . وقد قال الشعراء فيهن وأعادوا القول يذكرونهن بالحسن وحلاوة الصوت وافانين الصناعة . وكانت ربيحة سمراء مجدولة وسعدة بيضاء لينة . وكانت أوفرهن حظا سلامة الزرقاء وكانت تخرج الى المعجبين بها فى ازار ورداء قوهيين (١) موردين كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيها ، وقد أشالت نهودها ثوبها عن صدرها ، ولها كالشارب وبر خفيف مخضر ممتد على شفتها ، وكأنما خطت طرتها وحاجباها بقلم ، فلا يبرح يلحظها الطرف ، ويقصر عن كل ضرب من ضروب حسنها الوصف

وهؤلاء الجوارى القيان قد شهر بهن الكثيرون من فتيان وشيب ، منهم الشعراء وأهل الأدب وأصحاب الامارة . وكانت تبذل أموال عظيمة فى شرائهن ، أو من أجل قبلة ، أو ابتسامة رضا منهن . ولقد عرض بعضهم لؤلؤتين ، نقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم ، ولم يشرط على القينة لتكونا لها الا أن تأخذهما بشفتيها من شفتيه . وكان ممن يجتمعون عند ابن رامين معن بن زائدة وابن المقفع وروح

(١) نسبة الى قوهستان

ابن حاتم المهلبى ، فذكر الرواة فيما ذكروه عنهم أنه فى مجلس سماع من هذه المجالس تغنت الزرقاء ، فبعث معن اليها بدرة فصبت بين يديها ، فبعث روح اليها أخرى فصبت بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم فبعث بصك ضيعته

ولم يكن منزل ابن رامين وحده المشهور بقيانه ، بل كان مثله منزل الشيخ زريق بن منيح مولى عيسى بن موسى وكان يجتمع اليه أشراف الكوفة من كل حى . وكان بين المنزلين منافسة تظهر فى حرصهما على مرضاة هذا الشاعر أو ذاك لما فى الشعر من حسن الدعاية

صبوة الشاعر الصبى

فى هذا العهد من التولع بالغناء والمغنيات كان مقدم « الحسن بن هانىء » الفتى مع أستاذه والبة على الكوفة فى سنة ١٥٦ أو نحو ذلك . فلا غرو أن كانت مجالس اللهو والشراب التى كان يعقدها هنا والبة وأصحابه لا تخلو فى بعض الأحيان من الجوارى القيان اللواتى على شاكلتهم ، من كل ماجنة متهتكة ، أديبة متظرفة ، وقاح الوجه سليطة اللسان ، فكن يعاطين هؤلاء المجان الراح ، ويستحثثن اليهم الأقداح ، ويسابقنهم الى الشرب ويجالسنهم متبذلات ، ويطارحنهم المجون والبذاء ، فضلا عن اللعب بالعود والغناء . ولعل « الحسن » كان يشاركهن ، فقد كان من صغره مولعا بالعود يضربه . ومضت على ذلك أيام وأيام . ولا ندرى بعدها أكانت المصادفة ، أم دراية هؤلاء النسوة المجربات بما عليه الرجال من حب التجديد والاستطراف وولع الكبار منهم بالصغيرات خاصة ، هى التى شاءت لهن أن يصحبن معهن الى المجلس طفلة كاعبا . وكان معظم اللواتى يغشين المجلس ممن تجاوزن غرارة

الشباب وأدركهن النضج ، ممتلئة أجسامهن ، ثقال روادفهن وافية تقاطيعهن وأعطافهن ، وقد طالت لهن بالرجال ملابسة وخلطة ، وقتلن الحب معرفة وخبرة ، حتى صرن أفتر نشاطا وأثقل نهضة وأسكن حركة مع فجورهن وخلاعتهن ومع ما يبدينه من تصنعهن وتكسرهن وكثرة تضاحكهن

وأما الضيفة الغريرة الصغيرة السن فانها تختلف عنهن : مهفهفة القوام ، طويلة خوط المتن ، لا يكاد يبين لنهديها حجم ، مسترسلة الأعطاف ، غلامية الأرداف ، فهى الى الغزال أقرب منها الى المهاة . وكانت خفرة مسبلة الهدب غضيضة الطرف ، خدها من الحياء كجنى الورد ، وكأنه أول خروج لها من خدرها

ولقد تلقتها الجماعة لقاءهم لغيرها بالمزح والعبث شأن أهل اللهو ، الا « الحسن » شذ عنهم فى هذه المرة ، وكأنما أنسى ما أخذه عنهم من العربدة والمجون . فبقى معهم سواد الليلة ساهما محتشما على غير عادة ، مع أنه حاف على نفسه فى الشرب وأكثر فوق العادة . ولما أظهر القوم عجبهم له اعتذر بوعكة خفيفة به . ولو لم يلههم عنه ما هم فيه من السكر لألفوا الفتى فى وجومه يلحظ الفتاة ويختلس اليها النظرة ، وهى على حيائها لا تحسو من قدحها بعد اللجاجة والالحاف الا النغبة بعد النغبة مستكرهة للشرب لم تتعوده تعود المتوفرات على مجالسه

وقضى الجماعة والجوارى سهرتهم على المألوف من سنتهم فى المعاقرة والقصف ، حتى غار النجم وبدأ فلق الصبح ، فاستقبلوه بالصبوح ثم تفرقوا

وغابت الفتاة فترة ، فأخذ الفتى يستطيل غيبتها ويديم التفكير فيها . ولعل الذى وصلها بقلبه ما بينهما من تقارب العمر ، وتلك الغرارة التى لم يعرفها فيمن لقيهن من النساء حتى لقيها . وانه ليحس نحوها بشىء لا عهد له به ، يسرى

فى كيانه وينساب الى وجدانه ويمتزج بأجزاء نفسه ويخالط قواها

ثم تكررت مصاحبة الفتاة للجوارى فى زوراتهن ، و « الحسن » يزيد اشتغالا بها كل يوم ، حتى لقد أسهرت ليله وأرقت عينه ، واشتدت به الحال وساءت صحته وشفه السقام . وزاد فى بلائه كما زاد فى عجبه ان راى فتاته لم تنشب أن تعودت الشراب حتى انساقت مع الجماعة ، منصرفة عما كان يبديه لها من جد الحب ، مؤثرة لما هم بسبيله من متاع القصف واللهو الصاخب

مقطوعة الغزل الأولى

وانطوى الفتى على نفسه وعكف على يأسه وازدحمت فى خاطره المعانى ، فتحركت شاعريته وانبعثت ملكته ، وجرت قريحته بأول ما جرت به من شعر وجدانى صادر عنه غير مقترح عليه :

حاملُ الهوى تعِبُ يستخفُّه الطربُ(١)
إن بكى يحقّ له ، ليس ما به لعب
تضحكين لاهيةً والمحب ينتحب !
تعجبين من سقمى ! صحتى هى العَجَبُ
كلما انتفى سببٌ منك ، جاءنى سبب

ثم غابت الفتاة بعد مدة وانقطع خبرها ، كما غابت من النساء غيرها وحلت أخريات محلها ، شأن من يتعرض لهذه الحياة الطائشة المتقلبة وينزلن فى غمارها

---

(١) ذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات أول ما قاله الحسن من الشعر وهو صبى

ولكن الفتى وقف هنا وقفة ، ولم تعبر به هذه الواقعة الا بعد توكيد العبرة. فقد اقترن فى نفسه ما كان من أمه وتفريطها فيه وهو صغير ايثارا للزواج ، ثم ما كان وهو شاب من هذه الفتاة الغريرة وانصرافها بطبعها عن جد العاطفة الى هزل الحياة ولهوها . فاجتمع له فى بداية تكوينه من هذين رأى فى « المرأة والحب والحياة » بقى فى نفسه وحسه مثل وسم النار لا ينمحى آخر العمر

ولقد استأنف الفتى عيشته ، ولكنه استأنفها غير مقبل عليها ولا ملتذ طعمها . والذكرى تراجعه ، وخيال الفتاة يعاوده . ومن كان مثله فى سن العشق ، لا بد أن يتحرق من لاعج شوق . ومهما يكن فى هذه السن من غلبة الطبيعة وتيقظ الحس ، فانها أيضا أوان تفتح العاطفة والاستجابة الوجدانية لدواعى النفس

وكان من تطاول الأيام وتعاقبها عليه أن خلصت واقعة حبه الصبيانى من ملابساتها المادية ، وتحولت صورة الفتاة فى مخيلته صورة بغير هيولى ، وصارت فى باطن وعيه وقرار سريرته كالمثل المجردة فى عالم المعانى

تباشير بمطلع شاعر كبير

واتفق وهو فى هذه الحال أن قدم بصحبة والبة الى منزل محمد بن سيار بن يعقوب ، ولديه قيان أخرجهن لندمائه ، وجلس ابنه فى صفهن وكان جميلا رائعا فى العين مع حسن موقع فى النفس . فكان من فيض خاطر « الحسن » وسبحاته العبقرية انشاؤه لهذه الأبيات اللطيفة الروحية.

يا ظبي يا ابن سَيار وزَيْنَ صف القيانِ
خُلقتَ فى الحسن فرداً فما لحسنك ثانِ

كأنمـــا أنت شيء ... حوى جميع المعانى
لَينعتنّـــك وهمى ... إن كلّ عنك لسانى

واستفاضت للحسن بهذه الأبيات وغيرها شهرة فى بعض أوساط الكوفة ، فاتصل به أدباؤها ورغبوا فى صحبته ، فشاهدوا منه أدبا جما ، وكبر فى أعينهم وعظم موقعـــه عندهم . وكان أشدهم شعورا بعظم استعداده وما هــو مدخر له فى مستأنف حياته ، أستاذه والبة بن الحباب ، حتى عرض ذلك له فى الأحلام

فانه ــ فيما يرويه عن نفسه ــ يقول : كنت نائما ذات ليلة ، والحسن الى جانبى نائم ، اذ آتانى آت فى منامى . فقال الهاتف : « أتدرى من هذا النائم الى جانبك ؟ » . قلت : « لا »

قال : « هذا أشعر منك وأشعر من الجن والانس . أما والله لأفتنن بشعره الثقلين ، ولأغرين به أهـــل المشرق والمغرب »

فعلمت أنه ابليس . فقلت له : « فما عندك ؟ »

قال : « عصيت ربى فى سجدة فأهلكنى ، ولو أمرنى أن أسجد لهذا الف سجدة لسجدت »

ولم يكن « الحسن » ليخفى عليه موضع الاحسان فى قول، فكان من ذلك أنه ــ على صغره ــ لم يأخذه الشك فى شعره، بل توكدت معرفته لقدره ، ولم ير عليه لأحد ممن حوله كبير تقدم ومزية ، فأدركته انفة من الحياة التى يحياها مع والبة . فاعتزم الرحيل ، وآذنه به ، معتذرا بالخروج مع وفد لبنى أسد الى البادية فى طلب شوارد اللغة والاحاطة بغريبها والتمكن من مذاهب الأعراب فى الجزالة وفحلى الكلام

أثر البادية

أقام « الحسن » فى البادية سنة أفادت روحه فى أثنائها مسحة من روحها واكتسب من صحة جوها بعض الصحة فى جسمه ونفسه ، وزادت حياة الفطرة من دقة ملاحظته ورهافة حسه . ثم عاد الى البصرة من بعدها مثقل الجعبة من مأثور بلاغاتها وفرائد عباراتها وأراجيزها ومقطعاتها . ولقد احتقب خياله فوق ذلك الكثير من مناظر البادية ومجالي جمالها ، وتعرف أرضها وسماءها ونباتها وحيوانها، حتى أصبح أعرف أهل الحضر بها وأبصرهم بحالها ، وكانت هذه الخبرة عتاده فيما نظم بعد ذلك من القصائد المختارات فى بابى الصفات والطرديات

نقطة التحول

وتلقى أهل البصرة عودة « الحسن » بالتعجب والتساؤل، لما كانوا يعهدون عنده من فرط الاعجاب بوالبة ـ أستاذه الأول ـ وتغنيه بشعره ولهجه بذكره قبل أن يلقاه ، وكان ظنهم وقد لقيه أنه غير مفارق له العمر كله . فكان «الحسن» أول عودته يسمع فى كل خطوة من يقول له بعد تحيته : «أرغبت عن والبة ومللت الكوفة ؟ ! » فيجيب موجزا متأدبا : « هى أجدى وأطيب من أن تمل ، ووالبة ممن لا يرغب عنه ، ولكنى نزعت الى الأوطان واشتقت الى الاخوان »

الحياة الجادة

واستأنف « الحسن » فى البصرة حياة الدرس والتحصيل وكان لحلقات الشعراء بالبصرة موضعان : موضع بالمربد ، وموضع بالمسجد ، وكان الحسن يغشاهما ولكنه لم يكن يقصر غشيانه عليهما ، بل أقبل على كل فن وعلم . وقد بلغ من ذلك أن تحدث عنه جماعة من الرواة ممن شاهدوه فى مستقبل أيامه فقالوا : « كان أقل ما فى الحسن قول الشعر ، فقد كان فحلا راوية عالما »

والبصرة أسبق عهدا من الكوفة بنهضة النحو واللغة والأدب ، وعلماؤها من أرسخ الناس فى العلم قدما وأغزرهم مادة وأولاهم بالثقة وأصحهم سندا ، مع ما كان من ظهور الكوفيين وقتئذ ، وتقريب خلفاء بنى العباس لهم واتخاذ المؤدبين لولدهم من بينهم ، جزاء نصرهم اياهم والسرعة الى تلبية الدعوة دون أهل البصرة حين قاموا لطلب الخلافة . وجعل الحسن يختلف الى حلقات الدرس التى كان يختلف اليها قبل سفره ، يأخذ عن هؤلاء العلماء الأعلام أنفسهم ويأخذ عن غيرهم . وأقبل كذلك على نحو سيبويه ينظر فيه ، وكان كتاب سيبويه آية العصر لم يسبق أحد الى مثله ، وامتنع فى اعتقاد القوم أن يلحقه أحد من بعده ، فهو الامام فيه ابتدعه لا على مثال . وكان قد بلغ من شهرة كتاب سيبويه أن كان يقال بالبصرة « قرأ فلان الكتاب » فيعلم أنه كتاب سيبويه ، و « قرىء الكتاب » فلا يشك أنه كتاب سيبويه ، وكان أشرف هدية تهدى الى أهل العلم . وكان القوم كلهم على تعظيمه واستصعاب ما فيه . فلا عجب أن نرى المترجمين للحسن يحرصون على ذكر قراءته له ونظره فيه

الاستاذ الثانى

ولم يكن بين أساتذة « الحسن » بعد عودته من الكوفة الى

البصرة من لزمه الفتى وأفاد منه مثـل « خلف الاحمر » • ولا جرم ، فقد كان شاعرا يعاني نظم القريض ويحسنه ولم يكن مجرد عالم بالشـــعر راوية له • واذا كان الاقدم فى أستاذيته والبة بن الحباب ، فان خلفا الاحمر كان هو الاكثر تأديبا وتخريجا له

و « خلف » أول من أحدث السماع بالبصرة، وكان أوسع الرواة رواية لاشعار البادية • ولقد كان الناس من قبل ، وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب «العباس بن الاحنف» الشاعر الغزل المعاصر، فما هو الا أن أورد عليهم خلف الاحمر نسيب الاعراب حتى صار زهدهم فى نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الاعراب (١) • وكان خلف يقول الشعر فيجيد، وربما نحله الشعراء المتقدمين فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم • ولكنه انقطع منذ نسك عن تزوير الكلام ، واشتهر بصدق اللسان حتى كان سامعوه لا يبالون اذا روى خبرا أو أنشدهم شعرا ألا يسمعوه من صاحبه • وليس أدل على عقيدة شعراء العصر بأنه أفرس الناس ببيت شعر ، من احتكام بعضهم اليــه واستنصاحهم اياه • ولقد شاع فى ذلك قول مروان بن أبى حفصة له : « نشدتك الله يا أبا محرز ، الا نصحتنى فى شعرى ، فان الناس يخدعون فى أشعارهم » • كما شاعت قصة ابن مناذر الشــاعر وقد حضر مأدبة كان فيها خلف الاحمر وتلميذه الاصمعى • فقال الشاعر لخلف : « يا أبا محرز ! ان يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا ، فهذه أشعارهم مخلدة • فقس شعرى الى شعرهم واحكم فيها بالحق » • فغضب خلف لهذه الدعوى العريضة • ثم أخذ صفحة مملوءة مرقا فرمى بها عليه ، فقام ابن مناذر مغضبا ، ولعله هجاه بعدها من جراء ذلك

ولم يكن خلف الاحمر ضنينا بشيء من أدبه على تلميــذه

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ

«الحسن» ، واذا كان والبة قد جرأه على الشعر كما جرأه على السكر وهو غلام ما طر شاربه بعد ، فان خلفا فى تعصبه للجزالة وجودة السبك وتنطسه فى النقد ، عمل على كف جماحه وألزمه التريث والتثبت واستكمال أداته وتقوية ملكته قبل كل شيء ، وأعلنه بقوله : « لا آذن لك فى عمل الشعر الا أن تحفظ ألف مأثور للعرب ، ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » • فعكف الحسن يتلقفها من فيه ومن أفواه سائر الرواة ، وكان سريع الحفظ قوى الذاكرة ، فوعاها في مدة غير مديدة ، وجاءه يقول : « قد حفظتها »• فجعل خلف يستنشده وهو ينشده حتى أتم أكثرها في عدة أيام ، وكان يؤديها عن ظهر قلب لا يخرم منها حرفا • فلما أظهر الاستاذ أن ذلك حسبه وأن الذى أداه التلميذ فيه مقنع وأى مقنع ، عاد الحسن يسأله أن يأذن له فى نظم الشعر • فاذا الاستاذ قد عاد يقول له : « لا آذن لك الا أن تنسى هذه الالف الارجوزة كأنك لم تحفظها » وكان الفتى جيد الحافظة بعيد النسيان ، فاحتج متعجبا : « هذا أمر يصعب على ، فانى قد أتقنت حفظها » فأصر الاستاذ : « لا آذن لك الا أن تنساها »• فذهب الحسن الى بعض الديرة خاليا يتفرج وأقام مدة حتى نسيها • ثم حضر فقال مؤكدا: « قد نسيتها حتى كأن لم أكن حفظتها قط » • عندئذ قال الاستاذ : « الآن انظم الشعر » • ولقد روى عن شاعرنا أنه قال : « ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى ، فما ظنك بالرجال ! »

وهذا المنهج الذى أخذ به الاستاذ تلميذه ظاهر فيه أنه انما أراد الى تخريج شاعر لا راوية • ومن ثمة كان دفعه اياه الى التكثر من المحفوظ ثم الى تعمد نسيانه ، تحقيقا للغاية من تطبيع الفتى على قوالب النظم الجيد من غير قتل لملكة الشاعر المطبوع فيه

ولقد جاءت أشعاره وهو فى كنف أستاذه شاهد صدق على مبلغ ما كان من تأثره بالاساليب القديمة وشعر الاعراب

ومن هذا القبيل رثاؤه لاسعد بن عصمة المشهور بأبى البيداء الرياحى وهو أعرابى نزل البصرة يعلم فيها الصبيان بأجرة وأقام بها عمره ، وكان من الفصحاء ينقل الرواة عنه وروى له « الحسن » شعرا . ومن شعره يتغزل :

قال فيها البليغُ ما قال ذو العـــى ، وكلٌّ بوصفها مِنْطِيقُ

وكذاك العدوُّ لم يَعْدُ أن قا ل جميلاً ـ كما يقول الصديقُ

وقد أتت مرثية « الحسن » فيه ـ كما هو المرتقب لذلك الحين منه ـ متوعرة ، عليها جفوة الاعراب وخشونة الجاهلية وعنجهية البادية ، كثيرة الغريب ، حوشية اللغة . ومطلعها :

هل مخطىءٌ حتفَه عفرٌ بشاهقةٍ رعى بأخْيافها شثًّا وطبّاقا

الى أن قال :

زار الحِمامُ أبا البيداء مخترماً ولم يغادرْ له فى الناس مطراقا (١)

ومن طريف ما ذكر أن الاستاذ الاحمر قال ذات يوم لتلميذه الحسن ، ولعلها طريقة استحدثها لتخريجه : « ارثنى وأنا حى حتى أسمع » . فلم يمهل الحسن أن جاء بمرثية لم يملك السامعون لها الا استجادتها ، ولكنهم تعللوا وقالوا له ان كنت قلتها فقل فى نحوها . فاعتزل وعمل فيه أخرى . فلما أنشدها وقعت موقع سابقتها . فقال أستاذه : « أحسنت والله » . فقال الفتى مازحا : « يا أبا محرز ! مت ، ولك عندى خير منها » . فقال : « كأنك قصرت ؟ » . قال الفتى : « لا ، ولكن أين باعث الحزن ! » .

---

(١) نظيرا

ولما لم يكن سبيل الى ارجاء الاستاذ حكمه حتى يرى ما يقال فيه بعد موته فقد صدع بحكمه يومئذ فقال : « يا بنى ! ان شعرك فوق سنك . ولئن عشت ، لتكونن رئيسا فى الشعر »

وأما المرثيتان ، فكلاهما من ذلك الطراز القديم . واحداهما رجز ومطلعها :

لو كان حيٌّ وائلاً من التَلَف لَوَألتْ شغواءُ فى أعلى شعف

والاخرى على النسق نفسه وعلى القافية ذاتها الا أنها ليست رجزا وهى مثبتة فى ديوانه كأختها ، الا أنه فى هذه وتلك أبيات لابد من آيرادها وهى قوله فى الاولى :

أودى جِماعُ العلم إذ أودى خَلَف
مَنْ لا يُعَدُّ العلمُ إلا ما عَرَفْ
فكلما نشاء منه نغترف
روايةً لا تُجتنى من الصحف

ومثله فى القصيدة الثانية :

أنسَى الرزايا مَيْتٌ فُجعت به
أمسى رهينَ التراب فى جَدَف
كان يُسَنِّى برِفْقِهِ غَلِقاً
فى غير عىٍّ منه ولا عنف
يجوب عنك التى عَشِيتَ بها
من قَبْلُ حتى يَشْفيك فى لطف

ولا يصحِّف معنى الكلام ، ولا
يكون إنشادُه من الصحف

وكان ممن مضى لنا خلفا
فليس منه إذ بان من خَلَف

وهذه الابيات من المرثيتين أوردناها لانها فوق بلاغتها بليغة الدلالة على مكان خلف من شاعرنا الناشيء • ولقد كان التلميذ يكثر من ذكر أستاذه ويفاخر به • ولم يزل يقول فيه « جمع علم الناس وفهمه » • وكان خلف ـ كما تقدم ـ له حذق بالشعر وطبقة فيه ، وقد اجتمع له ديوان شعر حمله عنه « الحسن »

الخلاف على نسب الشاعر

كذلك كان التلميذ أثيرا عند أستاذه ، حتى قيل على أكثر من لسان أنه كان من أميل الخلق الى « الحسن » وأنه يوده أكثر من غيره من الشعراء • ولما كان لخلف ولاء فى الاشاعرة وكان أحد عمال اليمن وكان عصبيا ، فقد استدعى « الحسن » يوما وقال له : « أنت من اليمن ، فتكن باسم من أسماء الذوين » • والذوون هم المصدرة أسماؤهم بـ « ذو » من ملوك اليمن • وأحصى « خلف » له أسماءهم وخيره ، فاختار منها « ذا نواس » • فكناه « أبا نواس » • فصارت له كنية وغلبت على « أبى على » كنيته الاولى • فهو منذ ذلك الحين الى يومنا يعرف بين الناس عوامهم وخواصهم « بأبى نواس »

وغنى عن البيان أن معرفة خلف بموضع أبى نواس فى الادب هى التى جعلته يدعو الفتى الى اظهار نسبته الى اليمنية ليؤثرها به وبما سيكون من شأنه ، تعصبا لها

والانساب ما برحت عند العرب موضع مفاخرة • وقد

وقع من ذلك للشعراء مادة لهجاء من يريدون هجاءه، بالتفنيد لدعواه وتهجين نسبه بالحق وبالباطل

وكان أبو نواس من نسل الموالى ، فادعى فى أول دعوته أنه من ولد عبيد الله بن زياد من بنى تيم اللات • ولكن شاعرنا لم يهنأ طويلا بدعوته اذ قيل له ان الرجل الذى تدعى اليه لا عقب له ، لانه فلج ومات عن غير ولد، فاستحى الدعى ، وتحول عنهم على كره منه وكان يكبر شأنهم ويراقبهم • وأمضى بعد ذلك صدرا من عمره يخلط فى دعوته • فتارة يدعى للنزارية وينتسب للفرزدق ، وتارة ينقلب على النزارية ويدعى لليمنية وأنه من قبيلة « حكم » • وكان كلما ادعى لواحدة هجا الاخرى وأقذع فى هجائها حتى هاج عليه شعراء القبائل وتعرض لاستطالة أعدائه عليه وغمزهم له تلميحا ووقوعهم فيه تصريحا • ومن ذلك هجاء الفضل الرقاشى له :

نبطىٌّ ، فإذا قيل له :
«أنت مولى حَكَمٍ ؟» قال : « أجلْ »
هو مولى الله — إذ كان به
لاحقاً ، فالله أعلى وأجلّ
واضعاً نسبته حيث اشتهى
فاذا ما رابه ريبٌ رَحَلْ

ولقد ظل الرقاشى وأبو نواس يتهاجيان فما أمسك واحد منهما عن صاحبه حتى فرق الموت بينهما

وكذلك قول سليمان بن أبى سهل بن نوبخت :

يُنتمى الى حَكَمٍ دعوةً   وما إن له نَسَبٌ فى حَكَم

على أن المذكور في أمر أبي نواس أنه كان بالفعل مولى الحكميين . وهي قبيلة كبيرة باليمن منها الجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان وقد كان جد أبي نواس من مواليه . ومن أجل هذا تكرر من الشاعر فخره باليمن ومدحه اليمنية، واذا كان قد عرض لها بالشتم مرة فذاك من حر غيظه وغليان صدره على بعض اليمنيين وبخاصة هاشم بن حديج الكندي، وقد قال فيه :

وتَسْحَتَدٌ ، حتى يخاف الجليسُ

أذاك عليه من الحدّة

وتختم ذاك بفخرٍ عليـــه

بكندةَ ، فاسْلَحْ على كِنده

ولم يلبث الشاعر أن اعتذر من ذلك أشد العذر ذاكرا أنه يمني وأنه لم يجاوز بشتمه اليمنية أن سب نفسه وأهان والده :

فأقسمُ ما جاوزتُ بالشتم والدي

وعِرْضي ، وما مزّقتُ غيرَ أديمي

ولا يخلو أن يكون أبو نواس في بعض دعاويه هـــذه يتماجن ويعبث على عادته ، ولاسيما أنه كان في أثناء هذا كله لا ينسى أنه فارسي من جهة أمه وان لم يذكرها خشية أن يهجى بها . فكان يتعاجم في شعره كما سنرى ، وقد ذهب في آخر أمره الى هجو العرب أجمعين ، واستن في الشعر غير سنة شعرائهم الاقدمين

ملتقى التيارات في ظل الدولة العباسية

لقد كان المسلمون فى صدر الاسلام مشغولين بالفتح . ولم تكن شواغلهم الفكرية الى قبيـل زوال الدولة الاموية تعدو المنازعات بين الأسر الطامحة ، والاختلاف فى الامامة بين أمية وشيعة أهل البيت والخوارج ، ثم الاجتهـاد فى المذاهب الفقهية ، ولم يظهر علم الكلام الا فى أواخرها

فلما استقر الامر للعباسيين صرفوا همهم عن الفتوح الى توطيد دعائم الامبراطورية العظيمة التى آلت اليهم ، فلم يعرف لهم جهاد لنشر الدين وتوسيع حوزة الاسلام ، وانما كانت حروبهم قمعا لفتنة فى الداخل أو دفعا لنكث العهد ونقض الشرط والعدوان من الخارج . وفى ظلال هذه الحال من ايثار السلام ومداومة الاحتجان والاستجمام ، تعددت المرافق وكثرت الارزاق واستبحر العمران واتسعت الحضارة، وأقبل معها الناس على الاستمتاع وطلب اللذة ، كما أقبلوا بعقولهم عـلى تحرى ألوان المعـرفة والتطلع الى بعيـدها واستطراف غريبها ، فيما نقله المترجمون بأمر الخليفة أبي جعفر المنصور من الكتب القديمة عن اليونانية والرومية والفارسية والسريانية فى المنطقيات والرياضـيات والطب والنجوم

وكان من شأن نصرة الفرس للدعوة العباسية أن أحلهم خلفاء بنى العباس المحل الرفيع وردوا عليهم اعتبارهم • لقد أديل للفرس في يوم الزاب من يوم القادسية ، فهم اليوم كفاء والعرب لا سيد ولا مسود ، عفى الانقلاب العظيم على الفوارق ، فزالت من أمامهم العوائق وارتقوا الى أسنى المناصب فى الدولة ، واتخذ الخلفاء من الفرس كتابا ووزراء، ومن اليهود والنصارى تراجمة وأطباء ، وانفسحت لهم أجمعين مذاهب القول والعمل • ولا شك فى أن السياسة الجديدة التى أخذت بها الدولة العباسية في المساواة بين رعاياها على اختلاف أجناسهم وأديانهم كانت مشجعا على امتزاج الحضارات وتزاوج الثقافات ، فأفاد العرب من ذلك خيرا كبيرا ، وكذلك دخل عليهم منه شر مستطير • فغلبت عليهم الحضارة الفارسية ، وتشاغلوا بالفلسفة اليونانية ، وقبسوا من نظر أهل الهند ، وأداهم هذا كله الى أشياء لم تكن من طبعهم ولا من مألوف عادتهم فى أول أمرهم ، من اصطناع الترف فى الملبس والمآكل والاستهتار فى الشرب، والمجاهرة بما يستوجب الحد ، ومن الكلف الذى لا بعده كلف بعلم النجوم والتنجيم ، والتفلسف حتى فى الامور الدينية والعقائد الايمانية

تعاجم أبى نواس

والامثلة على ذلك فى شعر أبى نواس كثيرة لاسيما شعره بعد زيارته لبغداد • فمن تعاجمه في شعره وتعصبه للفرس قوله بعد وصفه دنان الخمر ومجانى الكروم :

تُراثُ أنوشروان كسرى ، ولم تكن
مواريثَ ما أبقتْ تميمٌ ولا بَكْرُ

ثم قوله في صفة الغناء الذي يستحبه على الشراب المعتق:

فاسقنيها وغن صـــو تاً ـ لك الخيرُ ـ أعجما
ليس في نَعْتِ دمنـةٍ لا ولا زَجْرِ أشأما

وقوله يتمنى لو كان الأكاسرة أحياء وكان نديمهم:

فلو رُدَّ في كسرى بن ساسان روحه
إذن لاصطفاني دون كلِّ نديم

ومثلها هـذه الابيات الرائعة في صفة دار من الدور الفارسية القديمة في ساباط، وقد شرب فيها الشاعر وصحبه بين آثار من سبقوا من الندماء الغطارفة أبناء فارس، ذاكرا لايامهم، ناظرا الى الاطلال الناطقة بحضارتهم، مجددا بالشرب فيها عهدهم:

ودارِ ندامَى عطّلوها وأدلجوا
بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارسُ
مساحبُ من جرِّ الزقاق على الثرى
وأضغاثُ ريحانٍ جَنِيٌّ ويابس
حبستُ بها صحبي، فجددتُ عهدَهم
وإني على أمثالِ تلك لحابسُ
ولم أدرِ منهم غيرَ ما شَهِدَتْ به
ـ بشرقيّ ساباطَ ـ الديارُ البسابسُ
أقمنا بها يوماً، ويومين بعده،
ويوماً له يومُ الترحُّلِ خامس

تدار علينا الكأسُ فى عسجديّةٍ
حَبَتْها بأنواع التصاوير فارسُ

قرارتها كسرى ، وفى جَنَباتها
مَهًى تدّريها بالقِسِىّ الفوارسُ

فللخمر ما زُرّت عليه جيوبُها
وللماء ما دارتْ عليه القلانس

وكذلك احتفاله بالاعياد الفارسية :

يُباكِرُنا « النوروز » فى غَلَسِ الدجى
بنَوْرٍ على الأغصان كالأنجم الزهرِ

يلوحُ كأعلام المطارف وَشْيُهُ
من الصُّفْر ، فوق البيض والخضْر والحمر

إذا ما قابلَتْهُ الريح أوما برأسه
إلى الشَّرْب أن سُرّوا ومال من السكر



إسقنا ، إنّ يومَنا «يوم رام» — ولِـ « رامٍ » فضلٌ على الأيامِ
فى رياض رَبْعيَّة بكَر النوْ — ءُ عليها بمستهلّ الغمام
فتوشّت بكلّ نَوْرٍ أنيقٍ — من فُرادَى نباتِه وتُؤام
فترى الشَّربَ كالأهلّة فيها — يتحسّون خسرويّ المدام

والنيروز أو النوروز عند الفرس أول يوم من السنة الشمسية عند نزول الشمس أول الحمل ، ومعناه بالفارسية

« يوم جديد » لانه يؤذن بمقدم الربيع الذى يرد على الدنيا شبابها وجدتها وهو عيدهم السنوى يقضونه فى التنزه والشرب فى الرياض. ويوم رام هو كل يوم حادى وعشرين من كل شهر من شهور الفرس ، يلذون فيه ويفرحون . وكان أبو نواس يحتفل بأعيادهم ، كما كان يلهج بذكر مناقبهم وتفضيلهم ويحب أن يتزيا بزيهم ويظهر للناس أنه منهم

الشعوبية

ولا شك فى أن الحركة الشعوبية كان لها كبير أثر فى ذلك . فقد كان للعرب افتخار بأنهم خير أمم الارض قاطبة، لما نشأوا عليه من الاستقلال والعزة والمنعة فى جزيرتهم ، وللصفات والعادات التى شاعت بينهم من اكرام الضيف ونجدة الضعيف وحفظ الانساب ، وما كان عليه الاعراب من البديهة وسرعة الخاطر وقوة الجنان ، وما اختصوا به لغتهم من صفة البلاغة وحسن البيان ، ثم ما كان من نشأة الاسلام فيهم وانتشاره على أيديهم

وقد ثقلت هذه العصبية المتطرفة من العرب وما يلحق بها من المفاخرة المتكررة. وزادها ثقلا أنهم لم يرتضوا دعوة المفكرين المعتدلين الى التسوية بين المسلمين عامة ، وأنه ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى . فلم يلبث هذا التعنت أن ثارت عليه ثائرة غير العرب من شعوب الامبراطورية الاسلامية فغالوا مثل مغالاتهم فى الحط من شأن العرب العرباء وتحقيرهم . فراحوا يهجنون أنسابهم بشيوع المرأة بين رجال عدة فى جاهليتهم، ويعددون مثالبهم من وأدهم الولد خشية الاملاق ، واعتماد قبائلهم على الغزو والسلب ، ويزرون عليهم جدب الارض وبداوة العيش ، وذهابهم فى المن من أجل طعام أطعموه أو معونة بذلوها . وراحوا فى الوقت نفسه يذكرون عظمة السلطان عند

الرومان ، وحكمة الهند وطبها ، ومنطق يونان وفلسفتها ، وعلوم مصر وسحرها ، وصناعات الصين وفنونها،وحضارة فارس وترفها • وجعلوا العرب من ذلك أقل الامم شأنا فى كل شيء ، وأضعفها استحقاقا للتفاخر

واذا ذكرنا أن أبا نواس كان أعجميا من ناحية أمه ، وانه على أية حال لم يكن يرجع من جانب أبويه جميعا الى نسب يصح معه الافتخار باظهاره ، لم يأخذنا العجب من شدة ضيقه فى اكثر أشعاره بتلك العصبية القبلية عند الأعراب ، واستمرارهم على تفاخرهم الجاهلى بالأصول والأنساب

عاج الشقىُّ على رسمٍ يسائله وعُجتُ أسأل عن خمارة البلد

يبكى على طلل الماضين من أسدٍ لادَرَّ دَرُّك اقل لى من بنو أسد؟

ومن تميمٌ؟ ومن قيسٌ ولِفهما؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

بيد أن هذه الروح الشعوبية التى تتراءى فى هذا الشعر لم يكن لها عند شاعرنا دوافع مذهبية ، وانما الغالب عليها النوازع الفنية من ايثاره لترف الحضارة الفارسية الحاضره على تقشف البداوة العربية القديمة ، ومن دعوته الى تجديد الشعر بما يجعله صورة صادقة للحقيقة الواقعة . والى هذه الشعوبية الفنية يشير الناقد العربى فى قوله : « وكان النواسي شعوبى اللسان ، وما أدرى ما وراء ذلك »

بداوة العرب وحضارة الفرس

ونحن نرى شاعرنا أبا نواس فى شعره دائم التعريض بالاعراب ، والمقابلة بين حياة البداوة العربية وبين الحضارة الفارسية فى حاضرها وماضيها :

دَعِ الرسمَ الذى دَثَرا يقاسي الريحَ والمطَرا

ألم تَرَ مابنى كسرى — وسابورُ لمن غبرا
منازهُ بين دجلة وال — فرات تفيّأت شجرا
بأرضٍ باعد الرحما — نُ عنها الطّلحَ والعُشَرا (١)
ولم يجعل مصايدها — يرابيعاً ولا وَحَرا (٢)
ولكن حورَ غزلانٍ — تراعى بالملا بَقَرا
وإن شئنا حشّنا الطيـ — رَ من حافاتها زُمَرا
وإن قلنا اقتلوا عنكم — يبا كر شرْبُها الخمرا
فذاك العيشُ لا سِيداً — بقفرتها ولا وَبَرا (٣)

وهذا وصف آخر لبلدة من البلدان المتحضرة التى لا تمت الى بدو العرب بسبب ، وانما هى من الحواضر الفارسية وطن « بنى الاحرار » كما شاءت العصبية للفرس أن يسموا أنفسهم :

ببلدةٍ لم تصل كلبٌ بها طنباً — إلى خباءٍ ولا عبسٌ وذُبيانُ
ليست لذُهْلٍ ولا شيبانِ بها وطناً — لكنها لبنى «الأحرار» أوطانُ
أرضٌ تبنّى بها كسرى دساكرَه — فما بها من بنى الرعناء إنسانُ
ومابها من هشيم العرب عَرْفَجة — ولا بها من غذاء العرب حطبان
لكن بها جُلّنارٌ قد تفرّعه — آسٌ، وكلّله وردٌ وسوسان
فإن تنسّمتَ من أرواحها نسَما — يوماً تنسّم فى الخيشوم ريحانُ

---

(١) من نبات البادية (٢) اليرابيع : نوع من الفيران ، الوحر مفرده وحرة وهى المعروفة فى العامية بالسحلية (٣) السيد : الذئب ، الوبر : دويبة كالسنور

وكان مما يبغضه فى العرب أنهم لا يفتئون يتفاخرون ؛ الا يكن من العصبية القومية بينهم وبين غيرهم من الشعوب، فبينهم وبين أنفسهم. فهم أبدا فى شقاق ونقار من العصبية القبلية، لا يجتمع رجلان من قبيلتين حتى يقوم بينهما الفخار وينتهى بهم آخر الامر الى التعدي والشجار . ويقول أبو نواس انه من أجل هذا يؤثر صحبة الاعجام ومنادمتهم:

نادمتهم أرتاض فى آدابهم
فالفرس عادى سكرهم محسومُ

متوقرين ، كلامهم ما بينهم
ومزمزمين خفاؤهم مفهومُ

ولفارس الأحرار أنفسُ أنفُسٍ
وفخارهم فى عشرةٍ معدومُ

واذا أنادم عصبةً عربيةً
بدرتْ إلى ذكر الفخار تميم

وعدتْ إلى قيسٍ وعدّتْ قوسَها ،
سُبيَت تميمُ وجمْعُهُم مهزومُ !

وبنو الأعاجم لا أُحاذر منهمُ
شراً ، فمنطق شرْبهم مزمومُ

لا يَبْذَخون على النديم إذا انتشوا
ولهم إذا العربُ اعتدتْ تسليمُ

وجميعُهم لى - حين أقعد بينهم -

بتذللٍ وتهيبٍ موســـومُ

هذا قليل من كثير من مظاهر نزعة شاعرنا الفارسية ، وستطالعنا ثانية عند وصفنا لحياته فى دار السلام ، فحسبنا هذا القدر منها هنا

الاشتغال بالنجوم والعلوم والفلسفة

وأما اشاراته الدالة على اشتغال أهل العصر بعلم النجوم فغير قليلة • ولا غرو فقد كان الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، وكان معه من المقدمين فى هذا العلم نوبخت المجوسى المنجم الذى أسلم على يديه ، وهو أبو النوبختية الذين اتصل بهم « أبو نواس » أوثق اتصال • وقد ترجمت الكتب فى الفلك وهيئاته وأخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها

وقصيدة شاعرنا فى مدح الوزير يحيى بن خالد البرمكى مثال اذا سقناه وحده فانه يغنى عن كل مثال بعده . قال يصف ممدوحه بالسخاء والشجاعة :

صورةُ المشترى لدى بيت ثور الل

يل ، والشمس أنت عند انتصاب[1]

ليس (زاويش) حين سار أمام الحـ

وت والبدر إذ هوى لانصباب

منكَ أسخى بما تَشُحُّ به الأ

فسُ عند انتقاص دَرِّ الحِلاب

---

(١) لكل من الكواكب السيارة - عدا الشمس والقمر - بيتان ، بيت لليل وبيت للنهار . عند انتصاب : عند ارتفاع

لا . . و (بهرامُ) تستقلّ به العق

ربُ بالليـــل زائداً فى الحساب

منكَ أمضى لدى الحروب ولا أهْـ

ول فى العين عنـد ضرب الرقاب

ويلاحظ أن (زاويش) Zeus لفظ يونانى وهو المشترى فى الكواكب السيارة ، ثم فى خرافات اليونان الأقدمين كبير الآلهة ورب السموات. وأما (بهرام) فهو المريخ بالفارسية ثم فى الخرافة اليونانية اله الحرب

ومثل ذلك قوله يصف الخمر بالقدم :

تخيِّرَتْ ، والنجوم وقفٌ لم يتمكنْ بهـا المدارُ

وكان أصحاب الفلك يقولون انه كان لدوران الفلك ابتداء كان قبله ساكنا

وفى كلام ابى نواس أيضا المام بمبادىء الطبيعيـات التى كانت بسبيل الشيوع فى أيامه. فمن ذلك تصرفه في الكلام عن الطبـائع الاربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة فى قوله هازلا يستفتى طبيب الرشيد أبا عيسى

جبريل بن بختيشوع فى الخمر :

سألتُ أخى «أباعيسى» و « جبريلُ » له عقل

فقلت : « الخمر تعجبنى » فقال : « كثيرُها قتْـل »

فقلتُ له : « فقدِّرْ لى » فقال وقوله فصل :

« وجدتُ طبائعَ الانسا ن أربعةً هي الأصل

فأربعــــةٌ لأربعةٍ لـكل طبيعة رطل »

وقوله هاجيا زهير المغنى :

قلْ لزهيرٍ إذا اتّكا وشَدَا :
« أقْلِلْ أوَ اكثر ، فأنت مِهذارُ
سَخُنْتَ من شدة البرودة حـ
ـتى صرتَ عندى كأنك النارُ
لا يعجب السامعون من صفتى
كذلك الثلج باردٌ حار »

ففى ذلك التفات الى ما كان يروى من أقوال أهل الهند أن الشيء اذا زاد فى البرد تحول الى الحرارة بدليل أن الصندل الابيض اذا أفرط فى حكه عاد حارا مؤذيا

وأخيرا يقع القارىء فى شعره هنا وهناك على ألفاظ من مصطلح المتفلسفة مثل قوله يصف ما صيره اليه تبريح العشق من النحول والضنى :

تركتَ مِنّى قليلاً من القليل أقَلاّ
يكاد لا يتجزّا أقلّ فى اللفظ من « لا »

وقد زعموا أن ابراهيم النظام المعتزلى لما أن سمع ذلك منه قال له : « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى . والجزء الذي لا يتجزأ ، منذ دهرنا الاول نخوض فيه ، ما خرج فيه لنا من القول ما جمعته أنت فى بيت واحد »

الزنادقة

ولقد كثر فى الحواضر الاسلامية الشكاك والدهريون ، ومروجو التعاليم اليهودية والنصرانية ، والزنادقة من الثنوية وغيرها من مذاهب الفرس ولاسيما المانوية ، فكانوا

يتصلون بالناشئة يزينون لهم المروق والالحاد ويفسدونهم. ولولا ظهور المتكلمين وقوة المعتزلة وقتئذ لكان بلاء الاسلام بهؤلاء أشد وأنكى. ومن هؤلاء الدعاة الى الزندقة فى البصرة عبد الكريم بن أبى العوجاء. وقد تصدى له شيخ المعتزلة عمرو بن عبيد فقال له مهددا متوعدا: « قد بلغنى أنك تخلو بالحدث من أحداثنا فتفسده وتستنزله وتدخله فى دينك. فان خرجت من مصرنا (يعنى البصرة) والا قمت فيك مقاما آتى فيه على نفسك ». وكذلك تعاون وامام المعتزلة واصل ابن عطاء على الهتف بالشاعر الاعمى الملحد بشار بن برد حتى نفى من البصرة. فلما رجع اليها عند موت واصل سنة ١٣١ لم يزل عمرو به حتى نفى ثانية، وظل بعيدا عنها الى أن مات المعتزلى فى أواخر سنة ١٤٣. ولقد كان من شيوع الزندقة ونشاط دعاتها أن وقف عمرو بن عبيد حياته كلها على حربها وكثرة المقال لمناهضتها، ومن مصنفاته كتاب فيه ألف مسألة للرد على المانوية، كما أنه صمد من معتزلة الجيل لجدال الزنادقة ومناظرتهم أبو الهذيل محمد، ولقب بالعلاف لأن داره بالبصرة كانت فى العلافين. وكان للعلاف بصر بالفلسفة اليونانية وكان فى احتجاجاته العقلية لا يخلو من بعض الاعتماد عليها. ولعل فى الابيات التى هجا بها أبو نواس خصمه شاعر البرامكة أبان بن عبد الحميد اللاحقى صورة لما كان شائعا فى أوهام الناس عن عقائد المانوية فى ذلك العصر :

جالستُ يوماً « أباناً » لا دَرّ درُّ « أبانِ »
ونحن حُضُرُ رواق الأ مير بالنّهْرَوَانِ
حتى إذا ما صلاة (١) الأ ولى دَنَت لأذان

---

(١) صلاة الأولى يعنى بها صلاة الصبح

فقـــام ثَـمَّ به ذو   فصـــــاحة وبيان
وكلّـما قال قُـلْنا (١)   إلى انقضـــاء الأذان
فقال(٢) : « كيف شهدتم   بذا ، بغير عيان ؟
لا أشهدُ ـ الدهر ـ حتى   تُـعَـايِن العينان »
فقلتُ : « سُبحانَ ربى ! »   فقال : « سُبحانَ مانى ! »
فقلتُ : « عيسى رسولٌ »   فقال : « مِن شيطان »
فقلت : « موسى نجيّ ال   مهيمن المنّـان »
فقال : « ربُّك ذو مقـ   ـلةٍ إذاً ولسان ؟
أنفْسُـهُ خَلَقَتْه   أم مَنْ ؟ » فقُمتُ مكانى
عن كافرٍ يتمرّى (٣)   بالكفر بالرحمـن
يريد أن يتسـوّى   بالعصـبة المجّان
بعَجْردٍ وعُبـادٍ   والوالبيّ (٤) المجـان
وقاسمٍ ومُطيـعٍ   رَيْحانةِ النـدْمان

وكانت خراسان كعهدها منبت الكثير من الدعوات ومرتعا لدعاتها . وقد ظهر فيها فى أوائل عهد الخليفة المهدى دعى من أهل مرو يسمى حكيما ، وكان أعور قصيرا مشنوء الخلقة ، وكان لا يسفر عن وجهه بل اتخذ وجها من ذهب

---

(١) كلما قال المؤذن قولا رددناه بعده
(٢) أى فقال أبان اللاحقى كيف شهدتم بقول المؤذن « أشهد ألا اله الا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله » ولستم للامر شهود عيان
(٣) يتمرى بالكفر يتزين به أى يتخذه زينة
(٤) الوالبى هو والبة بن الحباب أستاذ أبى نواس والآخرون حماد عجرد وعبادة وقاسم بن زنقطة ومطيع بن اياس

فتقنع به لئلا يرى ، فلقب بالمقنع • وكان يدعي الالوهيـة فيزعم أن الله خلق آدم وتحول في صورته ولذا قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر فكان من الكافرين ، ثم تحول في صورة نوح وهلم جرا الى أن حل في أبي مسلم الخراساني ومن بعده حل فيـه • وهو يقول بالتناسخ ، وكانت تعاليمه اباحية فتابعه ضلال الناس ، واجتمع اليه خلق كثير غلب على عقولهم بالتمويهات • ولم تتمكن جيوش الخليفة منه الا بعد عامين كاملين . وقد أطالوا حصاره وضايقوه واستمالوا معظم أصـحابه ، فلما أيقن بالهلاك جمع نساءه وأهله ، فشرب واياهم السـم ، وألقى بنفسه في النار وهو يقول : « من أحب أن يرتفع معى الى السماء فليلق نفسه معى فى هذه النار » • وكان ذلك مما زاد فى افتتان من بقي من أصحابه. وبلغ من شيوع الزندقة فى خراسان وفارس والعراق فى أواخر أيام المهدى أن ضاق صدر الخليفة وفارقه صبره واضطرم غيظه ، فجد فى طلب الزنادقة وولى أمرهم « عمر الكلواذى » ليفرغ لهم ويمعن فى البحث عنهم فى الآفاق لينكل بهم شر تنكيل ، ولما مات ولى مكانه « محمد بن عيسى المعروف بحمدويه »

ويخلص من هذا جميعه أن حـركة الزندقة كانت من الشدة بحيث دعت الى مقاومتها بقوة السيف وبقوة الحجة• وكان المهدى صاحب هذه الخطة المزدوجة . وفى ذلك يقول المؤرخ المسعودى : « ان المهدى أمعن فى قتـل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم واعـلانهم باعتقاداتهم فى خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون ، مما نقله عبـد الله بن المقفع وغـيره وترجمه من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنف فى ذلك ابن أبى العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن اياس من تأييـد المذاهب المانوية والديصانية والمرقونية. فكثر بذلك الزنادقة

وظهرت آراؤهم في الناس. وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين وأزالوا شبه الملحدين فأوضحوا الحق للشاكين »

زندقة الفكر

وكان أبو نواس ممن اشتهوا الكلام وجالسوا المتكلمين. ولكنه لم يفد من ذلك ما أفاده غيره ، فان هذا العلم ان يكن باضافته شواهد المعقول الى شواهد المنقول قد زاد البعض ايمانا على ايمان ، فان تعرض مثل شاعرنا لهذه الموضوعات مع ما كان عليه من خفة الشباب وقلة التورع وفساد النشأة قد أداه الى شيء من الزندقة . ولقد أقر على نفسه بها في هجائه لابراهيم النظام المعتزلي :

قولا لابراهيم قولاً هَتْرا غابتني زندقةً وكُفْرا

ولقد استمر الجدال بين القائلين باختيار الانسان لافعاله، وحرية ارادته لها وقدرته عليها ، وهم المعروفون بالقدرية، وبين الذين لا يثبتون للانسان فعلا ولا قدرة على الفعل ، ويضيفون ذلك كله الى الله تعالى ، وهم المعروفون بالجبرية. وهو جدال ذو خطر كبير لاتصاله بالعدل الالهي من حيث التكليف ثم الحساب . ولقد أعيت أبا نواس متابعتهم ،فلم يلبث أن وقف من البحث عند حد التجربة المادية والمشاهدة الحسية في قوله :

يا ناظراً في الدين ما الامرُ ؟ لا قَدَرٌ صَحَّ ولا جَبْرُ
ما صحَّ عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموتُ والقبرُ

وحسب القارىء في زندقته شهادة فيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري اذ يقول في رسالة الغفران : « ولا أرتاب

فى أن دعبلا كان على رأى الحكمى (أبى نواس) وطبقتــه ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة » وفى موضع آخر منها « وقد اختلف فى أن أبا نواس ادعى له التأله ، وأنه كان يقضى صلوآت نهاره فى ليله ، والصحيح أنه كان على مذهب غيره من أهل زمانه » على أن أبا العلاء على عادته فى التشكك وعدم الجزم يقول فى نفس الرسـالة « وذكر صاحب كتاب الورقة جماعة من الشعراء فى طبقة أبى نواس ومن قبله ووصفهم بالزندقة • وسرائر الناس مغيبة وانما يعلم بهـا علام الغيوب » . وأيا كان الرأى ، فان الواقع أن شاعرنا لم يكرر القول فى هذه الموضوعات ولم يجعل الكلام فيها من أغراض شعره كأبى العلاء ، بل تحرز ما استطاع من أن يذهل فيها عن نفسه عملا بوصيته لغيره :

مُت بداء الصَّمت خيرٌ لك من داء الـكلام
إنما الـسالمُ مَن أل جمَ فاهُ بلجــــام

زندقة المجون والسكر

على أنه مع ذلك كان لا يملك لســانه من الخروج عن حد الادب والمساس بحرمة الدين وهو فى حالة ســكر أو فى سياق مجون

ومن ذلك ما يروونه من مداعباته للشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ الحديث بالبصرة ، اذ أقبل ذات يوم الى مجلسه وقد كثر عليه أصحاب الأحاديث ليسألوه عنها . فقال لهم : « ليسأل كل رجل منكم عن ثلاثة أحاديث مهمة وليمض ». ففعل النـــاس ذلك ، حتى انتهى الى أبى نواس ، فقال : « سل يا فتى » فقعد بين يديه وأنشأ يقول :

ولقد كنـا روينا عن سعيدٍ عن قَتاده

عن زرارة بن أوفى ... أنّ سعدَ بنَ عباده
قال : « من مات محبًّا ... فله أجرُ الشهاده »
أترى ذاك صواباً ... نَتّبعْ منه سَدَاده ؟

فالتفت اليه الشيخ مغضبا وقال : «أغرب عنى ياخبيث، والله لا أحدثك بعد ذلك ، ولا أعرف وجهك » . فقال أبو نواس كالمحتج : « والله لا أتيت مجلسك وأنت ترد الصحيح من الاحاديث »

وعلى هذا النسق أخبار أبى نواس كلها حين يفرط المجون عليه . وكذلك أشعاره حين تنازعه نفسه الآثمة الى الخمر ، وتدفعه شهوته الفاسدة الى الاستهتار باللذات :

ألم تَرَنى أبحتُ اللهوَ نفسى ... ودينى ، واعتكفت على المعاصى
كأنى لا أعود إلى معادٍ ... ولا أخشى هنالك من قصاص

وكذلك قوله مجادلا :

وملحّة باللوم تحسب أننى ... بالجهل أوثر صحبةَ الشطّار
بكرتْ علىّ تلومنى فأجبتها : ... «إنى لأعرف مذهب الأبرار»
فدعى الملامَ فقد أطعتُ غوايتى ... وصرفتُ معرفتى الى الانكار
ورأيتُ إتيانى اللذاذةَ والهوى ... وتعجّلى من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظّر آجلٍ ... عِلْمى به رَجْمٌ من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبّر أنه ... فى جنةٍ مَنْ مات أو فى نار »

ولقد كان الجماز عند شاعرنا فأسمعه هذه الأبيات ، فلما بلغ الى البيت الاخير ، قال له الجماز : « يا هذا ، ان لك أعداء ، وهم ينتظرون مثل هذه السقطات ، فاتق الله فى نفسك ، ودع الافراط فى المجون ، واكتمها » . فقال

أبو نواس : « لا والله ، لا أكتمها خــوفا • وان قضى شيء كان » • فنمي الخبر الى الوزير الفضل بن الربيـــع ثم الى الخليفة الرشيد ، فما كان بعد هذا الا أسبوع حتى حبس

بيد أن أبا نواس مع ما كان يلقاه كل حين من التعزير والحبس والتخويف ما برح طول حياته ينشد من أمثال ذلك الكثير متى نال منه السكر وغلبه الطرب وطفح على قلبه

الزندقة على سبيل التظرف

وهذا كله لا يجب أن نأخذه على الشاعر مأخذ الجد ، فلقد عاش الرجل ومات صاحب لهو • وقد ألقى أبو نواس في سجن الزنادقة للمرة الاولى وهو شاب لم يبلغ العشرين من عمره ، فلقي فيه حماد عجرد فقال في وصفه : «كنت أتوهم أن حماد عجرد انما يرمي بالزندقة لمجـونه فى شـعره ، فاذا حماد عجرد امام من أئمتهم ، واذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به فى صلاتهم ».ولا شك عندنا فى أن القارىء لهذا الحديث يستشعر منه استنكار الفتى ونفوره حين ظهر له أن زندقة حماد عجرد حقيـــقة لا لهو • وأكبر الظن أن أبا نواس لم يكن يتزندق عن عقيـــدة ، وانما كان يظهــر الزندقة تظرفا • وليس هو فى ذلك نسيج وحده ، بل مثال من أمثلة كثيرة العدد على روح العصر • وليس أدل على ذلك من قول معاصره الشاعر ابن مناذر فى محمد بن زياد :

يا بن زيادٍ ، يا أبا جعفر ! أظهرتَ ديناً غير ما تُخفي
مُزَنْدَقُ الظاهرِ باللفظِ فى باطنِ إسلامِ فتًى عَفِّ
لستَ بزنديقٍ ولكنما أردتَ أن توسَم بالظَّرف

الحب الأول والاخير

كل جنس مدفوع الى الجنس الآخر بدافع من تلك الحاجة الطبيعية الآمرة التى اودعها خالق النسم كل نسمة لبقاء الحياة وحفظ النوع . واذا كان أمر من الامور فى غنية عن البيان ، فذاك ما للعاطفة الجنسية على الأحياء من سلطان .

ولا بدع فهى صاحبة الشأن الاول فى نظام الوجود ، وقد اقترنت منذ القدم بدوافع الانسان الاولية ، ثم لابست أولى شعائره الدينية

فهذه الغريزة عميقة أيما عمق ، وعامة كل العموم ، وهى تشغل حيزا كبيرا من اهتمام الانسان وان يكن الكلام فيها قليلا والكتابة عنها أقل

وهى ــ بعد ــ مركبة القوى شتى العناصر ، يشترك فيها كياننا الحسى والعاطفى والروحى . وهذه العوامل متجاوبة فينا متواشجة ، تتحول فيما بينها مؤثرة متاثرة ، وقد يغلب أحدها فلا تدوم له الغلبة ، كما ان المغلوب لا يبرح على كل حال حى الجذوة كامن القوة

والصبى اذا أدرك سن المراهقة ، وشبت فيه العاطفة الجنسية وعذبته ، قد يتلفت كالحيوان المفترس يطلب فريسة يشبع بها هذا السعار الجنسى ويرفه من ضغطه الموبق . ولكن الحاجة الجسدية لا تلبث جسدية على حالها ، فان كثافتها لتلطف ، وان حواشيها لتتلون بألوان الطيف ،

وتتسربل أعطافها بابراد الخيـال ووشى الشعر . وذلك أن المرء له الى كيانه العميق السفلى كيان رفيع علوى ، يقتضي التعاطف بين قلب وقلب ، والتوافق بين مزاج ومزاج. وهذا التجاذب الخفى بين الأرواح مما يهون على العشاق تباريح الهوى ولوعة الحرمان ، ويجعل أنفسهم أطيب ماتكون بالبذل والفداء وانكار الذات

على أنه لن تفتأ بين هذا الأفق السماوى وذلك القرار الارضي صلة غير مقطـوعة ، كالزهرة أصولهـا مطمورة فى حضيض التربة ، وكالتربة يتحلل من عناصرها الغليظـة ما تزكو به الزهرة

فالشهوة هى حاجة الحس ، ويعرف صاحبها الشبع فى كل مرة كما يعرف الجائع الامتلاء بعد كل وجبـة . فاذا ما ترقى بها الانسان الى الحب كان شوقه دائما ، فليس هو بالذى تشبع نهمته وتنقع غلته ، بل لعله مع القرب أبقى شوقا وأشد هياما على حد قول ابن الرومى :

أعانقها ـ والنفس بعدُ مشوقة
إليها ـ وهل بعد العناق تَـدانِ !
وألثم فاها ، كي تزول حرارتى
فيشـتد ما ألقي من الهيمان
وما كان مقدارالذى بى من الجوى
ليشـفيَه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يَـشفى غليلـَه
سوى أن يرى الروحين تمتزجان

وهذه الصورة أصح مثال على الحب فى حده الطبيعى

السليم . فليس فيه انكار الزهاد للجسد وانصرافهم عن ظاهر الحس ، وفيه مع هذا شوق المتصوفة الى ما وراء الحس وحنينهم الى الاتحاد بالروح والفناء فى المحبوب

وما كان شاعرنا أبو نواس على استهتاره كسائر الخلعاء المجان فى اللهو والشراب ومصادقة الفتيان ، بالذى يخرج وقد بلغ مبلغ الرجال عما للحب الطبيعى بين الجنسين من غلبة على الحس وسلطان على النفس

نظرة أورثت حسرة

وقد اتفق له أن كان فى مربد البصرة جالسا مع شباب من آل ثقيف يتنزهون وهو ينشدهم من أشعاره ، اذ مرت بهم جارية أفرغت فى قالب الجمال ، سوية الخلقة بديعة التقطيع ميساء معتدلة القوام

فوق القصيرة، والطويلة فوقها ... دون السمين، ودونها المهزولُ

وقد أبرزت عن وجه وضاح ، أزهر اللون ، وفاف البشرة، حلو الملامح ، عبقرى المعنى . فجعل ينظر مأخوذا الى ذلك المنظر الرائع والحسن البارع وهى ماضية فى طريقها لا تلتفت ، قاصرة الطرف ، مسبلة الأهداب . وما زال يتبعها نظره الى أن غابت عنه . فقال له أصحابه : « خرجت عن حدك الذى كنت تنتسب اليه يا أبا نواس » يشيرون الى ما عرف عنه من الغزل بالمذكر . فسكت لحظة لا يجيب ، ثم أنشأ يقول :

إنى صرفتُ الهوى إلى قمر ... لا يتحدّى العيونَ بالنظرِ

إذا تأمّلتَه تعاظمكَ الـ ... إقرارُ فى أنه من البشر

ثم يعود الانكارُ معرفةً ... منك إذا قستَه إلى الصُّور

مباحةٌ ساحةُ القلوب له ... يأخذ منها أطايبَ الثمر

وبقى بينهم ساهما سحابة نهاره ، حتى اذا أظل المساء

استعجل العودة الى بيته ليخلو الى نفسه . لقد انطبعت هذه الصورة العابرة فى قلبه بخطوط من نور ونار ، ولن تفارقه فى ليل ولا فى نهار . وهيهات بعد اليوم أن يطيب له نوم أو يقر له بال . ان ابا نواس اليوم غير أبى نواس الأمس . هذا الرجل الواقعى المستغرق فى الحس ، والماجن المستهلك فى اللهو والسكر ، والخلى الذى لم يعرف الحب ، قد شغف اليوم حبا ، واصبح بخيال هذه المرأة مستهاما صبا . فليس شىء من مفاتن الحياة يشغله عن التفكير فيها ، وهو ينظم الأشعار تلو الأشعار ليناجيها ، يشكو وجده بها وحنينه اليها وهو لا يعرفها . ولقد طال سؤال أبى نواس عنها وتنسمه لأخبارها وجلية امرها ، فلم يقنع بعد اليوم الذى رآها فيه على خبر منها . فما احاله ذلك عن قصده ولا حبس من عنانه وصرفه عن هواه . وكان يقول لمن يلحاه فى لجج حبه ودأبه فى طلبه :

كما لا ينقضى الأرَبُ كذا لا يفتُر الطلبُ

وتناقل اهل البصرة حال شاعرنا فى حبها واقواله فيها واكثروا ذكره فى كل محفل ومجمع

جنان الجارية

ولم تكن هذه المشوقة المجهولة الا « جنانا » جارية آل عبد الوهاب الثقفى ، وقد اتفقت الأقوال على انها كانت مقدودة حلوة بديعة الحسن ، اديبة ظريفة عاقلة ، تعرف الاخبار وتروى الأشعار . كما اتفقت الاقوال على ان ابا نواس لم يصدق فى حب امرأة غيرها

ولقد ذكرته لها نساء من صواحبها ، وزين لها أن يخرجن فيعبثن به ويمازحنه . فخرجن يوما وأبو نواس على غفلة من ذلك حتى وافينه . فلما رآها كاد عقله يذهب وتحير ،

واقبل وادبر ، فدنت اليه واحدة منهن فقالت : « يا فتي ، انت ابو نواس ؟ »

فقال لها ملهوفا : « نعم ، انا المعنى بمن لا ترثى لشكايتى»

فقالت كالمتهكمة : « بالله انت عاشق ؟ »

فلم يمهلها وبادر مؤكدا : « اى والله ! »

فتضاحكت : « لمن ؟ »

فاطرق مرددا : « لمن لا يعلم ما بى ، ولا أعلم من هو »

فقالت فى خبث : « فاجعلنى رسولا اليه ، فلعل الله أن يمن على وعليك » . فأقبل عليها يقول : « هى والله التى معك » وأومأ الى جنان

فانصرفت عنه الى جنان وهى تضحك . فأعلمتها بما دار بينها وبينه . فانكرت ذلك عليها ، وقالت : « مثل هذا الكلب تطمعينه فى » وتولت مغضبة

واتبعها أبو نواس من بعيد حتى عرف منزلها ومولاها ، وسأل عن اسمها فأخبروه عنها . وعاد الشاعر راضيا من يومه ، قانعا بما وصل الى علمه ، وهو يترنم « تبدت لنا كالبدر وسط الكواكب » . ولقد وصف فيما بعد هذه الواقعة ، وصور لنا اقبال هؤلاء الجوارى من ناحية رصافة البصرة فى أتم زينة ، يحففن بجنان كالتماثيل الحسان ، وما كان من انصرافها مغضبة :

ومضمّخــات بالعبيـ ... ـر نزلن من غُرَف الجنانِ
راضتْهن من الصبا ... كأساً عقدن بها لسانى
أقبلن من باب الرصا ... فة كالتماثيل الحسان
يحففن أحورَ كالغزا ... ل أُميرَ إمرارَ العنان
يمشى بردفٍ كالنقا ... يختال تحت قضيب بان
فاذا انجليتِ فجاملى ... كيلا أموت على المكان

واحتال الشاعر على التعرف بآل عبد الوهاب الثقفى ، فعاشرهم ونادمهم توصلا لجنان . ولعل ذلك عن طريق صداقته لابن مناذر الشاعر الذى كانت المودة بينه وبين عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى مضرب المثل ، وكان أحدهما لا يطيب بفراق صاحبه ، حتى قيل فى ذلك أنهما كانا يسمران أحيانا الى الصبح ، فاذا انصرف عبد المجيد شيعه ابن مناذر الى منزله ، فاذا بلغه وانصرف ابن مناذر شيعه عبد المجيد

العشق فضاح

ولقد تكلف أبو نواس ما تكلف من كتمان هواه بجنان ، ثم طفح به الوجد وغلب عليه الهيمان ، فضاق صدره ، وصار كالمغلوب على أمره يؤوده أن يمسك على ما فى نفسه :

لا يُبحنَّ حرمةَ الكتمان ... راحةُ المستهام فى الاعلانِ
قد تصبَّرتُ بالسكوت وبالاط ... راق جهدى فنمَّت العينانِ
تركتنى الوشاةُ نصب المشيري ... ن وأحدوثةٌ بكل مكان
ما أرى خاليَيْن للسرِّ إلا ... قُلتُ مايخلوان إلا لشانى

ثم أنشأ يشبب باسمها ويظهره حتى عرف بها واشتهر بحبها . ومن اشاراته الى اسم « جنان » وصفتها قوله :

لما تكشَّف عنى أننى كلِفٌ
كَشَفتُ أيضاً لهم عمن به الكلَفُ
جيمٌ وجَدتُ لها نونيْن ، بينهما
ـ لمن تَهَجَّى اسمها أو خَطَّهُ ـ ألِفُ

يضمه من ثقيف بعضُ دورهمُ
ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

مولاة جنان

واتفق أن تزوجت عمارة بنت عبد الوهاب الثقفي برجل من ثقيف يدعى محمد بن خالد (١) فصارت اليها جنان وصيفة لها . وكانت مولاة جنان موسرة ، وعلى حظ وافر من الجمال كأخيها عبد المجيد الذي قيل انه كان أحسن الناس وجها وأدبا وملبسا . فلم تزل تغرر بها امرأة يقال لها « سرور » حتى ارتضت الرجل وهو ابو أولاد خمسة ، ثم هو فوق ذلك لم يكن لها كفؤا ، بالنسبة لجلال قدر أبيها عبد الوهاب وموضعه من العلم ، وما لأمها « بانة بنت أبي العاص الثقفي » من بسطة الثروة ، فضلا عن أنه لم يكن هواه فيها وانما الشره الى ما في يدها

ولقد شاء لمحمد بن خالد حظه العاثر أن يكون جاره أبان اللاحقي الشاعر وأن يكون عدوا له ، فنظم في موضوع زواجه بعمارة قصيدة يهجوه فيها ويحذرها منه ويحفزها الى مفارقته :

لما رأيت البزَّ والشارَهْ — والفَرْشَ قد ضاقت به الحارهْ
واللوزَ والسكّر يُرْمَى به — من فوق ذي الدار وذي الداره
وأحضروا المُلْهِين لم يتركوا — طبلاً ولا صاحبَ زماره
قلت «لماذا؟» . قيل «أعجوبةٌ — محمدٌ زُوِّجَ عمّاره ! »

---

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٧٧ من الجزء ٢٠ أن عمارة تزوجها محمد بن خالد وجاء في الصفحة ٣ من الجزء ١٨ أن زوجها عبد الرحمن الثقفي . وقد أخذنا بالقول الأول لأنه يطابق ما جاء في شعر أبي نواس. وأما الذي ورد في الصفحة ٤ من الجزء ١٨ من أن عمارة امرأة عبد الوهاب فهو خطأ صريح وصحته ابنة عبد الوهاب الثقفي

لا عمّر الله بها بيتَــه ولا رأته مدركاً ثاره

أسودُ كالسفود يُنسَى لدى الـ تنّـور ، بل عراكُ قياره

ويحك ِ! فِرّى واعصي ذاك بي فهـــذه أختك فرّاره

إذا غفا بالليل فاستيقظى ثم اطفرى إنك ِ طفاره

ويقال انه لما انتهى الأمر بأن بلغت قصيدته هـذه عمارة ، فعلت فى نفسها ، وكان من أثرها ما كان بعد ذلك من هربها ، فحرم من جهتها مالا عظيما

زوج مولاة جنان

وكان زوج عمارة بخيلا شديد البخـل ، حريصا غاية الحرص ، فيه اثرة وجفاء طبع . وكان منقطع السبب بأهل الأدب ، فليس لأبى نواس أو غيره من الشعراء اتصال ببابه أو سبيل الى قلبــه . فلا جرم يستولى على عاشق جنان عارض اليأس وشعور القهر

رأيت هواى ِسيرتُهُ الوجيفُ

وتَحزُبُنى إذا اعترضتْ ثقيفُ

فان آتى ـ وذلك بعــد كدٍ ـ

فدارُ « محمــد » ثم الوقوف

ولقد زاد محمد أن عمد الى بسط لسانه فى أبى نواس والتسميع بمثالبه وعوراته . فلم يسع العاشق الا السكوت والاغضاء كرامة لهوى جاريته الحسناء :

سأترك «خالداً» لهوى جنان ِ وإن جلّ الذى عنــه أتانى

فقُلْ من بعد ذا ما شئتَ ، أو زِدْ فقد أمسيتَ منى فى أمان ِ

لقد أغلقتَ بابَك دون ظبيٍ   ختمتَ بعقلتيه على لساني

ثم ان هذه المبالغة من مولى جنان فى سترها والغيرة عليها غيرة لم تؤثر عنه على زوجه ، ألقت فى روع الشاعر ان مولاها انما يفعل ذلك لانه يهواها :

مولى جنان وإن أبدى تجلده
يهوى جنان فيرجوها ويخشاها
مولاتُه هى « بالمعنى » وحقّ لها ،
والناس يدعونه « باللفظ » مولاها

الشاعر بالمرصاد

وكانت جنان مع هذا التضييق عليها لا تخلو من الغدو والرواح لحاجاتها وغشيان دور جاراتها وصواحبها للزيارة . وكان أبو نواس راصدا لها حيثما ذهبت . فاذا شهدت عرسا لم يزل جالسا حتى تنصرف منه فيراها فى ذهابها ومنصرفها . وكان لا يراها الا امتقع لونه ووثب قلبه فى صدره لما يبدو من جمالها فى الحلى والحلل حتى لكأنها العروس :

شهدتْ جلوةَ العروس جنانٌ   فاستمالت بحسنها النظّاره
حسبوها العروسَ حين رأوْها   فاليها دون العروس الاشاره
قال أهلُ العروس حين رأوْها :   « ما دهانا بها سوى عمّاره »

ويصور لنا أبو نواس فى هذه الأبيات ما هو ملحوظ الى أيامنا من حرص النساء على عرض جمالهن فى الأعراس كأنما يعارضن العروس ويغايرنها . وقد صور الوهم له فى هذا الشأن أن أهل العروس كرهوا ذلك أشد الكره من جنان ،

ووجدوا منه على مولاتها وراحوا يعدونه كيدا من جهتها وعمدا . ويروى ان جنان حين سمعت أبياته قالت : « كأنه كان معنا ، هكذا كانت والله الصفة »

وكان لا يدع فرصة لرؤيتها الا اغتنمها حتى فى المآتم . فلما مات بعض آل عبد الوهاب الثقفى ، أشرف أبو نواس من دار على منزل الثقفيين وعندهم المأتم ، ليرى جنانا . وكانت جنان واقفة مع النساء تلطم وفى يدها خضاب ، فلم يعنه من هذا المنظر الفاجع الأليم الا النظر اليها سافرة الوجه كالبدر ، واستملاح هذا المتناثر المتحدر من دموعها كاللؤلؤ الرطب من عينين نجلاوين لهما كعيون النرجس ، واستظراف بنانها المخضوب كالعناب يواقع وهى تلتدم خدين كالورد

يا قمراً أبرزه مأتمٌ ... يندب شجواً بين أتراب
يبكى فيُذرى الدُّرَّ من نرجسٍ ... ويلطم الوردَ بعنّاب
لا تبكِ ميتاً حلَّ فى حفرةٍ ... وابكِ قتيلاً لك بالباب

وكانت جنان على الدوام حسنة الزينة أنيقة الهندام ، سواء أكان خروجها الى عرس أو مأتم ، وقد لقيها أبو نواس مرة خارجة الى بعض المآتم بالبصرة وعليها قناع وشي رقيق . فاتبعها واحتال على شهود المأتم . فلما حسرت فى المأتم عن وجهها ذهل الشاعر ـ كدابه ـ من حسنها ، وخيل اليه أن المأتم كله قد ذهل مثل ذهوله . وقال فيها :

يا مُنسِىَ المأتمِ أشجانَهم ... لما أتاهم فى المعزّينا
حلّتْ قناعَ الوَشْىِ عن صورةٍ ... ألبسها اللهُ التحاسينا

فاستَفْتَنْتَهُنَّ بتمثالها فهنَّ للتكليف يبكينا
حتَّى لذاك الوجه أن يَزْدَهي عن حزنه مَنْ كان محزونا

واشتد وجد أبي نواس بها ، فاشتد في طلبها ، وصارت شغله الشاغل لا شغل له غيرها ، فهو كل يوم على طريقها ينظر اليها بمجامع عينيه اذا أقبلت ويتبعها أينما توجهت ، ويقعد لها حتى انصرافها . وكان قد يشرب أحيانا أقداحا من النبيذ ليشد قلبه ويسكن ما به ، فلا يجسر مع ذلك على أن يتعرض لها بالكلام

ولقد شكت جنان يوما الى مولاها ، فشكاه الى بعض اخوانه وسبه عندهم ثم أشفق من هجو الشاعر له . فلما اتصل ذلك بالشاعر قال على مذهبه في هذه الفترة في الملاينة والمسالمة :

مَنْ سَبَّني من ثقيف فانني ان أسُبَّه
أبحتُ عِرضي ثقيفاً ولَطْمَ خدي وضربَه
وكيف يُنكَرُ هذا وفيهمو لي أحِبَّه ؟
لأوسِعَنَّ بحلمي عبدَ الحبيب وكلبَه
ولا أكون كمن لم يُوسِعْ لمولاه قلبَه
فقام يدعو عليه ويجعل اللهَ حَسْبَه !!

الرضى بالمهانة

وعمد أبو نواس الى رسول أوفدها مرة اليها ، فقالت جنان لها منكرة : « واضيعتاه ! لم يبق لي غير أن احب هذا الكلب ؟ » وذكرته بالتقبيح والتهجين . فجاءته الرسول متغيرة ، فأبلغته ما قالت جنان . فقال حينئذ :

من أراد الوصلَ لم يَجِـ ـلبْ من الفخر شروطا
قد رأينـــا عَربيّا تٍ يُواصِلْنَ نبيطا

وكان ابو نواس على شغفه بجنان وعلى صدق حبه لها ، دون من كان يشبب بهن من النساء ، غير مجدود منهـا . وكانت كلما ذكر اسمه عندها سبته وقالت : « فعل الله بالمخنث الكاذب فى حبه كيت وكيت » . فكان يقابل هـذه الاساءات بأقوال له ، منها :

جنان تسبّنى ـ ذُكِرَتْ بخيرٍ ـ وتزعم أننى مَذِقٌ خبيثُ
وأنّ مودتى كَذِبٌ ومينٌ وأنى للذى أهوَى بثوثُ
ولى قلبٌ ينازعنى إليها وشوقٌ بين أضلاعى حثيثُ

وقوله :

أتانى عنكِ سبُّكِ لى فسُبّى أليس جرَى بفيكِ اسمى! فحسبى
تشابهت الظنونُ عليك عندى وعِلمُ الغيب فيه عند ربى

وزالت عن هذا الماجن وقاحته واستطالته ، فاستخذى وركبه الحب بالذلة وعلمه الخضوع والخنوع . كما زالت عنه شهوته للحياة وافتتانه بالدنيا ، فهو لزهد جنان فيه قد زهد فى ملاذ الدنيا وكان لا يصبر عنها ، وهو لخلو حياته منها قد كره الحياة ولم تبق به حاجة اليها

زهدتْ جنانُ فى الذى رغبتْ إليها فيه نفسى
فزهدتُ فى الدنيا وصا رتْ مُنيتى فى زَوْر رمسى
وطويتُ عينى أن ترا نى عينُها ، وأمتُّ جَرْسى
كيلا يروّع ذلك الـ ـوجهَ المليحَ سماعُ حسّى

جنون الحب

وطال على ابى نواس البلاء حتى لزمه الأرق وكاد يجن من الحب :

تناومتُ جهدى فلم أرقُدِ ونام الخلىُّ ولم يسهدِ
وأنهض فى طربات تهيجُ وأُلزم طوراً فؤادى يدى

ولقد يهتف به داعى العقل ان يعدل عن هذا العشق الذى لا مطمع من ورائه وفيه تلف نفسه :

دَعْ جناناً وحبَّها عنك إن كنتَ عاقلا
لا تذكِّرْ بنفسك الـ موتَ إن كان غافلا
أنت إن لم تمتْ بها الـ عامَ لم تَنْجُ قابلا
رُحِمَتْ نفسُك التى ذهبتْ عنك باطلا

ولكن هيهات ان يعدل عن حبها ، انه كالقضاء لا مفر منه ولا نجاء . ولقد علمه حبها أن يتوجه الى الله بالدعاء بعد أن امتنع الصبر وعز الرجاء :

أيا مُلين الحديدِ لعبده داودِ
ألِنْ فؤاد جنانٍ لعاشق معمودِ
صبٍ حريضٍ مهيضٍ ناءٍ طريدٍ شريدِ
حرّان يدعو بليلٍ يا الوحيد الفريدِ !

شخصية جنان

وظاهر من هذا كله ان جنان لم تكن مثل سائر جوارى العصر ماجنة وقاح الوجه ، متهتكة ، بل هى كما وصفنا فتاة عاقلة رزان ، عفيفة حصان ، خفرة قليلة الكلام ، وذلك

كله مع جمال المحيا وحلاوة الملامح ولطافة التكوين والقوام وحسن اللبسة والهندام . فالشاعر لا ينى يجمع فى صفتها انها نزهة طرف وفتنة قلب ، وأنها ممتنعة لا تلين لمريدها ولا تقر لما يصنع بها

وجه جنان سَراةُ بستان مجتمعٌ فيــه كلُّ ألوان
مبـذولةٌ للعيون زهرتـُه ممنوعة من أنامل الجانى
مَن لستُ أحظى به سوى نظرٍ يَشركُنى فيه كلُّ إنسان

ولقد اشار الشاعر الى أن لهـا جمالا « غير معربد » فى ختام أبيات له من أمتع وأطبع ما قاله شاعر فى وصف الجمال فى أبدع مجاليه وأعجب معانيه ، وهو ذلك الجمال الذى لايزال فى عينك يتجدد ، يطالعك منه بمحاسن ليست تنفد ، وكأن بعضها ينتهي وبعضها يتولد : ثم هو كلما عاودت النظر اليه كان بالعود أحمد :

وذاتِ خدٍّ مورَّدْ فتـــانة المتجرَّدْ
تأمّل الناس فيهـا محاسنـاً ليس تنفد
الحسنُ فى كل جزء منها معـادٌ مردَّد
فبعضُه فى انتهـاءٍ وبعضُـــه يتولد
وكلما عدتَ فيـه يكون بالعود أحمـد
فاشرَبْ على وجه بدرٍ ريّان غير معربد

العاذلون

ومضى الشاعر يشبب بها ويلهج بذكرها ، ويشكو فى شعره ما يجد بها وما يلقى فى حبها ، ولا مسألة له الا عنها ، ولا حديث له الا حديثها ، حتى عذله الناس فى ذلك :

أمايَفْنَى حديثُك عن جنانٍ ولا تُبقى على هـذا اللسان ؟
أ كلّ الدهر قلتُ لها وقالت ؟ فكم هذا ! أما هذا بفان ؟

ولكنه لم يكن يضيق بعذل العاذلين مستكرها له نافرا منه ، بل كان يحمده لهم أحيانا ويستأنس به من الوحشة اليها ، لما يرد عليه فى عذلهم من ترديد اسمها والالمام بذكرها :

إذا ما عاذلى سمّا ك قلتُ أعِدْ، كذا أعِدِ
وشُبْ لى باسمها عذْلى وزِدْنى ، ثم زِدْ ، وزِدِ
نهارى كلّه وغداً وبعد غدٍ وبعد غد

اعتذارات وابتهالات

وقد كانت جنان كأحر الحرائر من النساء تتحرج من قول الشعراء فيها والغزل بها والتصريح باسمها . وقد انتهى الى الشاعر كرهها لذلك ، فقال معتذرا :

طفْلة كالغزال ذات دلالٍ فتنة فى النقاب والإسفار
أتمنّى وما بكفّىَ منها غيرُ مطْل وغير سوء انتظار
ثم قالت: «جهرتَ باسمى فى الشعر فهلا كَنَيتَ فى الأشعار»
قلتُ: «إن الهوى إذا كان بالصبّ وَهَى قلبُه عن الأسرار
أنا جارٌ لكم قريبٌ ، ولكن ليس يُغنى لديك حقّ الجوار»

ثم استخفه الوجد ولج به الحنين واهتاجه الشوق اليها ، فصاح صيحته :

جنانُ إن جُدتِ يا مُناىَ بما آملُ لم تقطر السماءُ دما

وإن تماريت أو تماديت في منعك أصبح بقفرة رمما
علقت من لوأتى على أنفس الـ باقين والغابرين ما نـدما

بداية التحنن والانعطاف

وقد فعلت هذه التوسلات في نفس جنان واستمالتها ، فصارت أميل لناحيته بعد نبوها عنه . وقد مرت به امرأة ممن تداخل الثقفيين ، فسألها عنها والحف في المسألة واستقصى ، فأخبرته الخبر ، وانساقت الى المبالغة والتزيد فيه كلما رأت لهفته على السماع منها مستطار القلب مهتز الأوصال من الفرح فقالت : « قد سمعتها تقول لصاحبة لها من غير أن تعلم أنى أسمع : ويحك ! قد آذانى هذا الفتى وابرمنى ، وضيق على الطرق بحدة نظره وتهتكه . ومن كثرة فعله لذلك قد لهج قلبى بذكره والفكرة فيه حتى رحمته . . ثم التفتت فرأتنى فأمسكت عن الكلام »

وصدق أبو نواس الخبر واعتقده بنصه وحرفه ، ولم ير فيه أدنى زخرف ، ولا رابه منه قول مصنوع أو زيادة موضوعة ، ولما قامت المرأة انشأ يقول :

يا ذا الذى عن جنان ظل يخبرنى
بالله قل وأعد يا طيب الخبر
قال: « اشتكتك وقالت : ما بليت به !
أراه من حيثما أقبلت في أثرى
ويعمل الطرف نحوى إن مررت به
حتى يخجلنى من حدة النظر

وإن وقفتُ له كيما يكلمني
في الموضع الخلو لم ينطق من الحصَر
ما زال يفعل بي هذا ويُدمنه
حتى لقد صار من همي ومن وَطَري »

اتصال الرسائل والرسل

واتصلت الرسائل بينهما حينا . وكان من لهفته يتطلع في وجه الرسول عند عودته ولا يمهله ، ليسبق باللحظ والتوسم الى ما يحمل له ، شرا أو خيرا ، قبل التلفظ به . ثم انه كان يوفده وهو كالحاسد له يتمنى لو يكونه ليتملى ساعة بالنظر الى الموفد اليها . ويغلو به الوهم في ذلك حتى يجد رسوله عند الاياب من لدنها أحلى طلعة وأجمل نظرة ، فيقول :

إن تَشْق عيني بها ، فقد سعدت عينُ رسولي وفُزتُ بالخبرِ
فكلما جاءني الرسول لها رددت شوقاً في طرفه نظري
تظهر في طرفه محاسنها قد أثّرت فيه أحسنَ الأثر
خُذْ مقلتي يا رسول عارية فانظرْ بها واحتكمْ على بصري

ومن شهود هذه الوفادات ، والرسل المختلفة بينهما غاديات رائحات ، شيخ جليل هو الشيخ محمد بن حفص بن عمر التميمي (أبو ابن عائشة) وهو وقتئذ يتولى القضاء بالبصرة ، وكان منصرفا عن المسجد فرأى – فيما بين دار ابان ودار حمران – فتى لبقا ، دمثا ، عليه ثياب بيض حسان ، وعلى راسه قلنسوة مضربة ، واقفا مع امرأة يكلمها . فدنا الشيخ منه وقال له : « يا هذا ، ان كانت

هذه المرأة منك بسبب ، فقد عرضتها للتهمة ووقفتها موقف سوء ، وان كانت غريبة عنك فحق عليك اتقاء الله وألا ترضي لغيرك الا بما رضيته لنفسك » . فالتفت الفتى الى الشيخ الذى يخاطبه ، وقال على الفور فى أدب وظرف : « القول ما قلت ، وأنا قابل نصيحتك وغير عائد ان شاء الله تعالى » . فولى القاضى وجعل فى طريقه يفكر فى أمر الفتى فلا يدرى أى شمائله يستحسن ، أسرعة جوابه ، أم حسن مراجعته له بقلة الخلاف ، أم ظرف لسانه . ثم دخل القاضى فى المسجد الجامع وجلس ساعة للقضاء والنظر فى المظالم ، فلم يشعر الا برقعة فى الرقاع بين يديه وكان الذى جاء بها ابن عائشة ولده . فتناولها ، واذا فيها :

« يقول لك ابو نواس :

إن التى أبصرتَهـا ... سَحَراً تكلمنى رسول

ليست هى القصدُ الذى ... يُومىَ إليه ولا السبيلُ

أدّت إلىّ رسالةً ... كادت لها نفسى تسيلُ

من ساحر العينين يجـ ... ذب خصرَه ردفٌ ثقيل

متقلدٌ قوس الصِبا ... يَرمى وليس له رسيل

فلوَانّ أُذْنَك بيننا ... حتى تَسَمّعَ ما نقول

لرأيتَ ما استقبحتَه ... من أمرنا وهو الجميل

وعلمتَ أنى فى نعيم ... لا يحول ولا يزول »

فضحك الشيخ حين قرأها ، وقال لابنه : « قل له انى لا أتعرض للشعراء »

الزيارة ... وتكرار الزيارات

أما ذلك « النعيم المقيم الذى لايحول ولا يزول » فذلك

أن جنان أرسلت تسمح له بأن يزورها .. ولقد وقعت هذه الزيارة وتكررت ، وكانت زوراته لها نهارا كماكانت قصارا . وظهرت فيها احدى معجزات المرأة ، بل أكبر معجزاتها بوصفها امرأة — لا مجرد انثى . فاذا بالماجن الفاسق قد صار عاشقا على طراز المتيمين المذريين ، يبرأ من الريبة مثلهم ، ويلقى الحبيب وليس له مثلهم فى الحب من وطر الا الحديث والنظر . على ان جنان لم تلبث فى تحرجها ان وجهت اليه : « قد شهرتنى فاقطع زيارتك عنى أياما لينقطع بعض القالة » . ففعل محزونا ، وكتب اليها يقول :

إنا اهتجرنا للناس إذ فطنوا ... وبيننا — حين نلتقى — حسنُ
فليس يُقـذى عيناً معاينةٌ ... له ، وما إن تمجُّـهُ أذن
ويحَ ثقيفٍ ماذا يضُرُّهمُ ... إن كان لى فى ديارهم سكن
أرْيَبُ مابيننا الحديثُ ، فان ... زدنا فزيدوا ، وما لنا ثمن

وقنع بالرسائل يدسها اليها ويحتال على ابلاغها لها ، فكان يبالغ فى تدبيجها وتهذيبها ويكثر من التأنق فىعبارتها ، ليختلب الحبيبة ويسترضيها . وكان من ذلك ما لا بد أن يكون من كثرة المحو والاثبات فيها . فقام بنفسها — فى سوء ظنها به — أن كثرة التغيير فى رسائله حاصل من انه ليس يصدر عن صدق شعور وطبع ، ولكنه التلفيق وتزوير القول . وفى ذلك يقول :

غـضِبَتْ لمحوٍ فى الـكتاب كثيرِ
قالت : « أراد خيانتى وغرورى
كتب الـكتابَ على خلافِ ضميرهِ
فالمحوُ فيـــه لـكثرة التغيير »

المسير الى الحج

وعزمت مولاة جنان على الحج ، ورأت أن تصحبها ولا تتركها . وترامى الخبر الى الشاعر من بعض رفاقه محمد ابن زياد المعروف باليؤيؤ ، فقال شاعرنا للذى أخبره : « أما والله لايفوتنى المسير معها والحج عامى ان اقامت على عزيمتها ، وما على من هذا » . فظن مازحا فى أول أمره . ولكنه سبقها الى الخروج بعد أن أيقن أنها خارجة . وما كان أبو نواس ينوى الحج عمره ، وما أحدث عزمه الا خروجها

ولقد شوهد فى الحج وقد أحرم . فلما جنه الليل على هذه الارض المباركة وقد ازدحمت بالمسلمين من أقطار الارض مشارقها ومغاربها ، فاض عليه الشعور العام واشتمله ، وغلب عليه الايمان ، واهتزت نفسه فى جنح هذا الليل لنجوى الغيب ، فسمع يلبى بشعر وهو يحدو به ويطرب :

إلهنا : ما أعدلكْ   مليك كلّ مَن ملكْ
لبيكَ ، قد لبيتُ لك   وكلٌّ من أهلَّ لك
لبيكَ إنّ الحمدَ لك   والملكَ ، لا شريك لك

والليل لما أن حلك   والسابحات فى الفلك
على مجارى المنسلك   ما خاب عبدٌ أمّلك
أنت له حيث سلك   لولاك يا ربّ هلك

يا مخطئاً ما أغفلكْ   عجلْ وبادرْ أجلك
واختم بخيرٍ عملك   لبيك إنّ العزّ لك

والملكَ ، لا شريك لك   والحمدَ والنعمـةَ لك

وكانت سبحة من سبحات الروح التى لايخلو ان تطرق النفس البشرية مهما يكن من ضلالها أو انكارها فى لحظة من لحظات الاتصال بالقوى الغيبية العلوية

عند الكعبة

فلمـــا كان الطواف ، لقيه بعض أصـــحابه ، ثم فاتهم وتقدمهم ، فاذا بهم يرونه خلف امراة ، ولا يكادون يرونه الا خلفها . فلم يدروا من هى . فلما صارا الى الحجر الاسود فاذا بالمرأة تلثم الحجر ، واذا هو قد لثمه معها حتى الصق خده بخدها فى زحمة الخلق . وتفطنوا لها فاذا هى جنان . فلما انصرفا ، لقيه ممن راقبوه محمد بن عمرو الجماز (ابن اخت سلم الخاسر الشاعر) فقال له : « ويحك ! فى هـذا الموضع لايزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوف الله ولا يردك حياء من الناس ! قد رأيتك وما صنعت اليوم » . فقال : « يا أحمق ! وحسبت قطع المهامه والسباسب والرمال الا للذى حججت له واليه قصدت ! » . ثم أنشأ يقول :

وعاشقين التفّ خـدّاهما   عند التثام الحجر الأسودِ
فاشتفيا من غير أن يأثـَما   كأنمـا كانا على موعد
لولا دفاعُ النـاس إياهما   لما استفاقا آخرَ المسند
ظلنا كلانا سـاتر وجهه   ـ مما يلى جانبـه ـ باليد
نفعلُ فى المسجد ما لم يكن   يفعـله الأبرارُ فى المسجد

وعاد ابو نواس من حجه هذا غير المبرور ، يردد قوله :

ألم تر أنني أفنيتُ عمرى
بمطلبها ، ومطلبها عســيرُ

فلما لم أجـد سبباً إليها
يقرِّبني ، وأعيتني الأمور
حججتُ ، وقلتُ قد حجت جنانٌ
فيجمعني وإياها المسير

بعد الحج فتور وقطيعة

وتابع ابو نواس بعد عودته ايفاد الرسل الى جنان ، حتى أعيتها الحيلة فيه ، فاستنظرته الى أن يخرج زياد (١) أخو مولاتها فى سفر من اسفاره ، ولم يكن ذلك الا تعللا منها . فقد خرج زياد ، وانقضت الايام فى اثر الايام ولم توف له ولا خرجت للاقاته . فكان يطوف بقصر الثقفيين كل يوم على حد قوله :

أطوف بقصركم فى كل يومٍ كأن لقصركم خُلِق الطوافُ

ولكنه متطلع متنظر على غير جدوى :

جفن عيني قـد كاد يسـ قطُ من طول ما اختلج
وفؤادى من حرِّ حبـ لك قد كاد أو نضـج
خـبّريني ـ فدتك نفسـ ى وأهلي ـ متى الفرج ؟
كان ميعادُنا خرو ج زيادٍ ، وقد خرج
أنت من قتل عاشقـ يك فى أضيق الحرج

وكانت جنان لايزال يساورها ويتمثل لوهمها ما هو متواتر شائع من عبث الشاعر وقبح سيرته وبعده عن جد الحياة واسترساله مع المجانة والهزل . فكرهت بعد هذا

---

(١) الأغاني فى الصفحة ١٢ من الجزء ١٦

كله أن تكون لمثله . ورجعت الى عادتها من مجافاته وسوء ملاقاة رسله ، وعادت تتهجمه كلما ذكر لها اسمه ، وتظهر التأذى من تهتكه فيها وغزله . فقال وهو لايكاد يكتم غيظه :

وا بأبى منْ إذا ذُكِرْتُ له ... وطولُ وجدى به تنقصنى
لو سألوه عن وجه حجته ... فى سبه لى ، لقال : «يعشقنى» !
نعمْ ، إلى الحشر والتناد ، نعم ... أعشقه أو أُلفَّ فى كفنى
لا تثنى - وَيكَ - عن محبته ... ما دام روحى مُصاحِباً بدنى
أصيح جهراً لا أستسرُّ به ... عنفنى فيه من يُعنفنى :
« يامعشر الناس فاسمعوهُ وعُوا ... انّ جناناً صديقةُ الحسن »

ولقد غضبت جنان لذلك غضبا شديدا ، فأطالت هجره ومصارمته ، وأصر الرجل على حبه لها وتشبيبه بها :

أنا أهواكِ ، فمُوتى كمدا ... إننى لستُ بسالٍ أبدا
بأبى - لاغمك الله - اصبرى ... إلزمى الهجران وارضى لى الردى

ورآها المسكين ذات ليلة فى منامه ، وكأنها قد صالحته ، فاهتاج شوقا اليها ، وكتب لها من فوره :

اذا التقى فى المنام طيفانا
عاد لنا الوصل كما كانا
يا قرة العينين ما بالنا
نشقى ويلتذ خيالانا
لو شئتِ - اذ أحسنت لى فى الكرى -
أتممتِ إحسانك يقظانا

يا عاشقين اصطلحا في السكرى
وأصبحا غضبى وغضبانا
كذلك الأحلام غرارةٌ
وربما تصدق أحيانا

غيبة جنان عن البصرة

واخيرا اجمعت « عمارة » عزمها ، وبيتت النية وزوجها على ان يغيبا جنان عن الشاعر . وكان لمولى جنان اخ يقال له أبو عثمان ، وكان شديد الاعتقاد بأن الجارية لم تكن من الشاعر في موضع عشق ، ولا كان مذهبه النساء ، ولكنه عبث خرج منه . وكانت لأبي عثمان ضيعة بحكمان في ظاهر البصرة فانتقلوا اليها ونزلوا بها . وشق ذلك على الشاعر والتاع قلبه ، وانطوى منه على شجو ناصب ، فكان لايرى الا هائما على وجهه ، مشغول القلب ، مضطرب البال . وكان يقصد الجبل بالبصرة يسأل كل من اقبل من تلك الناحية ، ويحتال في ذلك فيجعل سؤاله عن أبي عثمان وعن زوج عمارة أبي ميه (١) محمد بن خالد ، وغني عن البيان أن قصده كله التقصي عن جنان ، وما كان ذلك ليخفى على واحد ممن كان يتوجه اليهم بالسؤال :

أسألُ القادمين من حكمان : « كيف خلفتمو أبا عثمان ،

---

(١) جاء في الأغاني في الصفحة ٥ من الجزء ١٨ أن (أبامية) ابن عم (لابي عثمان) ولزوج عمارة محمد بن خالد . لكنه جاء قبل ذلك في الصفحة نفسها ان أبا مية هو نفسه زوج عمارة ولعل ذلك الأصح . ويؤيده ما ورد في الأغاني في الصفحة ٢٣ من الجزء ١٧ من ان أبا مية (أمية) اسمه خالد ، وللشاعر بن مناذر فيه أبيات مذكورة تشير الى أنه كان يخطب نساء ثقيف فيرد لفقره — وهذه بعينها حال محمد بن خالد لولا أن نجحت (سرور) في الاحتيال له في الزواج بعمارة مولاة جنان

وأبا ميـة (١) المهذَّبَ والمأ مول والمرتجى لريب الزمان ؟ »

فيقولون لى : « جنانُ كما سرَّ ك من حالها ، فـلْ عن جنان »

ما لهم ـ لا يُبارك الله فيهم ـ كيف لم يُغنِ عندهم كتمانى ؟

وما من ريب فى أن أبا نواس كان حقيقا بأن تنصلح حاله ويستقيم طبعه وتحمد سيرته ويصح دينه ، لو أن علاقته بجنان فى عقلها وكمالها قد دامت له ، وأدت الى نتيجتهـا الطبيعية من اقترانه بالمراة التى يحبها ، والاستقرار بالحياة الجنسية فى كنفها ، وطلب ما فيه الرفعة له فى عينها . ولكنها هى وجميع من حولها ـ لسوء حظه وتعسه ـ لم يفهموه حق فهمه ، فلم يصدقوا أن جنان منه فى موضع عشق ولا عشرة ، او انه يخلص يوما فى حب المراة

وحسبنا فى الدلالة على الاثر الطيب الذى كان لهـــذه العلاقة فى صلاح سيرته وخلقه هذه الأبيات :

لولا حذارى من جنانِ لخلعتُ عن رأسى عنانى

وركبت ما أهوى وكمْ أجفو مقالةَ من نهانى

وخرجتُ أخبط سـادراً لم أُغنَ عن حبٍّ الغوانى

وقد تبين ايضا أثر ذلك واضحا فى شعره ، حتى أخذ عليه بعضهن سكوته عن تصوير محاسن الاجسام ونعت الخمر الى وصف الجوى وشكوى الهجر :

وقائلة لى : « كلُّ شِعرك فى الهجر ! »

فقلت : « برغمى حيث سار به شِعرى

تشـاغل بالهجران ممن أحبـه

وقد كان يحلو بالمحاسن والخمر »

فلما أن طال الأمر بالشاعر العاشق ، وأيقن باليأس من مطلبه ، وانقطع منه رجاؤه ، لم يطق المقام فى البصرة ، فأزمع الرحيل ، وكان برغمه التوديع :

كفى حَزَناً ألا أرى وجهَ حيلة
أزور بها الأحباب فى حكمان
وأُقسمُ لولا أن تَنال معاشرٌ
جناناً بما لا أشتهى لجنان
لأصبحتُ منها دانىَ الدار لاصقاً
ولكنّ ما أخشى ـ فُديت ـ عدانى
فواحزَنا حزناً يؤدى الى الردى
فأصبحُ مأثوراً بكل لسان
أرانى انقضت أيام وصلىَ منكمو
وآذن منكم بالوداع زمانى

ونزح أبو نواس يطلب ود الملوك فى بغداد . ويخطىء من يحسب هذه الدنيا الزاخرة الشائقة التى هو مقبل عليها بالتى تذهله عن جنان . وحسبنا فى ذلك اعتراف الشاعر نفسه : « وخرجت الى بغداد وفى نفسى بقايا من حبها ، ما فارقتنى ولا تفارقنى الا مع خروج روحى »

فى طريق بغداد

خرج ابو نواس من البصرة كالهائم على وجهه ، وقد اسودت فى عينه مجاليها ، وضاقت به مغانيها . فغادرها مدعيا الكره لها والتنكر لأهليها . ولا شك فى انه كان يجد للذكرى وجدا عظيما ويحس لها مضا أليما ، حتى بلغ فى طلبه النسيان انه عمد الى المراسلة بينه وبين خاصة الاخوان فى البصرة فقطعها :

قولا « لعباس » لكى يدري لغلام عَلِكٍّ قُدْوَةَ المصرِ :
« فيمَ الكتابُ الىَّ تخبرنى بسلامةٍ – فى البطنِ والظهرِ
فاقطعْ بسيفٍ صارمٍ ذكرٍ أسبابَ كتبٍ بيننا تجرى
فان امتنعتَ فلا مواترة حسبى كتابُهُ منك فى الدهر
واجمعْ حوائجك التى حضرتْ عند الكتاب الىَّ – فى سطر »
ما ذاك الا أننى رجل لا أستخفُّ صداقة البصرى

على انه غير قمين بالقارىء أن ينخدع بهذا القول فى حالة السخط واليأس فقد عاد الشاعر يحن الى موطنه فى البصرة ويشتاق منازلها ومعاهد صباه فيها ، ولكنه كان يتكلف الصبر ، ويلزم نفسه السلوان ، متلهيا بالشرب والقصف فى الحانات والمتنزهات ، كما تشهد بذلك هذه الأبيات :

عفا المصلى ، وأقوت الكثبُ ... مِنّى ، فالمِرْبدان ، فاللببُ
فالمسجدُ الجامعُ المروءةِ والد ... ين عفا ، فالصحان فالرَّحبُ
منازلٌ قد عَمرْتُها يَفعاً ... حتى بدا فى عذاري الشهبُ
فى فتية كالسيوف هزَّهُمُ ... شرخُ شبابٍ وزانهمْ أدبُ
ثم أراب الزمانُ فاقتسموا ... أيدى سبا فى البلاد فانشعبوا
لما تيقنتُ أن رَوْحتهم ... ليس لها ما حييتُ منقلب
أبليتُ صبراً لم يُبله أحدٌ ... واقتسمتني مآربٌ شعب
قطربلٌ مربعى، ولى بقرى الـ ... كرخ مَصيفٌ ، وأمّىَ العنب
ترضعنى دَرَّها ، وتلحفنى ... بظلها ، والهجير يلتهب

فاذا أضفنا الى هذه أبياتا له أخرى يقول فيها :

أيا منْ كنت بالبصـ ... ـرة أصـفى لهمُ الودّا
ومن كانوا موالىَّ ... ومن كنتُ لهم عبدا
ومن قدكنتُ أرعاه ... وان ملّ وان صدّا
شربنا ماءَ بغدادٍ ... فأنسانا كمُ جِدّا

لم يبق موضع للشك فى أن شاعرنا نزح من البصرة لأنه خاب فى حبه وفجع فى قلبه . ولقد بلغ به الكمد والكرب أن بدت فى عذاره ومفرقه رواعى الشيب ، ولما يزل فى شرخ الشباب وريعانه

الالمام بالكوفة

وأخذ الشاعر فى طريقه الى بغداد . فعاج بالكوفة فيما عاج به من البلاد . وهو فيما كان عليه من حال لم يكن

يقصد منها الكوفة الجليلة المعروفة بالعلم والعلماء ، وانما كان يقصد منها الكوفة الموسومة بخد العذراء ، تلك التى عرف سوادها وجاس أرباضها وشرب فى دساكرها وحاناتها ، واطلع طلع ملاهيها ، وخبر مواضع القصف فيها ، أيام عشرته لوالبة ومقامه معه . انه اليوم لأشد حاجة الى السكر ، وأفسح عذرا فى التلهى والقصف ، تفرجا عن همه وتخففا من يأسه القاتل وهربا من نفسه . ولقد لقى صاحبنا فى الكوفة من الندماء من أحمد مودتهم وارتضى صحبتهم وأنس بمنادمتهم ، حتى ختم قصيدته الرائية فى ذم البصرة بقوله :

ذهبت بنا « كوفانُ » مذهبها وعدِمْت عن ظُرَفائِها صبرى

وكان بظاهر الكوفة وحولها مواضع من انزه البقاع واطيبها ، كثيرة المياه والرياض ، وكانت تقوم فى معظمها ديارات للنصارى . وكان الرهبان فى انقطاعهم بهذه المواضع يعملون الى جانب العبادات لتزويد الدير بحاجاته وتوفير موارده . فهم يتخذون حوله المزارع والمباقل والبساتين والكروم ، والى ناحية من الكروم يتخذون معاصر الخمر . ولقد كان ما يزيد على حاجة الدير يباع للارتفاق بثمنه . ومن ثمة كان للأديار تجارة بمزروعاتها من الثمار والزعفران وعلى الخصوص بممتقاتها من الخمور ، وهى من قديم « المشهورة فى الآفاق ، المعروفة مغارسها بطيب الاعراق » . ولقد كثر طلب أهل الشراب للخمور النصرانية لارتياض النصارى باعتصارها وحذقهم له ، فضلا على ما اختصت به معاصر الأديار من النظافة . وكان من هذا الاقبال انه تأدى بالرهبان الى اتخاذ الحانات الى جانب الأديار لبيع خمورها لمريديها . فكان يقصد اليها فيمن يقصد أصحاب اللهو والمجان من المسلمين ليشربوا الخمر العتيقة ، فى الآنية النظيفة الأنيقة ، على الوجوه الحسان ، بين الرياض

والبساتين الحالية بصنوف الأزهار والرياحين ، وعلى قرع النواقيس وأنغام التراتيل والقراءات فى المزامير والأناجيل ، وغير ذلك من التلاحين البيعية

ولقد عاج أبو نواس فى طريقه الى بغداد على حانات هذه الأديار التى كانت كثيرة حول الكوفة وفى ظاهرها ، فكان يشرب فيها حتى يسكر ، ولم يكن بعد قد تعود الادمان عليها والعب فيها :

وقهوةٍ عُتقتْ فى دير شمــــاس
تفترّ فى كأسها عن ضوء مِقباسِ
مزاجُهــا دمعُ حاسيها ، فأىّ فتى
لم يَبكِ اذ ذاقهـا من حرقة الـكاس
سِـلمٌ ، ولـكنها حربٌ لذائقها
يا حبــذا بأسها ما كان من باس

وكان مع هذا يحمل بالشراب على نفسه ، ولايدع الساقى يفتر عنه ، ولا يبرح يناشده أن يحث المدامة اليه ويديرها مرات بعد مرات عليه . وانه ليتبادر للخاطر انه كان يشرب لا للشرب ولذته ، وانما تعجلا لسكرته والتماسا لذهول العقل وغيبة الفكر :

رُدّا علىّ الـكأس انـكما
لاتدريان الـكاسَ ما تُجدى
لو نلتما ما نلتُ ما مُزجت
الا بدمعكما من الوجـدِ

وظاهر من هذا انه قد عكف على الكاس حين عكف ليغرق الهم فى كأسه ، وليخرج بالسكر عن حسه وينسلخ عن ذكرى أمسه . فهل تراه أدرك من ذلك مبتغاه وبلغ ما فى نفسه ؟ هيهات ، بل كانت هذه المجالس التى جلسها للشرب فى الأديار

على رنين النواقيس وترانيم الرهبـــان وأنواع التطريب والألحان أدعى للذكر وأورى عنده لنار الوجد ، حتى لتغلب الحال عليه وتطفح به ، فيظهر طربه خارجا عن القصـــد متجاوزا للحد ، يحسبه منـــادموه عربدة منه لخفاء سره وجهلهم لأمره :

اذا شاقك ناقوسٌ　　وشجو الناى، والعودُ
وغوديتَ بريق الخمـ　　ـر مجَّته المناقيدُ
تطرَّبتَ إلى الالف　　فقالوا أنت عربيدُ
وهل عربد مكروبٌ　　قريحُ القلب معمودٌ !

ولقد كان من الدواعى المحببة للشرب والمغرية به موقع الأديار بين الجنان المونقة والغدران المترقرقة ، أوعلى الروابى العالية المطلة على الأودية الناضرة والمياه المتحدرة والسهول الفسيحة . ولا شك فى أن رقة الهواء ، ورواء المنظر وحسن المستشرف ، وهذه الألوان البهيجة المشـــبوبة ، والعطور الممتزجة المشوبة ، من شأنها أن تشحذ الحواس وتنبه مراكز العصب ، فيتحرك الحب فى قرارة كل قلب . واذ لم يكن لشاعرنا المهجور أمل فى الحب ، فقد انصرف الى الشرب فى هزة طربه واهتياج مشاعره . وهـــذه أبيات له فى دير مريونان ــ ويقال له أيضا عمر يونان ــ فى الأنبار على ضفة الفرات ، وهو دير كبير عليه سور محكم ، ورياضه غناء فيحاء :

آذنك الناقوسُ بالفجرِ　　وغرَّد الراهب فى العُمْر(١)
وحنَّ مخمور الى الخمرَ　　وجاءك الغيثُ على قَدْرِ
واطَّردتْ عيناك فى روضةٍ　　تضحك عن خُضر وعن صُفر

---

(١) الكنيسة

يا عاقد الزنّار فى الخصر بحرمة الحانة والدير (١)
هاتِ التى تعرف وجدى بها واكْنِ بما شئْت عن الخمر

الرهبان فى تقشفهم وتعبدهم

ومن الديرة (٢) التى عاج بها أبو نواس بظاهر الكوفة على بعد يومين منها دير حنة ، وهو دير قديم فى بقعة كثيرة الرياض والبساتين ، تحاذيه منارة عالية كالمرقب تسمى القائم ، وبه بيوت صغار يسكنها الرهبان الذين لا قلالى لهم وتسمى هذه البيوت بالاكيراح . ولعله من أدل الشواهد أيضا على ما كان يمكن أن يكونه أبو نواس لولا شؤم مصادفاته وفساد بيئته ، ما دخل على نفسه من شعور حين طرق هذا الدير وكل همه أن يسكر من معتقات دنانه ، وينظر الى ظبائه من الانس وغزلانه ، على حد قوله :

يا دير حنّة من ذات الأكيراح
من يصحُ عنكَ فانى لستُ بالصاحى
رأيتُ فيك ظباءً لا قرون لها
يلعبن منا بألباب وأرواح

فانه مع ما كان من سكره ومجونه ، لم يلبث أن راعه وأخذ بقلبه هذا المشهد الماثل لعيانه للزهد فى متاع الحياة ، والاعراض عن الدنيا والانقطاع لله . فقد جعل ـ وبه شعور مخامر من العجب الذى لاينقضى والارتياح الذى لايدرى كنهه ـ يتأمل هؤلاء الرهبان وهم فتية شبان قد أنحلهم القنوت والتقشف ، وشفهم التهجد والتعبد ، وأذابهم طول التفكير والخوف من نار السعير ، فلا يرى الناظر اليهم

---

(١) فى الأصل « النهر » وهو عيد لليهود أو معبدهم
(٢) أنظر « الحان الحان » للمؤلف

الا اشباحا ، محفوة مفارقهم ، محوقة رؤوسهم ، عليهم من ثياب الرهبانية مسوح خشنة بالية ، وقد عزفوا فى مطالب العيش عن كل زيادة ، وحرموا على انفسهم من أسباب الترف أهون وسيلة وأدنى آلة ، حتى ليشربون من الغدران بغير آنية اغترافا بأيديهم ، فاسمع اليه يقول فيهم :

دع التشاغلَ باللذات ـ يا صاحِ ـ
من العكوف على الريحان والراحِ
واعدلْ الى فتيـة ذابت نفوسُهمُ
من العبـادة ، نحف الجسم ، أطلاح
لم يبق منهم لرائيهم اذا حصـلوا
ـ حذار ما خوّفوه ـ غيرُ أشباح
تلقى بهـم كلّ محفوّ مفارقه
من الدهان ، عليه سَحق أمساح
لا يدلفون الى ماء بآنيـة
الا اغترافاً من الغدران بالراح

ولقد بلغ من قيام هذه الصورة بنفسه ، ومن تحقق معناها فى حسه ، أن عاد اليها بمثل هذا الوصف من البحر والقافية :

دعِ البساتين من آسٍ وتفاحِ
واعدلْ ـ هُديتَ ـ الى ذات الاكيراح
اعدلْ الى نفرٍ دقت شخوصُهم
من العبادة الا نِضـوَ أشباح

يكررون نواقيساً مرجعة
على الزبور بإمساء وإصباح

غلبة المجون على الشاعر

على ان الشاعر لايلبث حتى يعاوده ما تعوده أمثاله من السكر والمجون ، فتراه بعد أن عدل ـ فى هاتين المقطوعتين ـ عن الريحان والراح والآس والتفاح ، الى ذكر العبادة والصلاح ، ووصف العابدين انضاء النسك كالأشباح ، ينتقل الى ما كان عليه من التغنى بالخمرة المعتقة التى يتحفون بها الضيوف فى القعاب الكبار ، والى التغزل بالراهب الفتى الذى دار بها عليهم وقد صار بعد السكر ينعت نحوله بالهيف ، وعاد يستظرف ما عليه من مسوح الرهبانية ومدارع الصوف . وكذلك ترجع نغمة شعره الى وتيرتها ، وتعود حياته الماجنة سيرتها ، فيختم أوصافه للدير وأهله كما بدأها :

يا طيبه وعتيقُ الراح تُتحفتُهم
بكل نوع من الطاسات رَحراحِ
يسقيكها مُدْمجُ الخصرين ذو هَيفٍ
أخو مدارع صوفٍ فوق أمساحِ

عمارة الأديرة وزينتها

ولقد كانت الأديار كثيرة فى العراق والجزيرة والشام وغيرها ، وكان بعضها على جانب عظيم من حسن العمارة ونفاسة البناء ، وقد تحصنها الأسوار الشاهقة والأبواب المفرطة فى الكبر من حديد مصمت أحيانا ، وكان منها ماتعلوه القباب المنيفة ترى من بعيد . وكان لبعضها زينة فى داخلها

نهاية فى البهاء والرواء . فمنها ما كانت مزوقة الجدران بأشكال النقوش والفصوص المذهبة ، مفروشـــة أرضها بصنوف الرخام المجزع والرمر المسنون المرد لا تستقر عليه القدم ، وفى سقوفها الذهب والفسافس واللازورد ، وقد علقت فى هياكلها القناديل من فضـــة ، واتخذت لها الصلبان من ذهب . وفى أركانها وآزاج طيقـــانها الدمى محفورة منقوشة بأنواع الأدهان ، وفى سقفها وحيطانها صور مرسومة ملونة بأزهى الأصبغة والألوان . وفى الصـــدر صورة المسيح وعلى رأسه اكليل الشوك ، أو صورة مريم فى غاية من اتقان الصنعة « كلما ملت من ناحية كانت عينك اليها »

ولقد كانت الأكواب التى يسقى بها ضيوف الديرة من ذهب احيانا ، وكان منها الأملس الغفل ، ومنها المنزل المحفور بأنواع الرسوم الدينية . ولقد شرب ابو نواس خمرة ذهبية اللون فى أمثال هذه الأكواب الذهبية ، فقال :

أقول لما تحاكيا شبهاً ... أيهما — للتشابه — الذهبُ

هما سواءٌ ، وفرقُ بينهما ... أنهما جامدٌ ومنسكب

مُلسٌ ، وأمثالهـا محفَّرة ... صُوِّر فيها القسوسُ والصلب

يتلون انجيلهم ، وفوقهمُ ... سماءُ خمرٍ ، نجومها الحببُ

شعائر النصارى فى شعر المسلمين

ولقد كان من كثرة غشيان الشعراء المجان أمثال ابى نواس لحانات هذه الأديار أن كثر فى أشعارهم ورود أسمائها والتغنى بخمورها ووصف بساتينها . وقد ألموا فى تلك الأشعار ببعض شعائر النصارى ومصطلحاتهم وان كانت لا تخلو أحيانا من بعض التخليط ، كالذى يزعمونه عن ليلة الماشوش وما يجرى فيها من اباحات واستهتار بالمحارم

مما لايقره دين ولا يصح فى عقل . والى هذا الوهم يشير أبو نواس فى أبيات له فى تفضيل بهروز الفارسى على الغلمان النصارى :

نقىٌّ فى الولادة عن مَشوشٍ ... يرخصه النصارى للقسوسِ

وحسبنا لبيان المام هؤلاء الشعراء المسلمين بالشعائر النصرانية فى اعياد القوم ومتعبداتهم هذه الأوصاف لأبى نواس :

كأنما الكأس اذا صُفقت ... قنديلُ قسٍ وَسطَ محرابه

وله فى فوران الخمر فى ابان تعتيقها فى الدنان :

أقامت حقبةً فى قعرِ دنٍّ ... تفور وما يُحس لها لهيبُ

كأن قِراتها فى الدنّ تحكى ... قِراةَ القسٍّ قابله الصليبُ

وقوله متغزلا :

عيناى تشهد أنى عاشقٌ لكمُ ... يا دُميةً صوّروها فى المحاريبِ

واخيرا هذه الأبيات فى المجون يخاطب فتى نصرانيا اسمه عبد يشوع بن مارى سرجس :

بعمودية الدين العتيق ... بمطرُبليطها ، بالجاثليق (١)

بشمعونٍ ، بيوحنا ، بمتى ... بمارى سرجسَ القسٍّ الشفيق

بمارتِ مريمٍ ، وبيوم فصحٍ ، ... وبالقربان ، بالخمر العتيق

بميلاد المسيح ، بيوم ذبحٍ ، ... وباعوثٍ (٢) لتأدية الحقوق

وأيام السعانين (٣) المبدّى ... وشمعلة النصارى فى الطريق

---

(١) المطربليط مأخوذ عن اليونانية metropolite : المطران ، والجاثليق ، من اليونانية كذلك catholicos : مقدم الاساقفة

(٢) الباعوث : عيد للنصارى كالاستسقاء للمسلمين

(٣) السعانين أو الشعانين عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع

بهيكل أسقف ، وبما يليه ، وَنشر البند والعلم الخفوق
وبالصلبان ترفعها رماحٌ تلالا ، حين تومض بالبروق
وبالناقوس فى البيع اللواتى ُتقام بها الصلاة لدى الشروق
بداود وما يتلون منـــه بترجيعٍ يُرَدّد فى الحلوق
بقلاّيات دومة ، بالمقـاسى ومذبح ديرها الحسن الأنيق
ورهبان الصوامع فى ذراها مُقامُهم على جهدٍ وضيق
بكنس الروم والشامات طرّاً بقسطنطينية البـلد السحيق
وبالصُلب اللاجَنْين تزين نحراً وبالزنّـار فى الخصر الدقيق
وبالحسن المركب فيك الا رحمت تحيرى وجفوف ريق
لقد أصبحت زينة كل عيدٍ ودينٍ ، معْ جفائك والعقوق

وغير ذلك كثير من الاقسام التى تشتمل فى مضامينها على جملة أوصاف لشعائر النصارى وسننهم ومشاهد مواكبهم ومصطلحات دينهم ومتعبداتهم . وفيما ورد منها الكفاية وفوق الكفاية للدلالة على اتصال المسلمين بهم اتصال معرفة ومودة ، وعلى اغتنام الخلعاء والمتماجنين لأيام أعيادهم النظر الى محاسن فتيانهم وفتياتهم فى الحلى والحلل فى غدوهم الى البيع والكنائس ، والتعرض لهم أحيانا بالغزل والعبث

على انه يحسن أن ننبه هنا الى أن ما يرويه أبو نواس وأمثاله من خلاعاتهم ورقاعاتهم فى الأديار فى عصبة من الفتاك الخلعاء ورفقة من الشطار ، انما ينصرف الى الحانات والبساتين التى حولها ، كما هو واضح جلى من شعره :

بدير بهراذان لى مجلسٌ وملعبٌ وسط بساتينه

رحتُ اليه ، ومعي فتيةٌ زوره يوم سعانينه
بكل طلاّب الهوى فاتكٍ قد آثر الدنيا على دينه
حتى توافينا الى مجلسٍ تضحك ألوانُ رياحينه
والنرجس الغض لدى ورده والوردُ قد حُفّ بنسرينه
وجيء بالدنّ على مرفعٍ وخاتم العِلْج على طينه (١)
وافتُصد الأكحلُ من دنّنا فانصاع في حمرةٍ تلوينه
وطاف بالكأس لنا شادنٌ يُدميه مسُّ الكف من لينه
يكاد من إشراق خديه أن تُختطف الأبصار من دونه
فلم نزل نُسقى ونلهو به ونأخذ القصفَ بآيينه (٢)
حتى غدا السكران من سكره كالميْت في بعض أحايينه

ومثل ذلك كان مجلس شاعرنا في طيزناباذ بين الكوفة والقادسية ، ودياراتها ذات قباب ، وهي من أنزه المواضع ، محفوفة بالكروم والشجر ، وفيها المعاصر والحانات ، وكانت أحد المواضع المقصودة للهو والبطالة . والقول هنا أيضا معدول عن الدير الى بستان صاحب الدير (وهو العمار أي الديراني ، من العمر وهو الدير)

يا حبذا مجلسٌ قد كان يجمعنا
بطيزناباذ في بستان عمّار
وحبذا أمُّ عمار ورؤيتها
خمارةً أصبحت أما لخمّار

---

(١) العلج: الرجل الضخم الشديد من العجم (٢) الآيين: القانون معربة

تعلّلنا بمدام قد تناولها
ريبُ الزمان وعصرٌ بعد أعصار
لم نخطُ من خدرها شبراً الى أحدٍ
ولم نزل بين جنات وأنهار

ولعل أبا نواس لم يدع في طريقه الى بغداد ديرا أو عمرا ، ولا قلاية أو كرحا ، الا ألم به ، فهو لا يفتأ يلهج بذكر ديارات الحيرة وطيزناباذ والأنبار وغيرها ، مرددا اشتياقه لها وما يعتاده من الحنين اليها ، تجديدا لمجالس شربه فى حاناتها وملاهيه فى بساتينها

فى احضان الطبيعة

ولقد افادته هذه الرحلة مع ذلك حب الطبيعة ، اذ جلتها أجمل جلوة فى عينه ، وقربتها الى قلبه ، وخلطتها بحسه ، فظهر اثر ذلك جليا فى شعره . على ان هذا الحب للطبيعة لم يرتفع عنده الى وقفة التعبد فى هيكلها والخبوت لروعتها والشعور الديني بحضرتها والاتحاد الصوفى بروحها ، وانما كان قصاراه أن جعله دائم الصبوة الى طيب المجالس فى رياضها ، سريع النشوة بعطورها وأطيابها ، متطربا الى خرير جداولها وأطيارها ، منجذب العين الى انواع ريحانها ومشبوب ألوانها ، حتى صار لايطلب شيئا طلبه للشرب فى احضانها كأنما يرتضع الخمرة من لبانها . ومعنى ذلك أنه وان يكن عاشقا من عشاق الطبيعة لم يكن عشقه الا من نوع العشق الحسى لا يعنى بغير الملموس المحسوس . فالطبيعة عنده ــ كما قدمنا ــ ليست معبدا ، ولكنها مرتع مونق للهو واللعب ، ومجلس مأنوس للسكر والطرب

طلب العزاء

وهنا يتشاغل هذا المحب المخيب عن هوى «جنان» بهوى

المرد والقيان . وهنا نلقى هذا الشاعر العالم يغالب بالشراب احزانه ويطفيء به وجده وأشجانه ، لو صح أن اللذة تغنى غناء الحب ، وان الخمر تطلق النفس من عقال الهم ، وتفرغ برد العزاء على حر الأحشاء ، كما زعم صاحبنا المحروم المحزون :

لا تخشعنّ لطارقِ الحدثان
وادفعْ همومك بالشراب القانى
أوَماترى أيدى السحائب رقشت
حُلل الثرى بطرائق الريحان
من سوسنٍ غضّ القطافِ ، وخُزّمٍ
وبنفسجٍ ، وشقائق النعمان
وجنىّ وردٍ يستبيكَ بحسنه
مثل الشموس طلعن من أغصان
حُمراً وبيضاً يجتنين ، وأصفراً
وملوّناً ببدائع الألوان
كعقودِ ياقوتٍ نُظمن ولؤلؤٍ ،
أوساطُهن فرائدُ العقيان
ومن الزبرجد حولهن ممثلاً
سمطاً يلوح بجانب البستان
فاذا الهموم تعاورتك فسلها
بالراح والريحان والندمان

من

دار السلام في عصرها الذهبي

تعجل الشاعر رحلته الجميلة بعد مطاولة وختم مطافه ، وأقبـــل لاول عهد الخليفة هارون الرشيد قادما على دار السلام ، بغداد التي اختطها المنصور فأصبحت أزهى وأزهر حواضر الاسلام

ولا شك أنه قد داخلته الروعة ، وامتلأت نفسه جلالا ، وشبعت عينه فتنـــة ، وهو يستشرف اليها ، ولقد بدت أسوارها المكينة العريضة الجدران ، الشاهقة البنيـــان ، كالقلعة الحصينة • وكان يدور حولها خنـدق ، ومن ورائه مسناة (١) بالآجر والصاروج (٢) متقنة محكمة عاليـــة • وكان دخول « أبى نواس » من المدخل المقابل للطريق التى أتى منها ـ أى من باب الكوفة• فاذا هو منه فى دهليز عظيم أزج (٣) معقود بالآجر والجص ، فى جوف السور الخارجى الكثيف ، وكان عليه باب كبير جليـــل المقدار لا يغلقه ولا يفتحه الا جماعة رجال • ثم أفضى من هـذا الدهليز الى رحبة مفروشة بالصخر طولهـا ستون ذراعا مسورة غير مسـقوفة ، وهى مادة فى انحـراف وازورار ، تشق براح الفصيل الدائر بين الاسوار الخارجيـــة والاســـوار

(١) السد يبنى فى وجه السيل (٢) الآجر ما يبنى به من الطـين المطبوخ (الطوب الأحمـــر) • الصاروخ الكلس (الجير) وأخلاطه

(٣) على هيئة ساباط مطول مرتفع

الداخلية ، وفى حائطى هذه الرحبة عن اليمين والشمال بابان فى جنبتيها يشرعان (١) الى الفصيل • فلما اجتاز صاحبنا الرحبة انتهى فى صدرها الى الباب الثانى ، وهو باب المدينة فى سورها الاعظم الذى عليه تقوم الابراج العظام والشرفات المدورة • ومضى القادم المدهوش يخترق الدهليزالثانى فى جوف السورالداخلى ، والدهليز أزج معقود مثل سابقه ، عليه بابا حديد جليلان عظيمان ، يدخل منهما الفارس بالعلم والرامح بالرمح الطويل منغير أن يميل العلم ولا يثنى الرمح • وتأتى بعد ذلك الرحبة المربعة وهى ذات طاقات (٢) معقودة فيها كواء (٣) رومية يدخل منها الشمس والضوء • وعلى طاق المدخل باب ساج كبير من فردين،وفى جنبتى الطاقات بين كل طاقين غرف للمرابطة

وكان باب المدينة الذى دخل منه شاعرنا ــ كسائر أبوابها الاربعة ــ تعلوه قبة عظيمة تناطح السماء ، مذهبة مزخرفة ، معقودة فوق مجالس يشرف منها على كل ما يجرى حولها ، ويصعد اليها على عقود مبنية بعضها أعلى من بعض، وفى داخلها الديادبة والحرس ، وعلى رأس كل قبة تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره على القباب الاخرى

وانتهى أبو نواس من هذه الاسوار والدهاليز والطاقات والابواب التى تحرسها الجند ، الى داخل المدينة العظيمة • فاذا داخلها لا يكذب ظاهرها فهى من وراء ما يتصوره وهم الواهم من أبهة العمارة ، وفوق ما يقدره حسبان الحاسب من رواج التجارة ، ثم هى على أشد الزحام بالناس أخلاطا من سائر الاجناس • ولعل أعظم ما شاقه منها وارتاح اليه فيها ذلك الطابع الاعجمى الذى يطبعها ويغلب عليها فى كل شىء

---

(١) ينفذان اليه (٢) الطاق : ما عطف من البناء والجمع طاقات أى أقواس من البناء (٣) جمع كوة

قصور بغداد

أما مبانيها وقصورها ومصانعهـا فهى على مثـــال من الهندسة فيه الفارسى والبيزنطى وقد حوطوها بالاسوار ، وجعلوا فى سطوحها القباب مرفوعة على العمد الدقاق كأنها معلقة فى الهواء•وزينوا جدرانها وسقوفها بالنقوش الملونة ، وفصوص الفسيفساء المذهبة ، وتصـــاوير النبات من ثمار وأغصان ، ورسوم الطير والحيـوان من طواويس وغزلان • وكتبوا الآيات بالذهب المجسم ، وحفروا المنـــاظر الممثلة للحياة على المعدن ، واتخذوا الزجاج الملون على دائر الابواب والقمريات • وعمدوا فى صنع أطرها الى الآبنوس وغـيره من الخشب الثمين . وتأنقوا داخل القصور فى اتخاذ الجنات وتنسيق المتنزهات يجلبون اليها بدائع الاغراس وغرائب الاطيار من أطراف الارض ، ويسوقون اليها الجداول ويبنون السقايات • ويحتفرون البرك تجرى فيهـا الزواريق للهو والغناء فى ليالى القمراء

وكان من هذه القصور ما يرجع عهده الى المنصور مثـل « قصر الذهب » الذى بناه وسط بغداد المدورة،وفي صدره الايوان تنعقد فوق مجلسه الاعلى القبة الخضراء منيفة ترى من أطراف المدينة ، وعلىرأس القبة تمثال فرس عليهفارس وفي يده رمح • وكانت هذه القبة تاج بغداد ، وعلم البلد، ومأثرة راسية الأساس لموطد ملك بنى عباس . ثم « قصر الخلد » على شاطئ دجلة وموضعه وراء باب خراسان • وقد جاءت تسميته تشبيها له بجنة الخلد ، لما يحويه من عجيب فائق وجميل شائق من كل ما تشتهى الانفس وتلذ الاعين، وكان الخليفة هارون الرشيد يقيم وقتئذ فيه • وعلى مسافة قريبة منه قصر الملكة زبيـدة المشهور بدار القرار • وكان القصران متقاربين على الضفة الغربيـــة من النهر • وكان بحذائهما من الجانب الآخر قصور البرامكة لا تقـل عنهما

عظمة وأبهة • ثم غير هذه وتلك قصورعدة على جانبى دجلة للامراء والوزراء ورجال الدولة وذوى الجاه والثروة ، عدا الدور والاسواق والجوامع والحمامات وهى لا تحصى كثرة وقد ذكر أبو نواس « قصر الخلد » فى بعض أشعاره :

كنتَ «بقصر الخلد» فى روضة ... تخرقها الأنهارُ بالسفنِ
خلا لها الوردُ لدى نرجسٍ ... معتنق الآس فى غصن
نيط بتفاحٍ إلى مشمشٍ ... بين نخيل الطن والبرنى (١)
يا حبـذا النوّار نوّاره ... مختلف البهجة فى الحسن
من أصفرٍ يزنو إلى أحمرٍ ... وأبيض فى اللون كالقطن

كما اشار الى ماكان فى قصر المهدى من حسان الطواويس فى قصيدة فى باب الطرديات ينعت ديكا من ديوك الهند

أنعت ديكاً من ديوك الهندِ
أحسن من طاووس «قصر المهدى»

ومن اشارته لقصور الامراء قوله فى احدى خمرياته وقد دعاه الامير عيسى بن أبى جعفر المنصور ليقيم عنده أسبوعا فى القفص فى ارباض بغداد :

ياطيبنا بقصور القفص مشرقةً ... فيها الدساكرُ والأنهارُ تطرد

غلبة الحضارة الفارسية

ولقد كان شيوع اللباس الفارسي في بغداد يكاد يكون عاما بعد سنوات من صدور أمر الخليفة المنصور لاصحابه بتغيير الزى الرسمى فى سنة ١٥٣ • فكانت طوال القلانس بدل العمائم لرجال الدولة وأصحاب الديوان ، والطيالس

(١) الطن : رطب أحمر شديد الحلاوة . والبرنى : نوع من التمر، معرب

السود للعلماء والمشايخ ، والاقبية لسائر الرجال، والقراطق والمناطق للغلمان والجوارى

وعلى الجملة كان لون الحضارة الفارسية ظاهرا فى كل ناحية من نواحى الحياة العملية والعلمية ، العامة والخاصة ، حتى مواكب الخليفة ورسوم الخلافة

على أن أبا نواس قد شغل عن هذه المعالم كلها مع عظم سروره بها، فلم يعرض بشيء من جيد القول لوصف القصور او غيرها من آيات الحضارة وعظمة الملك فى بغداد فى عصرها الذهبى أيام الرشيد والبرامكة • وانما الذى شغله الشغل كله واستولى على نفسه وملك عليه مشاعره ، هو هذه الروح الفارسية ذات النزعة الحسية ، منبعثة فى بغداد ، تجرى فى حلبتها منطلقة فى أعنتها ، بكل ما عرف عن الفرس منذ قديم من حب للنبيذ ، ونزوع للهو والسرور ، وميل للطرب والغناء ، واستجابة لدواعى الغزل • وهى روح متفقة مع دياناتهم الزرادشتية القديمة التى جعلتهم يعبدون الطبيعة فى مظاهرها الحسية دون استغراق فى الغيبيات كغيرها من الديانات

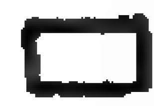
الشاعر يدعو الى التجديد

ولقد كان لهذه الحضارة التى انغمس فيها الشاعر أعمق الاثر فى نفسه ، وهى كذلك معكوسة أصدق الانعكاس فى شعره • ومعلوم أن الكثرة من شعراء عصره كانوا لا يزالون ينسجون على منوال الشعراء الجاهليين ، من الوقوف على الاطلال التى تعفت فلا تكاد تبين ، والبكاء على منازل الحى الذين تحملوا بخيامهم ظاعنين ، وذكر غراب البين الذى آذن بفراق الأحبة ، والتسليم على ما خلفوا من رسوم ، وتشمم ما حولها من العرار والشيح والقيصوم • وذلك مع كون هؤلاء الشعراء من طبقة المحدثين ، وقد بعدوا عن ذلك كله فى الزمان والمكان أشد البعد ، وانقطع عهدهم بالبوادى

وحياة البداوة وتبدلوا منها حواضر العراق مســـتبحرة العمران مترفة النعيم . ولقد أبى شاعرنا العبقرى المطبوع بما كان له من رحم موصولة بالفارســـية ، ونزعة ظاهرة للشعوبية ، وبما كان يتذوقه ويتملاه فى هذه الحياة المترفة من اللهو واللذة ، الا أن يكون لسان صدق ، فيكون شعره ترجمان عصره ، ولا يعدو وصفه ما يقع تحت حسه . وزاد على ذلك أنه لم يسلك طريقه فى خشية المتهيبين وتســـتر المهربين ، بل رفع علم الثورة نهـــارا ودعا دعوة المصلحين جهارا ، فحق له أن ينزل من التاريخ الادبى منزلة المجاهدين وأن يعرف له فى الادب العربى فضل المجددين

وهذا بعض ما كان يردده الشاعر الداعية فى حملته على أصحاب المذهب القديم من الشعراء والشعارير المحدثين ، وما كان يأخذ به من تشديد النكير عليهم وتعمد التشهير :

لاجفَّ دمعُ الذى يبكى على حجرٍ
ولا صفا قلبُ من يصفو الى وتد
كم بين ناعتِ خمرٍ فى دساكرها(١)
وبين باكٍ على نُؤىٍ(٢) ومنتضدا



إنحلْ على الدار بتسليمِ
فما لديهـــا رجعُ تكليمِ
والعنْ غراب البين بغضـاً له
فانه داعيـــــة الشوم

(١) الدساكر : بيوت الأعاجم يكون فيها الشراب والملاهى
(٢) النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع السيل ، والمنتضد مجتمع الرمل

وعُجْ الى النرجس عن عرفجٍ[1]
والآس عن شيحٍ وقيصوم
واغدُ إلى الخمرِ بأبانهـا
لا تمتنعْ عنهـا لتحريم

□

دَعِ الأطلال تسفيها الجنوبُ[2]
وتبكى عهدَ جِدّتها الخطوبُ
وخلِّ لراكبِ الوَجناء[3] أرضاً
تخبُّ بها النجيبةُ والنجيبُ
ولا تأخذ عن الأعراب لهواً
ولا عيشاً ، فعيشُهم جديب
ذرِ الألبان يشربها أناسٌ
رقيقُ العيش عندهم غريبُ
بأرض نَبتها عُشرٌ وطَلحٌ
وأكثرُ صيدها ضَبعٌ وذيب
إذا راب الحليبُ فبلْ عليه
ولا تحرَجْ ، فما فى ذاك حوب[4]

---

(١) العرفج والشيح والقيصوم مما ينبت فى سهول البادية ، وهى جميعا طيبة الرائحة
(٢) الجنوب : الريح التى تهب من الجنوب (٣) الوجناء : الناقة الشديدة (٤) الحوب : الاثم

فأطيبُ منه صافيةٌ شمولٌ (١)
يطوف بكأسها ساقٍ أريبُ

الى أن يقول :

فأين البدوُ من إيوان كسري وأين من الميادين الدروبُ

والشاعر فى هذا جميعه شديد الوطأة ، عارم الجراة ، مستجمع الحملة . وبعض هذه القصائد والمقطعات لا يخلو من اشارات عابثة فكهة الى بعض المشهورات من الشعر القديم وخاصة المعلقات ، كالاشارة الى مطلع امرىء القيس فى معلقته « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وأمثاله ــ وهى اشارة اصلح ما يقال فيها انها أشبه شيء بنكات الظراف المتحضرين من أبناء البلد عندنا

قل لمن يبكي على رسم دَرَسْ واقفاً ، ماضرّ لو كان جلس ؟

التجديد فى العشق والغزل

ومن طريف ما يأخذه أبو نواس على البدو ويذكره لهم فى جملة معايبهم ، ما كان من جهلهم لهوى الغلمان وتعشق الجنس لجنسه وعدم فطنتهم للغزل بالمذكر ، وذلك فى قصيدة مطولة يذم فيها الاعراب ويعرض بعشقهم ويزرى بعشاقهم المشهورين أمثال المرقش وعبد الله بن عجلان ، وفى ختامها يقول :

أما والله لا أشراً (٢) حلفتُ به ولا بطرا
لو أن مرقشاً حيّ تعلق قلبه ذَكَرا
كأن ثيابه أطلعـ ن من أزراره قمرا

(١) الشمول من أسماء الخمر (٢) الاشر : فرط المراح

ومرّ يريد ديوانَ ال   خراج مضمخاً عطرا
بوجهٍ سابريّ[1] لو   تصوّب ماؤه قطرا
وعينٍ خالط التفتيرُ   فى أجفانهـا حوَرا
وقد خطت حواضنهُ   له من عنبرٍ طُررَا
يزيدك وجهـه حسناً   إذا ما زدته نظرا

ومهما قيل من أن صـاحبنا انما كان فى وصف اللذة والخمر تجديده جميعه ، فان صدقه فى الترجمة عن نفسه وتصوير بعض نواحى عصره لا شك أنه شفيعه

خلفاء بنى العباس ومذاهبهم فى الفن واللهو

ولقد كان الذى اجتذب أبا نواس الى بغـداد وأخطرها بذهنه،هو بعينه الذى اجتذب سائر أهل الفن والادب اليها منذ ابتداء عصر المهدى . فقد كانت أيام أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور أيام تأسيس للملك وارساء لقواعده ، بالقضاء على الامويين الاعداء ، والضرب على أيدى الطامعين من الاولياء ، فلما أن فرغ القوم من تمكين ملكهم وتأمينـه طلبوا الراحة وانبسطت نفوسـهم للهو . واللهو فى ذلك الحين حاضر قريب ، شديد السحر والفتون ، بما دخل عليه من فنون الفرس والروم

فى خلافة المهدى

فاذا الخليفة الذى عهدناه فى شخص السفاح والمنصـور متشددا مقتصدا مؤثرا للجد منصرفا الى مجالس العلم ، قد بدأ فى شخص المهـدى يتفرج ويستمتع بشىء من اللهو ، وينفق المال على الملهين والمنادمين ، ويسمع المغنين جميعا ،

---

(١) الثوب السابرى : هو الرقيق الناعم

وكانوا فى أول أمره يغنونه من وراء ستارة ، فلم يدم احتجابه هذا عن ندمائه أكثر من سنة ، ثم صار يخرج لهم، ومن قوله فى ذلك « انما اللذة فى مشاهدة السرور والدنو ممن سرنى ، فأما من وراء وراء فما خيرها ولذتها ؟ »·وكان أصحابه يشربون النبيذ عنده بحيث يراهم ، وهو لا يشربه لا تحرجا بل لانه لا يشتهيه · وأما هواه فكان بالنساء ، وكان أحب شيء اليه الخوض مع خاصة ندمائه فى الحديث عنهن وذكر الخلوة بهن ، وكان كثير التسرى والولوع باقتناء الجوارى · وكان بطبيعة حبه للنساء والغناء قد أغرم الغرام كله بالقيان ، فكان يشتريهن ويغالى بهن ، وله فى الجوارى والقيان أخبار وأشعار

وسواء أصح نظم المهدى لهذه الاشعار أو لبعضها أم لم تصح له كلها ، فانه كان يهتز للشعر ويجزل العطايا للشعراء · فكثر منذ عهده وفودهم على بغداد من كل صوب، من البادية ومن مكة والحجاز ومن البصرة والكوفة وغيرها · واجتمع ببابه نفر غير قليل ، نذكر منهم محمد بن المولى وعبد الله بن الخياط وبشار بن برد وأبا العتاهية وأشجع السلمي ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر · ويكفى فى الدلالة على ما وقع للفن من حظوة ، وما انفتح لاهله فى ذلك العهد من آفاق ، وما در عليهم من الارزاق ، أن نذكر ما كان عليه حال الشعراء ورجال الادب قبله·فقد روى لنا الراوون أن قد اجتمع مطيع بن اياس وحماد عجرد ويحيى بن زياد يوما فى أيام المنصور العباسي ، فتذاكروا أيام بنى أمية وسعتها ونضرتها وكثرة ما أفادوا فيها وحسن ملكتهم وطيب دارهم بالشام ، وعرضوا على جهة المقابلة ما هم فيه ببغداد من القحط وشدة الحر وخشونة العيش ، وشكوا الفقر فأكثروا ، وقال فى ذلك مطيع بن اياس :

حبذا عيشنا الذى زال عنا   حبذا ذاك ، ثم لاحبذا ذا

زاد هـذا الزمان عسراً وشراً عندنا إذ أحلنـا بغـداذا
بلدة تمطر الترابَ على النا س كما تمطر السماءُ الرذاذا
خربت عاجلا، وأخرب ذو العر ش بأعمـال أهلهـا كلواذا

ولقد انقطع أبو دلامة الشاعر الاسود الكوفى للخليفتين أبى العباس السفاح والمنصور ، وكانا يقدمانه ويستطيبان مجالسته ونوادره، فلم يبلغا فى عطائهما ما فيه غناء ومقنع، حتى قال أبو دلامة حين أحدث المنصور لبس القلانس الطوال كلمته الشاكية المتهكمة :

وكنا نرجى من إمام زيادة فجاد بطولٍ زاده فى القلانس!

ولما أن أنفذ الخليفة عزمه فى قائد الثورة العباسية الاكبر أبى مسلم الخراسانى فقتله ، أنشد الشاعر الخليفة فى محفل من الناس قصيدة عصماء ، فقال الخليفة مظهرا فى هـذه المناسبة غاية التطول والانعام ، متعمدا اشـعار القوم بما للخلافة من عظمة وسعة ومقدرة : «احتكم» • فقال الشاعر: « عشرة آلاف درهم » ، فأمر له بها • فلما انصرف النـاس وخلا به قال : « ايه ، أما والله لو تعديتها لقتلتك »

ولقد استقل المهدى نفسه وهو ولى للعهد عطاء المنصور لابراهيم بن هرمة حين أنشده قصيدته اللامية التى مدحه بها فكلمه فى ذلك : « يا أمير المؤمنين ! قد تكلف فى سفره اليك نحوها » • ومهما يكن من احتجاج المنصـور لذلك ، فالذى لا خلاف فيه أن القصد كان من شيمته وفى طباعه

حتى اذا كان عهد المهدى خرجت حياة الفن من الضيق الى السعة • اذ كان الخليفة مبسوط اليد مبـذول العطاء ، لا يفتأ يتسخى على أصحابه ومناديمه ووفوده من أهل الادب والشعر ، فيأمر لهم بالخلع الفاخـرة والمراكب الفارهة ، وبالجوائز المضاعفة تبلغ عشرات الالوف من الدراهم تحمل

الى منازلهم معجلة ، مما لم يسبق لغيره أن بلغ مبلغه • وفى ذلك قال مروان بن أبى حفصة الشاعر :

بسبعين ألفاً راشنى من حبائه

وما نالها فى الناس من شاعر قبلى

وقد بلغ ما أفاده الشعراء من بسطة الحال وسعه الرزق أن كان سلم الخاسر يأتى باب الخليفة على البرذون الفاره قيمته عشرة آلاف درهم بسرج ولجام مفضضين ، ولباسه الخز والوشي وما أشبه ذلك من الثياب الغالية الاثمان ، ورائحة المسك والطيب والغالية تفوح منه

ثم ان المهدى لم يكن يقصر العطاء على مادحيه من طلاب الخير المتكسبين بالشعر ، بل كان يسنى الجوائز ويجزل النفحات لاهل الفن ، حبا فى الفن • ومن ذلك ما يرويه حماد الراوية من أنه دخل على المهدى يوما فقال له : « أنشدنى أحسن أبيات قيلت فى السكر ولك عشرة آلاف درهم ، وخلعتان من كسوة الشتاء والصيف» فأنشده حماد أبياتاً للأخطل • فقال له : « أحسنت » وأمر له بما شرطه ووعد به • فاذا ذكرنا أن المهدى لم يكن صاحب شراب ، عرفنا مبلغ ما كان عليه من الشعور بجمال الفن فى ذاته

فى خلافة الرشيد

فلا عجب اذا رأينا شاعرنا أبا نواس وقد أتم علمه واستوفى فنه وزادت على الثلاثين سنه ، يبادر الى بغداد عروس المدائن وحضرة الخلفاء ، ليحظى فيها بما حظى به الشعراء • واذا كان قد فاته عطاء المهدى ، فلا يفوتنه عطاء ولده الخليفة الاشهر هارون الرشيد•وما حل الفتى البصرى مدينةبغداد ورأت عيناه عظم أبهتها وكثرةعمارتها وانصباب الدنيا فيها وما يتوافر بها من أسباب النعيم واللذة لمن

اسعده الحال وأمكنه المال ، حتى حز فى قلبه الحرمان وتمنى ان يكون له شأن غير هذا الشأن. وتلفت حواليه فاذا بجانب هذا الثراء الطائل والنعمة السابغة ألوف من الفقراء وذوى الحاجة ظاهرى الخصاصة وضعف المقدرة ، وقد ضاق بهم العيش فى هذه الجنة الناضرة الزاهرة

عند ذلك أدركت هذا الفتى الماجن عزة النفس ونزت فى رأسه سورة الأنفة ، وعصفت فى صدره ثورة منكرة ، فهو لن يرضى لنفسه هذا الهوان ولن يصبر على هذا الظلم والحرمان ، وهو مجمع عزمه على طلب نصيبه من الدنيا وحظه من اللذة، ولو تأدى به الامر الى الخروج على السلطان والتمرد على النظام :

سأبغى الغنى ، إما جليسَ خليفةٍ

يقوم سواء ، أو مخيفَ[1] سبيلِ

بكل فتىً لا يُستطار جنانه إذا نوه الزحفان[2] باسم قتيل

لنخمس[3] مالَ الله من كل فاجر

أخى بِطنة للطيباتِ أكول

الوزراء البرامكة

ولقد كانت أمور الخليفة كلها فى ذلك الحين الى وزرائه البرامكة ، أمنائه على الدولة والمفوضين منه على مصالحها ، يستعملون ويعزلون من شاءوا ، ويرفعون ويخفضون من رأوا ، ويفرضون من الحقوق ويسقطون ، ويحكمون فى كل شأن بما يرتضون . وهم أهل لجميع ذلك ، بما كان لأبيهم من الرأى وحسن التدبير ، وما أوتوه عنه من ارتياض على

---

(١) قاطع طريق (٢) الجيشان زحف احدهما الى الآخر
(٣) نأخذ خمس المال

حسن السياسة ، ومصانعة الحوادث والناس. وكانت دورهم بالشماسية ــ فى الموضع المعروف بسويقة خالد ــ مناط الآمال ومحط الرحال لطلاب المعالى والاقدار الرفيعة من ذوى الطموح والهمة ، كما كانت سوق العلم لديهم قائمة نافقة ، وبضاعة الادب عندهم رائجة رابحة . ومن ثمة أقبل أبو نواس من أول الامر عليهم ، ليملأ يديه من نوالهم الذى غمر شعراءهم ، وليكونوا له الى الخليفة سببا

الشيخ يحيى البرمكى

فنظم شاعرنا فى كبيرهم يحيى بن خالد البرمكى الوزير الاكبر ، أكمل أهل زمانه معرفة وأدبا ، وأحكمهم سياسة ورأيا مع الجود وسجاحة الخلق وشرف الخلال ، أشعارا قصارا على نحو ما كان ينظم المتصلون ببابهم لانتجاع فضلهم :

سألت الندى: «هل أنت حرٌّ ؟» فقال «لا ،
ولكننى عبدٌ ليحيى بن خالد »

فقلت : « شراءً ؟ » قال: « لا ، بل وراثةً
توارثنى عن والد بعد والد »

ولعل الشاعر قد ذكر نسبه الفارسى ، وتحركت فيه نزعته الأعجمية ، وهو يخاطب الشيخ البرمكي العظيم الهيبة الذى ينمى الى بيت من أمجد البيوت الكسروية ، وينتسب الى سدنة النوبهار المعظم بين المعابد الفارسية، فنظم قصيدته البائية التى مرت بالقارىء ومطلعها :

لا أحط الحزام طوعاً عن المحـ ـذوف[1] دون ابن خالد الوهّاب

وكلها رموز واشارات يستحبها الفرس لانهم أصحاب

---

(1) الزق

نجوم . وكان يحيى بن خالد أعلم الناس بها

على أن الشيخ البرمكى فى وقاره وسنه المتقدمة كان بعيداً عن منادمة الخلعاء أمثال أبى نواس . وكان أميل الى الاجتماع بأهل البحث والنظر من متكلمى الاسلام وغيرهم من أهل الآراء والنحل

الفضل بن يحيى البرمكى

وكان الذى ينوب عن يحيى فى جلائل الاعمال ولده « الفضل » ، والناس يسمونه من أجل ذلك « الوزير الصغير » . وكان الابن لأبيه ، رجل همة وجد وكفاية ونزاهة ، الا أن فيه كبرا شديدا يظهر عبوسة فى وجهه وخيلاء فى مشيته . ولكنه كان عظيم السخاء ، واسع العطاء . فكان الذين يجتمعون ببابه من الشعراء عددا كبيرا حتى قال بعضهم :

ما لقينا من جود « فضل بن يحيى »   جعل الناس كلهم شعراء

وكان أبو نواس فى جملة الشعراء الذين قصدوا اليه بمدحهم ، وكان بين هؤلاء من انقطعوا لذلك واختصوا به ، فلم يكن يدرك فى هذا الباب شأوهم ويلحق بآثارهم . ولقد أنشده أبو نواس يوما قصيدة قدم لها بالنسيب على عادة الشعراء المادحين فقال أبياتا مطلعها :

ذكرتم من الترحال أمراً فغمنا   فلو قد فعلتم صبح الموتُ بعضنا

وأصغى الفضل ، وكان ذا بصر بالشعر . فلما انتقل الشاعر من النسيب الى المديح وقال فى تخلصه :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد

هواكم لعل الفضل يجمع بيننا

تململ الامير وهمهم معقبا عليه « ما زدت على أن تجعلنى قوادا ! »

فبهت الشاعر ، وانفتحت عينه على سقطته التى أعماه عنها ما تعوده من الانطلاق وقلة التحرج · ثم استدرك ملتمسا المخرج : « أصلح الله الامير ! انه جمع تفضل ، لا جمع توصل »

وأبدى الامير الموافقة · ومضى الشاعر فى مديحه · فأمر له الفضل بخمسماية دينار · وانصرف أبو نواس ، ونفسه غير طيبة لا باللقاء ، ولا بالعطاء ، فقد كانت عطايا البرامكة لغيره أكثر · وكان الغالب على الفضل بن يحيى من الشعراء سلم الخاسر ، أو الرابح كما كان يحب أن يسميه · وقد كثرت مدائح هذا الشاعر فيه وعظم احسان الفضل اليه حتى قال أبو العتاهية :

إنما « الفضلُ » لـ « سَلمٍ » وحدَه

ليس فيه لسوى « سَلمٍ » دَرَكْ

وكان الخليفة الرشيد يعرف للفضل بلاءه وحسن سياسته منذ أن ندبه لقتال يحيى بن عبد الله العلوى الذى اعتصم فى بلاد الديلم وأعلن خروجه على الخليفة واشتدت شوكته· فاستنزله الفضل من معقله من غير اراقة للدماء ، آخذا فى ذلك بسياسة بنى برمك التقليدية · وهى سياسة تهدئة وتلطيف لحدة الخلاف بين عنصرى بنى هاشم : العباسيين والعلويين · وقد أشار الى هذا المعنى شعراؤهم فقال مروان ابن أبى حفصة يمدح الفضل :

ظفرتَ ، فلا شُلت يدٌ برمكية

رتقتَ بها الفتق الذى بين هاشم

وقال غيره فى هذه المناسبة نفسها :

عصمت حكومتُه جماعةَ هاشم من أن يجرّد بينها سيفان

وكان من معرفة الخليفة لمقدرته على حسم الفتن وضبط

الامور أن قلده المشرق كله من النهروان الى أقصى بلاد الترك. وشخص الفضل الى عمله فى سنة ١٧٨ وودعه الرشيد والاشراف والوجوه وساروا معه ، ومدحه الشعراء فوصل وأعطي وأفضل . وبلغ ما أجاز به الشاعر مروان بن أبى حفصة مئة ألف درهم غير ما وهبه من دابة فارهة ، وكسوة فاخرة ، وجارية كاسية حالية . ولبث الفضل فى خراسان عاما وبعض عام أصلح فيها الامور ، وأزال عقابيل الجور ، وبنى الحياض والمساجد والرباطات ، وفرق فى الناس الأموال ، وارضى الجند والقواد بالأعطيات وأخذ البيعة بولاية العهد لمحمد الأمين ثم انصرف فى آخر ١٧٩ هـ عن خراسان الى العراق . فتلقاه الرشيد لما ورد ببستان أبى جعفر ، وجمع له الناس وأكرمه غاية الاكرام . وأمر الخليفة الخطباء بذكر « الفضل » والتنويه بمحامده ، وأمر الشعراء بمدحه فكثر المادحون له . ولم يدع شاعرنا أبو نواس هذه الفرصة ليظفر بالعطايا والهبات ينفقها فى حاجاته وملذاته. فاشترك فى المديح مع الشعراء ، وألقى ‌‌ وه فى الدلاء . ورأى الفضل أن يكون جزاء هؤلاء على قدر استحقاقاتهم وموضعهم من الاحسان والاجادة . فأمر أحمد بن سبار الجرجانى أن يميز أشعار الشعراء ، فمشى اليه جماعة منهم داود بن رزين الواسطى ومسلم بن الوليد وأبان اللاحقى، وأشجع السلمى ، فسألوه أن يضع من شعر أبى نواس ولا يلحقه بنظرائه منهم . فلما أن عرض أبو نواس شعره على الجرجانى ، رمى به وقال : « هذا لا يستحق قائله درهمين » فهجاه ابو نواس :

بما أهجوك ؟ لا أدرى ... لسانى فيك لا يجرى
إذا فكرت فى قدر ... ك أشفقتُ على شِعرى

واتصل الخبر بالفضل فأبى طبعه هذا الاسفاف فى

الخصومة ومجافاة الحق في الحكومة ، وصرف الجرجاني عن تمييز الشعر ، ووصل أبا نواس وأرضاه

وكان للفضل أحيانا طرب الى المذاكرة في الادب ، وكان يدعو اليه الرواة والشعراء في بهو له قد فرش كله بالسمور. وهو في صدر المجلس ، وعليه دواج (١) سمور ، وبين يديه كانون من فضة في وسطه أثفية (٢) من ذهب ، وعلى الاثفية قدر تحته العود المندلي . وأمامه صينية من فضة ، على أسد رابض من فضة ، وعيناه ياقوتتان حمراوان ، والصينية والاسد قطعة واحدة . وفي الصينية ابريق زجاج فرعوني ، لا يبلغ حسن فنه وصف ولا يفي بقدره ثمن ، والى جنبه كأس تسع رطلا . ويقف على القدر خادم فزري ، والخدم خارج البهو جلوس . ولقد حضر الاصمعي امام اللغة وراوية العرب مجلس الفضل وصوره لنا على عادته تصويرا دقيقا مفصلا . فوصف لنا ما أمر به الامير له من خلعة كاملة من جبة وكساء بحواشيه وجوارب ، وكلها خز مبطن بسمور . ثم انتقل الى خوانه فوصف الرقاقات وألوان الاطعمة في صحاف الفضة وبخاصة ما قدم اليه من طعام طيب المذاق في جام فضة خسروانية وقد نثر عليه السكر ، وأغلب الظن عنده وان لم يحققه انه كان مخ خصيان الضأن الذى يذبح في مطبخ الامير كل يوم . وبعد أن تملأ الاصمعي من المأكل ورفع الخوان جاءه الطست فأعطي أربعة أصناف من الاشنان ، فلما مسح يديه جاءه خادم بيده ملعقة مملوءة غالية فتغلف بها . ثم أن الفضل أخذ الكأس بيده فصب فيها من النبيذ قدر ثلثيها ثم ملأها بالماء وشرب . ثم صب مثل ذلك للاصمعي ، فبدره وصيف ، فقال الامير : « تنح ، هذا يوم منادمة الأدب » وأراد الاصمعي أن يستهل المنادمة بأبيات

---

(١) ثياب من فرو الحيوان المعروف بالسمور

(٢) الاثفية الحجر توضع عليه القدر ، وقد كان من الذهب في مجلس الفضل

فى الشراب لأبى نواس فقال : « جعلت فداك . قال الشويعر ... » فلما علم الامير أنه يعنى أبا نواس،راجعه: « بل قل الشاعر الذى قلما طلب فكره القوافى » يعنى أنها تأتى طائعة اليه ، ثم عقب على ما أنشده الاصمعى من خمرياته بقوله : « لله دره ، ما أبينه لدر الوصف ، فى هذا الشعر وغيره . وان كان فتح له الباب ورسم له الوصف ، لقد أحسن الاشتقاق . ودرر معانيه فى هذا الباب كثيرة ، وان كنت أكره أن أشتغل به عما أنا اليه أميل » . ثم قال : « والله لولا أن مجالسته سخف يسب به عند العامة لكان ثالثنا فى هذا اليوم.ولقد كنت على بر له ، فحالت بين ذلك الاشغال من يوم نادانى مطلقا من رسيس الهوى الذى يجده فى حب جنان فقال :

سأشكو الى الفضل بن يحيى بن خالد

هواك لعل الفضل يجمع بيننا »

وهزت الاريحية الامير الجواد عند ذكره الشاعر فنادى : « يا غلام ! على بمنصور الخازن » فلما وقف بين يديه قال : « ابعث الى الحسن بن هانى بمنديل فيه خمسة آلاف درهم» وكان أبو نواس لا يجد عوضا عن عطاء الفضل بن يحيى البرمكى ، فهو ما برح أكرم بنى برمك أجمعين. والبرامكة كانوا وقتئذ أكثر عطاء من الخليفة نفسه لاستبدادهم بالملك، واحتجانهم للاموال . وكانت قصورهم تناصى قصوره فى الجانب الآخر من الدجلة وهى تعج من صهيل الخيول وازدحام الناس . فلا عجب اذا مضى الشاعر على سنته من مدح الفضل البرمكى مع ما كان من بوادر التغير على البرامكة حتى كانت نكبتهم فى سنة ١٨٧ هـ . وكان آخر ما مدحه به قصيدة وضعها بمناسبة الدار الباذخة البنيان التى استفرغ الفضل مجهوده فى بنائها ، وانتقل اليها فى ذلك الحين أو قريبا منه ، فقال أبو نواس فى مطلعها :

أرَبَّعَ البلى إن الخشوع لبادٍ   عليك وإنى لم أخنك ودادى

ولما سمع الفضل هذا المطلع الموحش الحزين انقبض قلبه، فلما انتهى الشاعر الى قوله :

سلام على الدنيا إذا ما فقدتمو   بنى برمك من رائحين وغاد

تطير الأمير البرمكى منه واشمأز حتى كلح ، وظهرت الوجمة عليه . ثم قال : « نعيت الينا أنفسنا أبا نواس ». ولقد صحت الطيرة فما كانت الا مديدة ، لا تجاوز الاسبوع فى قول بعضهم ، حتى أوقع الرشيد بالبرامكة

جعفر البرمكى

ولقد كان أبو نواس فى أول أمره يؤمل أن يكون أنفق بضاعة عند جعفر البرمكى منه عند أخيه ، لما كان عليه الفضل من الانصراف للمهم، وايثار الجد وقلة ولعه بالشراب حتى كان يقول : «لو علمت الماء ينقص من مروءتى ما شربته أبدا » وأما جعفر فقد كانت فى أخلاقه سهولة، وكان طروب النفس طلق الوجه ظاهر البشر ، مقبلا على متعة الحياة يهوى السماع ، ويلذ مجلس الشراب مع حضور البديهة وخفة الروح والفصاحة واللسن ، يجمع الهدو والتمهل والجزالة والحلاوة . وكان لا يخلو بمنزله يوما الا ويهيىء له مجلس الشراب ، فيلبس الحرير ويتضمخ بالخلوق ، ويحضر ندماءه الذين يأنس بهم ، فيجلس اليهم وقد لبسوا للشراب واللهو الثياب المعصفرة حمرا وصفرا وخضرا . فيقضون ليلتهم يسمرون ، وقد دارت الكاسات وخفقت العيدان . وكان الخليفة أكثر ما يكون أنسا بجعفر ، ويستوحش لغيابه حتى لم يكن يصبر عنه ولا يطيب له مجلس بغير محضره ولا يتم له السرور بدونه ، وقد جعل اليه أمر داره ليكون له ألزم ندماه وسماره . وكان الفضل رضيع الرشيد، ومع

ذلك كان الرشيد يسمي جعفرا « أخي » من دونه ، ويدخله معه فى ثوبه . وقد بلغ من حبه له أن صير له خاتم الدولة وكان الى الفضل . وكان جعفر يساعد الرشيد على كل شيء . حتى كان أبوه يحيى الشيخ الحكيم المجرب يعتب على جعفر دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه ، ويتخوف عليه من عاقبته

وليس أبلغ دلالة على ما كان لجعفر من الدالة على الرشيد والتمكن عنده والغلبة على امره من قضائه — وهو فى مجلس المنادمة خاليا فى بيته بين شرابه وندمائه وقيانه — فى امور تخص الخليفة فى أهله وحرمه ، قضاء المستيقن الواثق من مكانته ، المتحقق الا تخالف له رغبة ولا ترد له كلمة

حكى ابراهيم بن المهدى :

استاذن جعفر ذات يوم أمير المؤمنين فى الخلوة غدا . ودعانى وخاصة ندمائه للبكور اليه فاتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه . فقدمت الينا موائد الأطعمة عليها من افخر الطعام واطيبه ، فلما فرغنا من الأكل وغسلنا أيدينا ، خلعت علينا ثياب المنادمة وضمخنا بالخلوق ، وانتقلنا الى مجلس الطرب . ومدت الستائر ، وغنت من ورائها القينات أعذب الغناء ، فظللنا بأنعم يوم . وبلغ من مداخلة الطرب جعفرا أن دعا بالحاجب وقال له : « ان أتى أحد يطلبنا ، فاذن له ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه ! » . فاتفق بالامر المقدر أن عم الرشيد « عبد الملك بن صالح » قدم بالفعل علينا فى ذلك الوقت . وكان صاحب جلالة وهيبة ورفعة ، وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه ، حتى كان الرشيد اذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه . فلما قدم الامير الشيخ الجليل ، دخل به الحاجب علينا ، فلما رأيناه رمينا ما فى أيدينا ، وقمنا

اجلالا له نقبل يده ، وقد ارتعنا وخجلنا وزاد بنا الحياء . فقال الشيخ : « لا بأس عليكم ، كونوا على ما أنتم عليه » . ثم صاح بغلام فدفع له بردائه ، ثم أقبل علينا ، وقال : « اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم » فما كان أسرع أن طرحنا عليه ثياب خز معلم ، وقدمنا اليه موائد الطعام والشراب . فطعم وشرب الشراب لساعته . ثم قال : « خففوا عنى ، فانه شىء والله ما فعلته قط » . فتهلل وجه جعفر . ثم التفت الى عبد الملك فقال له : « جعلت فداءك ، قد علوت علينا وتفضلت ، فهل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى ، فأقضيها لك مكافأة على ما صنعت ؟ » قال : « بلى ، ان فى قلب أمير المؤمنين بعض تغير على ، فتسأله الرضي عنى » فقال جعفر : « قد رضى عنك أمير المؤمنين » . قال : « وعلى عشرة آلاف دينار » فقال جعفر : « هى حاضرة لك من مالى ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » . قال : « وأريد ان أشد ظهر ابنى ابراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين » . قال جعفر : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » . قال : « وأحب أن تخفق الألوية على رأسه » . قال جعفر : « وقد ولاه أمير المؤمنين مصر » . فانصرف عبد الملك بن صالح ، وبقيت متعجبا من اقدام جعفر على ذلك من غير استئذان ، وقلت فى نفسى : « عسى أن يجيبه أمير المؤمنين الى ما سأله من الولاية والمال والرضا عنه ، الا المصاهرة »

فلما كان من الغد ، بكرت الى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم . فدخل جعفر ، فلم يلبث أن دعا بأبى يوسف القاضى ثم بابراهيم بن عبد الملك بن صالح . وبعد هنيهة خرج ابراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد ، وعقد له على مصر والرايات والألوية تخفق على رأسه . وخرج كل من فى القصر معه الى بيت عبد الملك بن صالح

وبعد ذلك خرج الينا جعفر، وقال : « أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح ، وأحببتم سماع ذلك » . قلنا : « هو كما ظننت » . قال :

« لما دخلت على أمير المؤمنين ، ومثلت بين يديه ، قال : « كيف كان يومك يا جعفر بالأمس ؟ » . فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك بن صالح . فكان أمير المؤمنين متكئا ، فاستوى جالسا ، وقال : « لله أبوك ! ما سألك ؟ » . قلت : « سألني رضاك عنه يا أمير المؤمنين » قال : « بم أجبته ؟ » قلت : « قد رضي عنك أمير المؤمنين» قال : « قد رضيت عنه ، ثم ماذا ؟ » قلت : « وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار » قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد قضاها عنك أمير المؤمنين » . قال : « وقد قضيتها عنه ، ثم ماذا ؟ » . قلت : « ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده ابراهيم بمصاهرة منه » . قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » . قال : « قد أجبته الى ذلك . ثم ماذا قلت ؟ » . قلت : « وقال احب أن تخفق الألوية على رأسه » . قال : « فبم أجبته ؟ » . قلت : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . قال : « قد وليته اياها » ثم نجز له جميع ذلك من ساعته

وهذه الحظوة التى كانت لجعفر عند الخليفة والتى انفرد بها ولم يشاركه أحد فيها جعلت الشعراء يتملقونه ويزجون اليه المديح مع قلة سخائه وقصور عطائه عن أبيه وأخيه ، حتى أن الشاعر أبان اللاحقى حين جعل للبرامكة كتاب « كليلة ودمنة » شعرا كما نظمه الفرس قبلا ليسهل حفظه ، وأوله :

هذا كتاب أدب ومحنه ... وهو الذى يدعى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رشد ... وهو كتاب وضعته الهند

أعطاه الشيخ يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه الفضل خمسة الاف دينار ولم يعطه جعفر شيئا وقال : « الا يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك »

ولقد مدح ابو نواس الامير جعفرا البرمكى فيمن مدحوه ونحن لا نجد أثرا لذلك فى باب المديح من ديوانه وانما نستدل عليه من الأهاجى التى قالها فيه وهى فى باب الهجاء كثيرة شديدة البذاء . فهذه الأهاجى صريحة الدلالة على سابقة مدحه له على وجه قاطع للشك لا تعترض فيه أدنى شبهة :

« لقيت فتى ضمّنته الطريق ونحن ضحى نقصد العسكرا
فقال ـ وأزكننى شاعراً وأزكنته فطناً مُمكراً : (١)
« أتنشدنى بعض ما صغته ولا تدع الأجودَ الأفخرا »
فأنشدته مدحى البرمكى أبا الفضل أعنى الفتى جعفرا
فأعجبنى ظرفه إذ يقول : « مديحك درٌّ ، فهل درَّ را؟ »

ونمسك عن البيتين التاليين لما فيهما من اقذاع فى الهجاء . . وكذلك كان بعض الأهاجى صريح الدلالة على أن النواسى نادم الامير جعفرا فى جملة من كانوا ينادمونه فى بعض مجالس شرابه التى تقدمت الاشارة اليها

ونحن نتمثل من الأبيات التالية ما كان عليه جعفر من فورة الطبع ودفعة الحيوية ، ونحسبهما من دواعى انجذاب الرشيد اليه لمدافعتهما الفتور والملل . ولايبعد أن تلك الفورة الطبيعية والدفعة الحيوية من جعفر كانتا تخرجان به ـ فى غير حضرة الخليفة ـ الى شيء من العربدة عند الشراب ، ولا غرو أن بالغ فى صفتها الشاعر فى معرض الهجاء :

---

(١) المنكر : الداهية

مافى النبيذ مع المربد لذة وابن ليحيى لاطمٌ بيدين
ريحانه بدم الشجاع ملطخٌ وتحية الندمان قلع العين
لاتشربنّ وجعفراً في مجلس أبداً ، ولا تحمل دم الأخوين

ثم في هذه الأهاجي ينعى الشاعر على جعفر بخله وامساك يده :

أرى جعفراً يزداد بخلا ودقة إذا زاده الرحمن فى سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر لما وضعه الناس إلا على حمق

وفى قصيدة اخرى :

قالوا : « امتدحت ، فماذا اعتضت ؟ » . قلت لهم :
« خرق النعال وإبلاء السرابيل »
قالوا : « فسم لنا هذا » . فقلت لهم :
« وصفى له يعدل التصريح فى القيل
ذاك الوزير الذى طالت علاوته (١)
كأنه ناظر فى السيف بالطول »

وقد اكتفى الشاعر فى هذه الأبيات فى هجائه لجعفر بوصفه دون تسميته . وذلك أن جعفرا كان طويل العنق ، وهو أول من عرض الجربانات وحشاها بالقطن يريد بتعريضها مداراة ما هو ملحوظ من استطالة قفاه ، وما زال الناس بعده ينسبونها الى ابن برمك ، فيقولون جربانات برمكية

وكان جعفر لا يقف عند قبض يده عن عطاء الشاعر بل

(١) العلاوة : اعلى العنق

كان اذا امتدح الشاعر أباه يحيى فأراد أن يجزل عطيته اعترض دونه فأعطاه يحيى دون ما قدر

ولم يملك أبو نواس فى موجدته على جعفر الا أن يفكر فى الاساءة الى موضعه عند الخليفة بتقبيح صورته وتهجينه فى عينه فاجترأ على اظهار التعجب من ايثار الخليفة له واتخاذه لمجلسه واختصاصه بأنسه . وكاد أن يتهم الخليفة فى حسن ذوقه ولطافة حسه :

عجبت لهرون الامام وما الذى
يود ويرجو فيك ياخلقة السلق(١)

قفاً خلف وجه قد أطيل كأنه
قفا مالك يقضى الهموم على ثبق (٢)

ونحن اذا كنا كررنا هنا ما أسلفناه من أن جعفرا كان متمكنا عند الرشيد ، غالبا على امره ، واصلا منه ، بالغا من علو المرتبة لديه ما لم يبلغه سواه ، بحيث كان اذا انصرف عن مجلسه خرج الرشيد معه حتى يركب مشيعا له لشدة كلفه به وكرهه لمفارقته ، فذلك أننا نجد فى هذه الغلبة علة من العلل وطرفا من الملابسات التى لم يتيسر معها لأبى نواس فى ذلك العهد حسن الوصلة الى الخليفة هرون . وما نحسب هنالك تصويرا لمبلغ ما كان يتكلفه جعفر من الكيد واللجاجة فى المماراة ، لمدافعة الشاعر عن الحضرة وصرف الخليفة عن تقديره ، من هذا الحديث الذى رواه اسحق الموصلى فى قوله : « دخلت الى الرشيد يوما وهو يخاطب جعفر بن يحيى بشىء لم أسمع ابتداءه ، وقد علا صوته . فلما رآنى مقبلا قال لجعفر بن يحيى : « أترضى باسحق ؟ » قال جعفر : « والله ما فى علمه مطعن ان أنصف »

---

(٢) السلق : الذئب

(١) الثبق سرعة الدمع

فقال لى الخليفة : « أى شىء تروى للشعراء المحدثين فى الخمر . أنشدنى من أفضل ما عندك وأشده تقدما » . فعلمت أنهما كانا يتماريان فى تقديم أبى نواس ، فعدلت عنه الى غيره لئلا أخالف أحدهما ، وأنشدت ابياتا لأشجع السلمى . فقال لى الرشيد : « قد عرفت تعصبك على أبى نواس ، وانك عدلت عنه متعمدا . ولقد أحسن أشجع ، ولكنه لا يقول أبدا مثل قول أبى نواس :

يا شقيق النفس من حكم نمتَ عن ليلى ولم أنم »

فقلت له : « ما علمت ما كنت فيه يا أمير المؤمنين ، وانما انشدت ما حضرنى » . فقال : « حسبك قد سمعت الجواب » وهذا الحديث قاطع فيما عرضنا له من تقرير الحال بين الشاعر وجعفر البرمكى

بين الحزبين الفارسى والعربى

ولقد كان للبرامكة خصم شديد عنيد فى شخص الفضل ابن الربيع . ولم يكن الفضل حديث عهد بالسّياسة ، فقد كان على حجابة الخليفة أبى جعفر المنصور حين كان أبوه الربيع بن يونس وزيرا له . ولكن الفضل كان مع ذلك عاجزا عن مزاحمة البرامكة لا يقوى عليهم فى حياة الخيزران أم الخليفة . والخيزران شخصية قوية كانت متسلطة فى دولة المهدى زوجها تأمر وتنهى وتشفع وتبرم وتنقض ، والمواكب تغدو وتروح الى بابها وكانت شديدة متجبرة ، حتى لقد شكا زوجها أنها غضبت يوما فوثبت عليه ومدت يدها اليه وخرقت ثوبه . ولما تولى ابنها موسى الهادى كان ــ على فظاظته وقسوته ــ كثير الطاعة لها ، مجيبا فيما تسأل من الحوائج للناس . فظلت المواكب لا تخلو من بابها . وكلمته ذات يوم فى أمر فلم يجد الى اجابتها فيه سبيلا . فاعتل ،

فأصرت ، فأقسم لا يقضينه لها ، فأقســـمت أن لا نسأله حاجة أبدا • ولم تكلمه بحلو ولا مر بعدها ، وانصرف قلبها بكليته الى ابنها الآخر هرون • فلما أراد الهادي أن يخلع أخاه هرون من ولاية العهــد ويجعلها لابنه جعفر ، جعل يحيى البرمكى ــ وكان القيم بأمر الرشيد ــ يعلله ويدافعه حتى حبسه الخليفة ، وأراد قتله ، لولا أن ثقلت العلة عـلى الخليفة قبل انفاذ نيته • ولقد أشار الى ذلك أبو نواس حين اشتدت به كراهة جعفر البرمكى وأعمته حتى كره البرامكة كلهم من أجله فعمهم بهجوه ، وراح يأسف على أن موسى الهادي فى نقمته على يحيى وهمه بقتله لم ينفذ فيهم جميعا عزمه

إنىَ لولا شــقاء جـــدّي مامات «موسى» كذا سريعا

ولا طوته المنون حتى أرى بنى برمك جميعـــا

قد رسم الله من مطاهم لشاطئىْ دجـلة الجـذوعا

هـذا زمان القرود فاخضع وكن لهم ســامعاً مطيعا

ولم ينس هرون ما كان من موقف يحيى منه وتعرضــه للهلكة فى سبيله • فلا عجب اذا رأينا يوم ولى الخلافة كيف وكل أمورها الى الشيخ الأمين قائلا له : « يا أبت ، أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك • وقد قلدتك أمر الرعية » . وعادت سلطة الخيزران الى حالها ، وكان يحيى يعرض على الخيزران ويورد ويصدر عن أمرها . وكانت الدواوين كلها الى يحيى ولم يلبث الا يســيرا حتى دفع اليــه الخليفة الشاب خاتم الخلافة . وكان الفضل بن الربيع اذا صار الى الشــيخ البرمكى فسأله حاجة يتقاعد عليه فيها • وظل الفضل وليس له شىء من نباهة الذكر لان الملكة الوالدة فى ايثارها للبرامكة كانت تعــارض فى كل

ما فيه علو أمره • فلما أن توفيت في سنة ١٧٣ هـ دعا به هرون الرشيد على الأثر فقل له : « وحق المهدى ، انى لأهم لك بالليل بالشيء من التولية وغيرها ، فتمنعني أمي ، فأطيع أمرها • فخذ الخاتم من جعفر » • وكان الخاتم وقتئذ بيد جعفر نيابة عن والده

ظهور نجم الفضل بن الربيع

وولى الفضل بن الربيع نفقات العامة والخاصة ، وولايات بادوريا والكوفة • فأقبلت حاله تنمى وجعل الفضل يعمل على الايقاع بالبرامكة ، وتحريك السعاة لهم ، وكانت له عيون عليهم من خاصة خدمهم ، حتى اذا أطلق جعفر البرمكى سبيل الثائر العلوى « يحيى بن عبد الله » وكان محبوساً عنده وقد خشى أن يرجع الخليفة فى أمانه له ، بادر الفضل الى رفع ذلك للرشيد فوقر فى نفس الخليفة شيء من ذلك ، وطافت بقلبه شبهة أن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته . على أنه لم يتعجل فى أمرهم . وانما جعله ذلك لا يقصر ثقته واعتماده عليهم دون غيرهم • فلم يأت عام ١٧٩ هـ حتى صرف الرشيد محمد بن خالد البرمكى عن حجابته وقلدها الفضل بن الربيع • ولقد اغتنم أبو نواس هذه المناسبة ليخطب وده ويعتاض من رفد جعفر رفده :

قولا لهرون إمام الهدى ... عند احتفال المجلس الحاشد
نصيحةُ « الفضل » وإشفاقُه ... أخلى له وجهك من حاسد
بصادق الطاعة ، ديانها ... وواحدِ الغائب والشاهد
أنت على ما بك من قدرة ... فلست مثلَ « الفضل » بالواجِد
أوجده الله فما مثله ... لطالب ذاك ولا ناشد
ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

ولقد اشتد النفور بين جعفر والفضل بن الربيع ولم يعد به خفاء حتى تنازعا يوما بحضرةالخليفة فقال جعفر للفضل: « يا لقيط » فقال الفضـــل : « اشهد يا أمير المؤمنين » . فساعفت جعفر فصاحته وبديهته فقال محتدما : « تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شـــاهدا ـ يا أمير المؤمنين ـ وأنت حاكم الحكام ؟ »

غير أن الرشيدكان قد تغير على البرامكة حتى عاد ما كان يجمل منهم في عينه قبيحا منكرا . فلم يعد اضـــطلاعهم بشؤون الدولة تخفيفا عنـــه وحملا للثقل دونه ، بل هو استبداد منهم بالامور دونه وامضاء لها على غير رأيه وعمل بما يحبونه لا بما يحبه.ولقد كثر دخول ابن الربيع عليه. فكان الطبيب جبريل بن بختيشوع صـــنيعة البرامكة اذا دخل على الخليفة وهو جالس فى مجلســـه على مشرعة باب خراسان فيما بين قصر الخلد والفرات يصيب الفضـــل بين يدى الرشيد ، والملكة زبيدة منوراء الستر ، يتكلمان بنحو من كلام الخليـــفة فى حق البرامكة . وكانت الملكة تثلبهم أكثر مما يثلب به أحد.ولعلها كانت تحقد عليهم ما أظهروه من الاهتمام الخفى بأخذ المواثيق علىابنها الامين بالوفاء لعهد الولاية منبعده للمأمون الابن الاكبرللرشيد من بعض الاماء الفارسيات . وما برح يستفحل الســعى والتدبير للايقاع بالبرامكة حتى جعلت تشيل كفتهم عند الرشـــيد وترجح حظوة الفضل بن الربيع . وكان الفضل حريصا على كسب الدعاة واصطناع الشعراء توقيا من خبث لسانهم واجتلابا لثنائهم وطيب ذكرهم له

وكان يتألف أبا نواس مع اتصـــاله بالبرامكة ويبره .

وكانت نكبة البرامكة وزوال دولتهم عام ١٨٧ ، اذ أمر الرشيد بقتل جعفر والقبض على يحيى وجميع ولدهومواليه ومن كان منهم بسبيل . وحبس الشيخ البرمكى وابنـــه الفضل فى سجن الرقة . وأخذ ما وجد لهم جميعا من مال

وضياع ومتاع • وما من شك في أن شاعرنا النواسي قد تأثر لنكبتهم لوفرة عطاء الفضل بن يحيى خاصة

ولما صارت الوزارة بعد نكبة البرامكة الى الفضل بن الربيع تهوس بالادب وجمع اليه أهل العلم ، فحصل منه ما أراد في مدة يسيرة • وكان الفضل يستقبل أهل الادب والشعر في مجلس طويل عريض فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقى اليها الا على درج وهو جالس عليها • فيسلمون عليه بالوزارة ، فيحسن الرد عليهم ويضحك اليهم ويستدنيهم حتى ليجلسهم اليه على فرشه • ثم يسألهم ويلطفهم ويباسطهم ويستنشدهم فاذا أنشدوه طرب وضحك وزاد نشاطه • ولقد تغاضى الفضل عن اتصال أبي نواس بالبرامكة فماكاد يأفل نجمهم وينطفيء قبسهم حتى احتضنه آل الربيع وخصوه جميعا بالرعاية • وأظهروا له المودة • فجعل اعتماده عليهم • ودام اتصاله ببابهم في خلافة الرشيد وخلافة الأمين • وله مدائح في الفضل بن الربيع وفي ولديه العباس ومحمد وفي أخيه جعفر ، أشهرها وأجودها عند نقاد العرب الأرجوزة البليغة التي مطلعها :

وبلدة فيها زوَر صعراء تخطى في صعر (١)

وقد جمع في بعض مديحه لهم ثلاثة أجيال منهم في هذه الابيات الثلاثة :

ساد الملوك ثلاثة مامنهم إن حصّلوا إلا أغرُّ َمريعُ

ساد « الرُبيعُ » وساد « فضل » بعده

وعلت « بعباس » الكريم فروع

(١) الزور الاعوجاج ، وصعراء مائلة . تخطى : تحمل على الخطو • والصعر الميل

« عباس » عباسٌ إذا احتدمَ الوغى
و «الفضل» فضلٌ و «الربيع» ربيع

فهو في سبيل مرضاة آل الربيع يذهب الى حد تلقيبهم بالملوك ، كما يقرنهم تارة الى البيت البرمكي معرضــا به ليجعلهم أرسخ أصلا وأبذخ مجدا ، كقوله في مدح العباس ابن الفضل بن الربيع :

جدّك يوم الحجون إذ قدحوا ... تَداركَ الملكَ من شفاً هارِ
تلك المعالى إن كنت مفتخراً ... لا شرفُ النوبهار والنار

على أنه في هذه القصيدة نفسها يظهرنا على حاله من الضر، فاذا هي من سوء أثر الفقر تبلغ الفقر المدقع وتتكشف عن دار بلقع :

الحمـد لله ليس لى نشَبٌ ... خفّ ظهرى وقلّ زوّارى
من نظرت عينه إلىّ فقد ... أحاط علماً بما حوت دارى

فلا غرو اذا رأيناه في أمثال هــذه الحالة يتذكر ما كان يغمره به البرمكي وابنه الفضل من مترادف النعم وجــزيل النوال ، وأن يبدومنه وقتئذ وهو يمر بدور آل الربيع وعلى بابهم المواكب والقصاد من أصحاب الحاجات :

ما رعى الدهر آلَ برمك لمـا ... أن رمى ملكَهم بأمر فظيع
إن دهراً لم يرعَ حقاً ليحيي ... غير راعٍ ذمامَ آل الربيـع

مع محمد بن مناذر

ولقــد حج الرشيد بعــد ايقاعه بالبرامكة ومعه وزيره الفضــل بن الربيع . وسعى فى ركاب الخليفة جماعة من الشعراء،وحسبنا أن نذكر منهم أبا نواس ومحمد بن مناذر

من المذكورين بالفسوق والمجون لنعلم أنه لم تكن بهم نية الحج ، ولكنها الفرصة سانحة لمديح الخليفة الحاج واحتقاب عطائه • وكان ابن مناذرقد هيأ في قوله مدحا أجاد تنميقه وتنوق فيه ، وكان الرشيد يسأل عنه ويطلبه ، وقد سبق أن وصله مرات على مدائحه صلات سنية • فلما كان يوم التروية دخل الشاعر على الخليفة ، فبدره الفضل بن الربيع قبل أن يتكلم فقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا شاعرالبرامكة ومادحهم » • وقد كان البشر ظاهراً في وجه الخليفة لما دخل الشاعر ، فتنكر وعبس في وجهه • وأضاف الفضل : « مره يا أمير المؤمنين أن ينشدك قوله فيهم : أتانا بنو الاملاك من آل برمك » ، فأمره الخليفة أن ينشد • فلما أبى • توعده وأكرهه • فأنشد الشاعر القصيدة ، ثم اتبع ذلك بقوله : « كانوا أولياءك يا أمير المؤمنين أيام مدحتهم ، وفي طاعتك، لم يلحقهم سخطك ولم تحلل بهم نقمتك • ولم أكن فيذلك مبتدعا ، ولا خلا أحد من نظرائي في مدحهم • وكانوا قوما قد أظلني فضلهم وأغناني رفدهم ، فأثنيت بما أولوا » • فلم يتم قوله حتى كان الخليفة قد نادى : « يا غلام ، ألطمه على وجهه » • فلطموا الشاعر حتى سدر بصره واظلم ماكان بينه وبين أهل المجلس • ثم أمر أن اسحبوه على وجهه وهو يقول : « والله لأحرمنك ، ولا تركت أحدا يعطيك شيئا في هذا العام » • فسحبوه حتى أخرج وهو لا يعي ما حوله • فاذا بشاب قد وقف عليه ثم قال : « أعزز على والله ياكبيرنا بما جرى عليك » • ثم دفع اليه صرة وهو يقول : « تبلغ بما في هذه » • فظنها ابن مناذر دراهم ، فاذا هي دنانير تبلغ المائة وأكثر ، فسأل ابن مناذر في دهشته وهو لم يبصر بعد من عشوته : « من أنت ؟ جعلني الله فداءك » • فقال هذا الأريحي : « انا أخوك أبو نواس ، فاستعن بهذه الدنانير ، واعذرني» • فقبلها الزميل المنكوب وقال : «وصلك الله يا أخي ، وأحسن جزاءك »

واذا ذكرنا بهذه المناسبة ما وقع من ابن مناذر فى موسم للحج سابق ، اذ تنازع شاعرنا والحسين بن الضحاك أيهما أشعر فى همزية لكل منهما أنشدها فى وصف الخمر، فحكم ابن مناذر للحسين بأن قصيدته أفضل وأنه أشعر ، فقام أبو نواس منكسرا ... فلا شـك أن القـارىء يرى معنا ما تنطوى عليه وقفة النواسى بعد ذلك مع زميله من غلبة روح الزملة والترفع عن الشماتة ، فضلا عما قد يكون فى ذلك من الدلالة على مشاركته اياه فى الوفاء الكريم للممدوحين الاسبقين . ومهما قيل فى أبى نواس من عطله من الفضائل الخلقية ، فان هذه وحدها فيه شاهد صدق على وفور حظه من حساسية الانسان الحى ، وأريحية الشـاعر الذى ولد شاعرا

منادمة الأمراء

وقد اتصل أبو نواس فيمن اتصل بهم بولد المهـدى وغيرهم من الهاشميين وكان ينادمهم ويلازمهم . وكان ممن نادمهم القاسم بن الرشيد ، ولقى القاسم منه أشياء كرهها وكرهت له ففارقه

وممن أقبل أبو نواس على منادمتهم الامير عيسى بن أبى جعفر المنصور . وكان وقتئذ شـيخا جليلا . ولقد عزم الامير يوما على أبى نواس أن يقيم معه فى قصره أسـبوعا بالقفص على مقربة من بغـداد . وأقام الجماعة يقصفون ويشربون بين عزف وغناء فى مجلس وسط الحدائق الفيحاء. فلما أرادوا الانصراف وصله الامير وخلع عليه وحمله الهدايا وقال له : « بحياتى عليك ، صف مجلسنا هذه الايام كلها التى أقمناها فقال فى ذلك قصيدته :

يا طيبَنا بقصور القفْص مشرقةً
فيها الدَّساكرُ (١) والأنهار تطَّرد

وكانت وفاة الامير عيسى بن أبى جعفر المنصور سنة ١٨١ أى قبل نكبة البرامكة

ولعل أحب الممدوحين الى شاعرنا الامير الهاشمى العباسى ابن عبيد الله بن جعفر بن أبى جعفر المنصور والقارىء لمدائحه له يحس صدق اللهجة وحرارة العاطفة. ولقد كان من متابعة الامير له باحسانه، وموالاته اياه بالنعم والافضال، ووصله بالعطاء بعد العطاء بادئا وعائدا من غير من ولا انتظار حمد، أن انطلق الشاعر مع حبه للسعة وانخراق يده بالنفقة يعتذر عن هدايا الامير ويطلب جادا أو غير جاد، وقف المزيد من هذا الفيض الغمر حتى ينهض بأعباء الشكر لما سلف

لا تُسدينّ إلىَّ عارفةً حتى أقوم بشكر ما سلفا

ثم هو فى كلامه عن الأمير الجواد كالمستهول لبحر اشتد صببه، وطغى مدده — فتراه وهو الشاعر المستمنح — لا يملك نفسه معه من الدهشة :

أنا فى دنيا من «العبّـ ـاس» أغدو وأروحُ
كلّ جودٍ يا أميرى ما خلا جودك ريحُ
إنما أنت عطايا أبداً لا تستريح
بُحّ صوتُ المال مما منك يشكو ويصيح
« ما لهذا آخذٌ فو ق يديه، أو نصيح! »

---

(١) الدساكر جمع دسكرة وهى القرية والصومعة وبيوت الاعاجم يكون فيها الشراب والملاهى، أو بناء كالقصر حوله بيوت

جُدْتَ بالأموال حتى قيل ما هـذا صحيح
صُوِّرَ الجودُ مثالاً فلهُ «العباس» روح

ولما أن وكل أمير المؤمنين هرون الرشيد الى العباس فى سنة ١٩٢ هـ الحج بالناس فغاب عن بغداد انقطع عن الشاعر ما كان يبره به واشتد به الضيق . حتى اذا رجع من الحج استقبله الشاعر بقصيدة مشهورة مطلعها :

ديار نوارٍ ، ما ديار نوار كسونك شجواً، هنّ منه عوار

وفي هذه القصيدة يذكر ما كان للامير من مآثر وأفضال في هذا الحج ، وقد وصفه فيها بكرم اليـد بما بذل لأهل الحرمين من مساعدة وما وزعه على أبناء السبيل من صدقة ، ثم وصفه بكرم المحتد بما اجتمع له من نسب نزار فى جده الاول الخليفة أبى جعفر ومن نسب قحطان فى جدته الاولى زوجة أبى جعفر المنصور وهى أم موسى بنت منصور الحميرية، وأخيرا عاد الشاعر يذكر ما كان فى غيبة الامير من فاقتـه وحاجته :

إليك غدت بى حاجةٌ لم أُبُح بها أخاف عليهـا شامتاً فأدارى
فأرْخِ عليها ستر معروفك الذى سترت به قدْماً علىّ عوارى

وللشاعر فيه عدا ذلك قصائد أخرى نجتزىء منها بذكر أشهرها جميعا عند أهل اللغة والادب وهى التى مطلعها :

أيها المنتاب عن عُفُرِهِ لست من لَيْلى ولا سَمَرِه
لا أذودُ الطـيرَ عن شجر قد بلوْتُ المُرَّ من ثمرِه

كرامة الشاعر

ولم يكن النواسى مع اعتماده فى طلب العيش على الكبراء

وأرباب الدولة، بالذى يتحاقر ويتهضم نفسه لهم ويستشعر الضعة والصغار فى ناحيتهم • فقــد كان يمنعه من ذلك شعوره القوى بما للفن الذى يعالجه من شأن وقيمة، ومغالاته بما يجب للفنان من قدر وحرمة • ويظهر ذلك أجلى ظهور فيما يروى بعضهم من أنه كان مع شاعرنا قريبا من دور بنى نوبخت بنهر طابق وعنده جماعة فجعل يمر بأبى نواس القواد والكتاب وبنو هاشم فيسلمون عليــه وهو متكىء ممدود الرجل لا يتحرك لأحد منهم • واذا جلساؤه ينظرون اليه وقد قبض رجليه ووثب ، وقام الى شيخ أقبل على حمار له ، وكان الشيخ أبا العتاهية الشاعر ، فاعتنق أبا نواس ، ووقف أبو نواس يحادثه ، فلم يزل واقفا معه يراوح بين رجليه يرفع رجلا ويضع أخرى ، حتى فرغ الحديث ومضى الشيخ

وهكذا تخلو حياة شاعرنا مما يعلق بحياة الكثيرين من أمثاله المتصلين بأبواب الملوك والامراء من اعتيادهم الضراعة والنزول عن حقهم فى الكرامة وفرط تضاؤلهم وهوانهم على أنفسهم



الرشيد وأبو نواس
فى الأدب الشعبى والتاريخ

كان للأدب الشعبى ، وعلى الخصوص حكايات ألف ليلة وليلة ، شأن كبير فى اشتهار الرشيد دون سائر أمراء المؤمنين عند عامة الناس • فأغلب ما يحكى عن بغداد فى حكاياتها لا يخلو من ذكر الرشيد والاشادة به والتعظيم له • وقد يصح فى تعليل ذلك ذهاب بعضهم الى أن القصص العراقى فى ألف ليلة وليلة قد وضع فى أيامه ، فتحرى واضعوه تمليق الخليفة القائم بالأمر للحظوة عنده . ولا عبرة بالنوادر القصار الماجنة فهى مستحدثة بعد ذلك متأخرة

فنحن اذا قلبنا صفحات « ألف ليلة وليلة » تكررت على أعيننا صورة لامير المؤمنين هرون الرشيد وهو يعس بالليل فى عاصمة دولته ، كما كان يفعل عمر بن الخطاب أثناء خلافته ، وان كان ذلك التوافق لا يخلو من فارق ، هو الفارق بين الرجلين وبين العهدين • فقد كان الهم الاول والاخير فى عسس الخليفة البدوى عمر هو تفقد الراعى أحوال الرعية ، مبالغة فى الحرص على استقصاء الحقائق ورفع المظالم وتوفير العدالة • أما أمير المؤمنين العباسى، فمن وراء عسسه ــ فى حكايات ألف ليلة وليلة ــ باعث أول شخصى من عقابيل الترف ، هو مدافعة ملل كان يغلب على

طبعه ، أو أرق شديد كان ينتابه ، فكان فى كل مرة يعاوده الملل أو الأرق ، يرسل فى طلب الوزير جعفر البرمكى ، وشاعرنا أبى نواس وغيره من الندمان ويخرجون ومعهم مسرور السياف ، وهم مستخفون فى ثياب التجار تارة ، وتارة فى ثياب الدراويش • وعلى هذا النحو يطوفون على هواهم نواحى بغداد ، فى طلب التسلية وتزجية الفراغ ، بالمشاركة فى الحياة العامة الليلية ، وبالاطلاع على دخائل الاسرار البيتية وطرائف الوقائع الغرامية ، فضلا عن الاستمتاع آخر الامر بمظاهر المباغتة وما يصحبها من شعائر التعظيم حين يقف القوم على حقيقة المستخفين ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين

جولة فى ألف ليلة وليلة

ونعرض هنا على القارىء على سبيل التذكرة ، لمحة موجزة عابرة ، من ذلك الادب الشعبى العربى ، فى تصويره للخليفة هرون الرشيد ومعه رفاق جولاته الخاصة الليلية : الوزير والنديم والحارس والسياف • ويبعثنا على نقلها أنها هى الصورة الساحرة الغنية بالالوان ، العالقة فى أذهان العامة عندنا ، والماثلة فى خيال السواد الاعظم من الغربيين الذين لا يستهويهم من آثارنا الادبية مثل كتاب ألف ليلة وليلة ويكاد يقف علمهم بالشرق العربى عندها • والواقع أنها فى نوعها نسيج وحدها ، لا يغنى غيرها غناءها فى استحضار صورة حية لذلك الشرق العربى • وقلما يجد الدارس العربى منا ـ على كثرة المراجع وخزائن المعارف فى لغته ـ وصفا للحياة الاجتماعية فى بغداد ، وفى غيرها من البلدان العربية وقتذاك ، يعدل ما يتمثل لنا فى هذه الصفحات وأمثالها فى ألف ليلة وليلة :

أرق الخليفة هرون الرشيد ذات ليلة أرقا شديدا • فاستدعى خادمه مسرورا ، وقال له : « ائتنى بالوزير جعفر

سريعا » • فمضى ، وأحضره • فلما وقف بين يديه ، قال : « يا جعفر ، انه قد اعترانى فى هـذه الليلة أرق منع عنى النوم ، ولا أعلم ما يزيله عنى » • قال : « يا أمير المؤمنين ، هل تفعل ما أشير به عليك ». قال : وما الذى تشير به ؟ ». قال : « تنزل بنـا فى زورق ، وننحدر به فى نهـر دجلة مع الماء الى محل يقال له قرن الصراط ، لعلنا نسمع ما لم نسمع ، أو ننظر ما لم ننظر ، فلعل فى ذلك تفريجا للهم وزوال أسباب القلق عنك يا أمير المؤمنين »

فقام الرشيد عن موضعه،ودعا لصحبته مع الوزير جعفر أخاه الفضل ، وأبا اسحق النديم ، وأبا نواس ، وأبا دلف، ومسرورا السياف • ودخلوا حجرة الثيـاب ، فلبسوا زى التجار جميعا ، وخرجوا الى دجـلة ، ونزلوا فى زورق مزركش بالذهب ، وانحدروا مع الماء حتى وصلوا الى الموضع الذى يريدونه ، فسمعوا من بعض الدور الشارعة على النهر صوت جارية تغنى على العود • فقال الخليفة : « يا جعفر ، ما أحسن هـذا الصوت » • فقال الوزير : « يا مولاى ! ما طرق سمعى أطيب ولا أحسن منـه ، ولكن السماع من وراء جدار نصف سماع »

قال : « انهض بنا يا جعفر ! حتى نتطفل على صـاحب هذه الدار ، لعلنا نرى هذه المغنية عيانا » • فقال الوزير : « سمعا وطاعة »

وصعدوا من المركب ، واستأذنوا فى الدخـول • فاذا شاب مليح المنظر ، عذب المنطق ، فصيح الكلام قد خـرج اليهم وقال : « أهلا وسهلا ، يا سادتى المنعمين على ، ادخلوا بالرحب والسعة » • فدخلوا وهو بين أيديهم • فرأوا الدار بأربعة أوجـه ، وسقفها بالذهب ، وحيطانها منقوشـة باللازورد وفى الدار ايوان به سدلة جميـلة ، عليها مائة جارية كأنهن أقمار • فصاح عليهن ، فنزلن عن أسرتهن

ثم التفت رب الدار الى جعفر ، وقال : « يا سيد ، أنا

ما أعرف منكم الجليل من الأجل • باسم الله ، ليتفضل منكم من هو أعلى الى الصدر ، ويجلس اخوانه كل واحد فى مرتبته » • فجلس كل واحد فى منزلته ، وقام مسرور فى الخدمة بين أيديهم • ثم أقبل رب الدار عليهم وقال : «يا أضيافى، عن اذنكم ، هل أحضر لكم شيئا من المأكول؟» • قالوا : « نعم » • فأمر الجوارى باحضار الطعام

فأقبل أربع جوار مشدودات الاوساط ، بين أيديهن مائدة ، وعليها غرائب الألوان ، مما درج وطار ، وسبح فى البحار ، من قطا وسمان ، وأفراخ وحمام. وكان مكتوبا على حواشى السفرة من الاشعار ما يناسب المجلس• فأكلوا قدر كفايتهم • ولما غسلوا أيديهم قال الشاب : « يا سادتى ، ان كانت لكم حاجة، فانبئونى بها ، حتى أتشرف بقضائها» • قالوا : « نعم • فانما جئنا منزلك ، من أجل غناء رخيم ترامى الينا من وراء حائط دارك ، فاشتهينا أن نعرف صاحبته ونسمعه • فان رأيت أن تنعم علينا بذلك ، كان من مكارم أخلاقك » • قال : « مرحبا بكم » ثم التفت الى جارية سوداء وقال : « احضرى سيدتك »

وذهبت السوداء ثم جاءت ومعها كرسى فوضعته • ثم ذهبت ثانيا وجاءت ومعها جارية كأنها البدر فى تمامه • فجلست على الكرسى ، وناولتها السوداء خرقة من أطلس، فأخرجت منها عودا مرصعا بالجواهر واليواقيت ، وملاويه من الذهب ، فشدت أوتاره • ثم ضمت العود الى صدرها، وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها ، ثم جسته تختبر رنينه ، فلما بان حنينه ، ضربت على الأوتار وأنشدت على مصاحبته أبدع الاشعار • وما فرغت من شعرها ، حتى غلبها البكاء ، فبكت لها سائر الجوارى • ولم يبق سامع لغنائها الا غاب عن وجوده ، من حسن هذا الغناء وشدة وقعه وعمق تأثيره . وقال الخليفة : « ان غناء الجارية يدل

على أنها عاشقة مفارقة » . فقال رب الدار : « انها ثاكلة لأبيها وأمها » . فقال الخليفة : « ما هذا بكاء من فقد اباه وأمه ، وانما هو شجو من عرف الحب وكابد الشوق الى المحبوب » . وأظهر لمن حوله طربه من غنائها ، فقال ابو اسحق : « يا سيدى ، اني لأعجب لها غاية العجب ، ولا أملك نفسى من الطرب » . وكان الخليفة - مع ذلك كله - ينظر الى رب الدار يتأمله ، فلم تشغله محاسنه وظرف شمائله عن رؤية ما يعلو وجهه من الاصفرار . فالتفت اليه وقال : « يا فتى ، هل تعلم من نحن ؟ » . قال : « لا » فقال جعفر : « أوتحب أن أخبرك عن كل واحد باسمه » . قال : « نعم » . فقال للتعريف : « هذا أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين ... » وذكر بقية أسماء الجماعة . فأخذت رب الدار دهشة لم يلبث أن أفاق منها، حين سمع الخليفة هرون الرشيد يقول : «أشتهي لو أخبرتني عن سر هذا الاصفرار بوجهك ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ان حديثي غريب وأمرى عجيب » . قال الخليفة : « اعلمني به ، لعل شفاءك يكون على يدى » ،وكلما رأى تردده ، أردف : « هات ، فحدثني . فقد شوقتني الى سماعه »

قال : « اني من مدينة عمان ، وكان أبي تاجرا كثير المال، وكان له ثلاثون مركبا تعمل فى البحر ، أجرتها في كل عام ثلاثون ألف دينار . فلما حضرته الوفاة دعاني وأوصاني بما جرت به العادة . وكان لأبى شركاء يتجرون فى ماله ويسافرون في البحر . فسمعتهم يصفون ميناء البصرة واتساع تجارتها ، ثم عرجوا على وصف بغداد وأجمعوا على أنه ليس أحسن منها في البلاد وأطنبوا فى عظمتها وجلال عمارتها وحسن شمائل أهلها حتى اشتاقت نفسى اليها ، وتعلقت آمالى برؤيتها . فقمت وبعت العقارات والاملاك ، وبعت المراكب بمائة ألف دينار غير الجواهر والمعادن .

واكتريت مركبا وشحنتها بأموالي وسائر متاعي ، وسافرت الايام والليالي حتى جئت البصرة ، فأقمت بهـا مدة • ثم استأجرت سفينة انحدرت بنا أياما قلائل حتى وصلت الى بغداد ، وأقمت فيها مدة • وفي بعض الايام توجهت الى الفرجة ومعي شيء من المال • وكان اليوم يوم جمعة • فأتيت الى جامع يسمى جامع المنصور وبعد أن فرغنا من صلاة الجمعة خرجت مع الناس في موضع يسمى قرن الصراط ، فرأيت في ذلك المكان موضعا عاليا ، وله روشن مطل على الشاطيء ، وهناك شباك • فذهبت في جملة النـاس الى ذلك المكان ، فرأيت شيخا جالسا ، وعليه ثياب جميلة ، تفوح منه رائحة طيبة ، وقد سرح لحيتـه ، فافترقت على صدره فرقتين ، كأنها قضيب من لجين ، وحوله أربع جوار وخمسة غلمان • فقلت لشخص : « ما اسم هذا الشيخ ، وما صنعته ؟ » • فقال : « هذا طاهر بن العلاء وهو صاحب القيان ، كل من دخل عنده يأكل ويشرب وينظر الى الملاح » • فقلت : « والله ان لي زمانا ، وأنا أشتهي مثل هذا » • ثم تقدمت الى صاحب القيان وسلمت عليـه ، وقلت له : « يا سيدي ، ان لي عندك حاجة » • قال : « ما حاجتك » • قلت : « أشتهي أن أكون ضيفك في هذه الليلة » • قال : « حبا وكرامة » . ثم استأنف بعد لحظة : « يا ولدي ! عندي جوار كثيرة ، منهن من ليلتها بعشرة دنانير ، ومنهن من ليلتها بأربعين دينارا ، ومنهن من ليلتها بأكثر ، فاختر من تريد » . ثم وزنت له ثلاثمائة دينار عن شهر فسلمني لغلام فأخذني الغلام وذهب بي الى الحمام في القصر ، وخدمني خدمة حسنة • فخرجت من الحمام فأتى بي الى مقصورة ، وطرق الباب ، فخرجت له جارية ، فقال لها : « خـذي ضيفك » • فتلقتني بالرحب والسعة ، ضاحكة مستبشرة • وأدخلتني دارا عجيبة مزركشة بالذهب ، فتأملت في تلك الجارية ، فرأيتها كالبدر في ليـلة تمامه ، وفي خدمتها

جاريتان كأنهما كوكبان • ثم أجلستني وجلست بجانبي ، ثم أشارت الى الجوارى فأتين بمائدة فيها من أنواع اللحوم، من دجاج ، وسمان ، وقطا وحمام فأكلنا حتى اكتفينا ، وما رأيت في عمري ألذ من ذلك الطعام • فلما أكلنا رفعت تلك المائدة ، وأحضرت مائدة الشراب والمشموم والحلوى والفواكه وأقمت عندها شهرا على هذا الحال

فلما فرغ الشهر جئت الى الشيخ وقلت له : « يا سيدى، أريد التى ليلتها بعشرين دينارا » • فقال : « زن الذهب » • فمضيت ، وأحضرت الذهب ، فوزنت له ستمائة دينار عن شهر • فنادى غلاما وقال له : « خذ سيدك » • فأخذني وأدخلنى الحمام ، فلما خرجت أتى بى الى باب مقصورة ، وطرقه ، فخرجت منه جارية ، فقال لها : « خذى ضيفك » • فتلقتني بأحسن ملتقى واذا حولها أربع جوار ثم أمرت باحضار الطعام فحضرت مائدة عليها من سائر الاطعمة ، فأكلت ، ولما فرغت من الاكل ورفعت المائدة أخذت العود وغنتنى • فأقمت عندها شهرا ، ثم جئت الى الشيخ وقلت له : « أريد صاحبة الاربعين دينارا » • فقال : « زن لى الذهب » • فوزنت له عن شهر ألفا ومائتى دينار ومكثت عندها شهرا كأنه يوم واحد لما رأيت من حسن المنظر وحسن العشرة

ثم جئت الى الشيخ وكنا قد أمسينا ، فسمعت ضجة عظيمة ، وأصواتا عالية • فقلت له : « ما الخبر ؟ » • فقال لى الشيخ : « ان هذه الليلة عندنا أشهر الليالى ، وجميع الخلائق يتفرجون على بعضهم فيها ، فهل لك أن تصعد على السطح ، وتتفرج على الناس » • فقلت : « نعم » • وطلعت على السطح فرأيت ستارة حسنة ، ووراء الستارة محل عظيم ، وفيه سدلة وعليها فرش مليح، وهناك صبية تدهش الناظرين حسنا وجمالا ، وقدا واعتدالا ، وبجانبها غلام ، يده على عنقها ، وهو يقبلها وتقبله • فلما رأيتهما ، لم أملك

نفسي ، ولم أعرف أين أنا لما بهرني من حسن صورتها • فلما نزلت سألت الجارية التي أنا عندها وأخبرتها بصفتها فقالت : « مالك ومالها » • فقلت : «والله أنها أخذت عقلي» • فتبسمت وقالت : « يا أبا الحسن ، ألك فيها غرض ؟ » • فقلت : « أي والله ، فانها تملكت قلبي ولبي » • فقالت : « هذه ابنة طاهر بن العلاء ، وهي سيدتنا ، كلنا جواريها • أتعرف يا أبا الحسن بكم ليلتها ويومها ؟ » قلت : « لا » • قالت : « بخمسمائة دينار ، وهي حسرة في قلوب الملوك » • فقلت : « والله ، لأذهبن مالي كله على هذه الجارية » • وبت أكابد الغرام طول ليلي ، فلما أصبحت ، دخلت الحمام ، ولبست أفخر ملبوس من ملابس الملوك ، وجئت الى أبيها وقلت : « يا سيدي ، أريد التي ليلتها بخمسمائة دينار » • فقال : « زن الذهب » • فوزنت له عن كل شهر خمسة عشر ألف دينار فأخذها ، ثم قال للغلام ، « اعمد به الى سيدتك فلانة » • فأخذني وأتى بي الى دار لم تر عيني أظرف منها على وجه الارض ، فدخلتها ، فرأيت الصبية جالسة ، فلما رأيتها أدهشت عقلي بحسنها ، وهي كالبدر في ليلة أربعة عشر ، فسلمت عليها ، فقالت : « أهلا وسهلا ومرحبا » وأخذت بيدي وأجلستني الى جانبها • ثم صارت تؤانسني بلطف الكلام ، وأنا غريق في بحر الغرام ، خائف في القرب ألم الفراق ، من فرط الوجد والاشتياق ، ثم أمرت باحضار الأطعمة ، فأقبلت اربع جوار نهد أبكار ، فوضعن بين أيدينا من الاطعمة والفاكهة والحلوى والمشموم والمدام ما يصلح للملوك ، وجلسنا على المدام وحولنا الرياحين ، ثم جاءتها جارية بخريطة من الابريسم فأخذتها وأخرجت منها عودا فوضعته في حجرها وجست أوتاره وغنتني أعذب الغناء • فأقمت عندها على هذه الحالة مدة من الزمان ، حتى نفذ جميع مالي • فتذكرت وأنا جالس معها مفارقتها ، فنزلت دموعي على خدي كالانهار ، فقالت : « لأي شيء

تبكي ؟ » • فقلت لها : « يا سيدتي ، من حين جئت اليك وأبوك يأخذ مني في كل ليلة خمسمائة دينار ، وما بقي عندي شيء من المال » • فقالت : « اعلم ان أبي عادته أنه اذا كان عنده تاجر وافتقر ، فانه يضيفه ثلاثة أيام، ثم بعد ذلك يخرجه فلا يعود الينا أبدا • ولكن ، أكتم سرك وأخف أمرك وأنا أعمل حيلة في اجتماعي بك الى ما شاء الله ، فان لك في قلبي محبة عظيمة • واعلم أن جميع مال أبي تحت يدي ، وهو لا يعرف قدره ، فأنا أعطيك كل يوم كيسا فيه خمسمائة دينار ، وأنت تعطيه لأبي ، وتقول له : « ما بقيت أعطي الدراهم الا يوما بيوم » وكل ما دفعته اليه ، فانه يدفعه الي ، وأنا أعطيه لك ، ونستمر هكذا الى ما شـاء الله » • فشكرتها على ذلك وقبلت يدها ، ثم أقمت عندها على هذه الحالة مدة سنة كاملة • فاتفق في بعض الايام أنها ضربت جاريتها ضربا وجيعا ، فقـالت الجارية : « والله لأوجعن قلبك كما أوجعتني » • ثم مضت تلك الجـارية الى أبيها وأعلمته بأمرنا من أوله الى آخره • فلما سمع طاهر بن العلاء كلام الجارية قام من سـاعته ، ودخل علي وأنا جالس مع ابنته ، وقال لي : « يا فلان » • قلت له : « لبيك » • قال: « عادتنا أنه اذا كان عندنا تاجر وافتقر ، أننا نضيفه ثلاثة أيام، وأنت لك عندنا سنة تأكل وتشرب وتفعل ما تشاء » • ثم التفت الى غلمانه وقال : « اخلعوا ثيـابه » • ففعلوا ، وأعطوني ثيابا رديئة قيمتها خمســة دراهم ، ودفعوا الي عشرة دراهم ، ثم قال لي : « أخـــرج ، فأنا لا أضربك ولا أشتمك ، واذهب الى حال سبيلك ، وان أقمت في هــذه البلدة كان دمك هدرا » • فخرجت يا أمير المؤمنين ، برغم أنفي وأنا لا أعلم أين أذهب • وحــل في قلبي كل هم في الدنيا ، وأشغلني الوسواس ، وقلت في نفسي : كيف أجيء في البحر بمائة ألف من جملتها ثمن ثلاثين مركبــا ويذهب هذا كله في دار هذا الشيخ النجس ، وبعد ذلك

أخرج من عنده عريانا مكسور القلب ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !!

ثم أقمت فى بغداد ثلاثة أيام لم أذق طعاما ولا شرابا ، وفى اليوم الرابع رأيت سفينة متوجهة الى البصرة ، فنزلت فيها واستكريت مع صاحبها الى أن وصلت الى البصرة فدخلت السوق وأنا فى شدة الجوع ، فرآني رجل بقال ، فقام الى وعانقنى لانه كان صاحبا لى ولأبى من قبلى ، وسألنى عن حالى ، فأخبرته بجميع ما جرى لى ، فقال : « والله ما هذه فعال عاقل ، ومع هذا الذى جرى لك فأى شىء فى ضميرك تريد أن تفعله » • فقلت له : « لا أدرى ماذا أفعل » • فقال : « أتجلس عندى ، وتكتب خرجى ، ودخلى ، ولك فى كل يوم درهمان زيادة على أكلك وشربك» فأجبته الى ذلك ، وأقمت عنده سنة كاملة أبيع وأشترى الى أن صار معى مائة دينار • فاستأجرت غرفة على شاطىء البحر ، لعل مركبا تأتى ببضاعة فأشترى بالدنانير بضاعة وأتوجه بها الى بغداد • فاتفق فى بعض الايام أن المراكب جاءت وتوجه اليها جميع التجار يشترون ورحت معهم ، واذا برجلين قد خرجا من بطن المركب ، ونصبا كرسيين ، وجلسا عليهما ، ثم أقبل التجار عليهما لاجل الشراء ، فقالا لبعض الغلمان : « احضروا البساط » • فأحضروه ، وجاء واحد بخرج فأخرج جرابا وفتحه وكبه على البساط ، واذا به يخطف البصر لما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان والياقوت من سائر الألوان . ثم ان واحدا من الرجلين الجالسين على الكراسى التفت الى التجار وقال لهم : « يا معاشر التجار ، أنا ما أبيع فى يومى هذا ، لانى تعبان ، فتزايدت التجار فى الثمن حتى بلغ مقداره أربعمائة دينار • فقال لى صاحب الجراب ، وكان بينى وبينه معرفة قديمة : « لماذا لم تتكلم وتتزايد مثل التجار ؟ » • فقلت له : « والله ياسيدى ما بقى عندى شىء من الدنيا سوى مائة دينار » • واستحيت منه

ودمعت عينى . فنظر الى وقد عسر عليـــه حالى ، ثم قال للتجـار : « اشهدوا على أنى بعت جميع ما فى الجراب من أنواع الجواهر ، والمعادن لهذا الرجل بمائة دينـار ، وأنا أعرف أنه يساوى كذا وكذا ألف دينار ، وهو هدية منى اليه » فأعطانى الخرج والجراب والبساط وجميع ما عليـه من الجواهر

ثم انى توجهت الى بغداد ومعى جميع مالى ، وسكنت فى الدار التى كنت فيها ، فلما أصبح الصباح ، لبست ثيابى وجئت الى بيت طاهر بن العلاء لعلى ارى من أحبها ، فان حبها لم يزل يزيد فى قلبى . فلما وصلت الى داره رأيت الشباك قد انهدم . فسألت غلاما : « ما فعل الله بالشيخ ؟ » . فقال : « يا أخى ، انه قدم عليه ، فى سنة من السنين رجل تاجر، يقال له أبو الحسن العمانى ، أقام مع ابنته مدة من الزمان، ثم بعد أن ذهب ماله أخرجه الشيخ من عنده مكسور الخاطر وكانت الصبية تحبه حبا شديدا ، فلما فارقهـا ، مرضت مرضا شـــديدا حتى بلغت الموت ، وعرفت أباها بذلك ، فأرسل خلفه فى البلاد وقد ضـــمن لمن يأتى به مائة ألف دينار ، فلم يره أحد ، ولم يقع له على أثر ، وهى الى الآن مشرفة على الموت . قلت : « وكيف حال أبيهـا » . قال : « باع الجوارى ، من عظم ما أصابه » . فقلت له : « هل أدلك على أبى الحسن العمانى » . فقال : « بالله عليك يا أخى أن تدلنى عليه » . فقلت له : « اذهب الى أبيها وقل له البشارة عندك ، فان أبا الحسن العمانى واقف على الباب » . فذهب الرجل يهرول ثم غاب ساعة وجاء وصحبته الشيخ ، فلما رآنى ، رجع الى داره ، وأعطى الرجـــل مائة ألف دينار ، فأخذها وانصرف وهو يدعو لى ، ثم أقبل الشيخ وعانقنى ، وبكى ، وقال : « يا سيدى ، أين كنت فى هذه الغيبة ، قد هلكت ابنتى من أجل فراقك ، فادخل معى الى المنزل » . فلما دخلت سجد شكرا لله تعـــالى وقال : « الحمد لله الذى

جمعنا بك » • ثم دخل لابنتــه وقال لها : « شفاك الله من هذا المرض » • فقالت : « يا أبت ، لا أبرأ من مرضى ، الا اذا نظرت وجه أبى الحسن » • فقال : « اذا أكلت ودخلت الحمام،جمعت بينكما »•فلما سمعت كلامه قالت : «أصحيح ما تقول » • قال لها : « والله العظيم ، ان الذى قلتهصحيح» فقالت : « والله ، ان نظرت وجهه ، ما أحتاج الى أكل » • فقال لغلامه : « احضر سيدك » • فدخلت ، فلما نظرت الى، وقعت مغشيا عليها ، فلما أفاقت ، أستوت جالسة وقالت : « والله يا سـيدى ما كنت أظن أني أرى وجهك الا ان كان مناما » • ثم انها عانقتني،وبكت ، وقالت : « يا أبا الحسن، الآن آكل وأشرب »•فأحضروا الطعام والشراب ، ثم صرت عندهم مدة من الزمان ، وعادت لما كانت عليه من الجمال ، ثم ان أباها استدعى القاضى والشهود ، وكتب كتابها على ، وعمل وليمة عظيمة ، وهى زوجتى التى ترونها الآن

وظل الخليفة وجماعته فى عجب عاجب مما يرون ، ومما يسمعون ، ثم انصرفوا شاكرين للفتى العمانى ضيافته • فلما جلس الرشيد فى دار الخلافة قال : « يا مسرور » • قال : « لبيك يا سيدى » • قال : « اجمع فى هذا الايوان خراج البصرة ، وخراج بغداد ، وخراج خراسان » • فجمعه فصار مالا عظيما ، لا يحصى عدده الا الله • ثم قال الخليفة : « ياجعفر » • قال : « لبيك » • قال : « احضر لى أبا الحسن العمانى » • قال : « سـمعا وطاعة » • ثم أحضره • فلما حضر ، قبل الارض بين يدى الخليفة وهو خائف أن يكون طلبه له بسبب خطأ وقع منه وهو عنده بمنزله ، فقـال له الرشيد : « يا عمانى » • قال : « لبيك يا أمير المؤمنين ! خلد الله نعمه عليك » • فقال : « اكشف هذه الستارة » وكان الخليفة أمرهم أن يضعوا مال الثلاثة أقاليم ، ويسبلوا عليه الستارة • فلما كشف العمانى الستارة عن الايوان ، اندهش عقله من كثرة المال ، فقال الخليفة : « يا أبا الحسن،

أهذا المال أكثر ، أم الذى فاتك» • فقال : « بل هذا يا أمير المؤمنين أكثر أضعافا كثيرة » • قال الرشيد : « اشـهدوا يا من حضر ، انى وهبت هذا المال ، لهذا الشاب » • فقبل الارض ، واستحى ، وبكى من شدة الفرح بين يدى الرشيد، فارتد الدم الى وجهه ، فقال الخليفة : « لا اله الا الله، سبحان من يغير حالا بعد حال » • ثم أمر الخليفة أن يحمل اليه المال وسأله أن لا ينقطع عنه لاجل المنادمة

والقارىء المتابع سياق هذه الجولة الليلية وامثالها من ألف ليلة وليلة ، يلحظ لا محالة أن حظ منادمة الخليفة فيها أكثره للوزير جعفر ، وأن أبا نواس يشارك فيها بوجوده أكثر مما يشارك بحديثه أو مجونه • ولعل هذا الموقف السلبى قد عز على الاسـتاذ المستشرق « مردريس » Mardrus فى ترجمته الفرنسية النفيسة ، فكان من ذلك أن أجرى ـ فى قصة علاء الدين أبى الشامات ـ بعض كلام الوزير جعفر على لسان أبى نواس.

نوادر أبى نواس مع الرشيد

بيد أن الحال لا تظل على هذا المنوال من ألف ليلة وليلة، بل تتخللها هنا وهناك نوادر تزول فيها الوحشـة وترتفع الكلفة الى حد يوجب الدهشة، بين الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد والشـاعر الماجن أبى نواس • ونحن لا نتردد فى الجزم بأنها من الاضافات المتأخرة مجاراة لاذواق العوام

ومن ذلك ما يحكى في ألف ليلة وليلة من أن الخليفة أمير المؤمنين هرون الرشيد أرق ذات ليـلة ـ كعادته ـ أرقا شديدا • فقام يتمشى فى جوانب قصره حتى أتى مقصورة عليها ستر ، فرفع ذلك الستر فرأى فى صدرها تختا، وعلى ذلك التخت شيء أسود كأنه انسان نائم ، وعلى يمينه شمعة وعلى يساره شمعة ، فبينما هو ينظر الى ذلك ويتعجب منه، واذا بباطية مملوءة خمرا عتيقا والكأس عليها ، فلما رأى

ذلك أمير المؤمنين تعجب فى نفسه ، وقال : « أتكون هـذه الصحبة لمثل هذا الاسود » • ثم دنا من التخت فرأى الذى فوقه صبية نائمة ، قد تجللت بشعرها،فكشف عن وجهها، فرآها كأنها البدر ليلة تمامه ، فملأ الخليفة الكأس من الخمر وشربه على ورد خدها ، ومالت نفسه اليها فقبل أثرا كان بوجهها ، فانتبهت من منامها قائلة : « يا أمين الله ما هذا الخبر » • فقال :

هو ضيفٌ طارقٌ فى حيّكم هل تضيفوه الى وقت السحر ؟

فأجابته :

بسرور وهناء سيدى أخدم الضيف بسمعى والبصر

ثم قدمت الشراب فشربا معا ، ثم أخذت العود وأصلحت أوتاره ، وضربت عليه احدى وعشرين طريقة ، ثم عادت الى الطريقة الاولى ، وبعد أن أطربت بالنغمات وأنشدت أعذب الابيات ، قالت : « أنا مظلومة يا أمير المؤمنين » • قال : « ولم ذلك ؟ ومن ظلمك ؟ » • قالت : « ان ولدك اشترانى من مدة بعشرة آلاف درهم ، وأراد أن يهبنى لك ، فأرسلت اليه ابنة عمك الثمن المذكور ، وأمرته أن يحجبنى عنك فى هذه المقصورة » • فقال لها : «تمنى على» • قالت : «تمنيت عليك أن تكون ليلة غد عندى » • ثم تركها ومضى • فلما أصبح الصباح ، توجه الى مجلسه ، وأرسل الى أبى نواس فلم يجده ، فأرسل الحاجب يسأل عنه فرآه مرتهنا فى بعض الخمارات على ألف درهم أنفقها على بعض المرد،فسأله الحاجب عن حاله ، فقص عليه قصته ، وما وقع له مع أمرد مليح أنفق عليه الالف درهم • فلما رأى ذلك الحاجب ، علم بحال أبى نواس وغرامه فرجع الى الخليفة وأخبره بحاله فأحضر الخليفة ألف درهم وأمر الحاجب أن يأخذها ويرجع بها الى أبى نواس فدفعها عنه وتوجه به الى الخليفة. فلما وقف بين

يديه ، قال له الخليفة : « أنشدنى شعرا يكون فيه « يا أمين الله ما هذا الخبر» . » فقال : «سمعا وطاعة يا أميرالمؤمنين». وأنشده أبياتا تطابق واقعة الحـــال ، فقال له الخليفة على أثرها : « قاتلك الله كأنك كنت حاضرا معنا » . ثم أخذه الخليفة من يده وتوجه به الى الجارية . فلما رآها أبو نواس، وكان عليها بدلة زرقاء وقناع أزرق أكثر التعجبات. وقدمت الجارية الشراب للخليفة ثم أخذت العود بيــدها ، وأطربت بالنغمات ، فأمر أمير المؤمنين باكثار الشراب على أبى نواس حتى غلبه الســـكر ، ثم ناوله قدحا ، فشرب منــه جرعة. واستدامه فى يده وقد غاب عن رشده ، فأمرها الخليفة أن تأخذ القدح من يده وتخفيه ، فأخذت القدح من يده،وأخفته بين فخذيها ، ثم ان الخليفة سحب سيفه فى يده ووقف على رأس أبى نواس ، ووكزه بالسيف فاستفاق،فوجد السيف مســـــلولا فى يد الخليفة فطار السكر من رأسه ، فقال له الخليفة : « أنشدنى شعرا ، وأخبرنى فيه عن قدحك ، والا ضربت عنقك » . فأنشد :

قصتى أعظم قصــه ... صارت الظبية لصه

سرقت كأس مدامى ... بعد مصّى منه مصه

ســـترته فى مكان ... بفؤادى منه غصــه

لا أســمّيه وقاراً ... الأمير فيه حصــــه

فقال له الرشيد : « قاتلك الله ! من أين علمت ذلك ؟ ». وأمر له بخلعة وألف دينار

وندع قصص « ألف ليلة وليلة » الى كتاب « اعلام الناس فيما وقع للبرامكة مع بنى العباس » وغيره من التصانيف الادبية التــاريخية ، فاذا هى كـــذلك فى جملتها تروى لأبى نواس مع الرشيد نوادر لا حصر لها ، وكلاما كثيرا

فى المجون والخلاعة ، وماجريات تدل على حضور بديهتــه وسرعة خاطره وظرفه وخفة روحه

والذى يتقرر فى الاذهان من مطالعةهذا المحصول الوافر من النوادر هو أن الشاعر كان أشبه بمضحاك للخليفة ، يتفكه بأحاديثه ونوادر أفاعيله

الحقيقة فيمن كان مضحك الخليفة

والمقرر فى أسفار التــواريخ المعول عليهــا ان الذى كان مضحكا للخليفة ومحدثا فكها هو ابن ابى مريم المدنى ، فكان الرشيد لا يصبر عنه . وقد بلغ من خاصته بالرشيد أن بواه منزلا فى قصره وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه. وكانت له نوادر وأفاعيل غاية فى الجراة يضحك لها الرشيد ويذهب به الضحك حتى يكاد ينقطع نفسه . وهــذا بعينه ما يحكى عن نوادر أبى نواس مع الخليفــة هارون . فهى حكاياتموضوعة أو على الأقل منسوبة الى غير صاحبها

اختلاف المؤرخين فى منادمة أبى نواس للرشيد

وقد قيل فى أول اتصال لأبى نواس بالخلفاء ان الرشيد قال ذات ليلة لهرثمة بن اعين : « اطلب لى رجــلا يصلح للحديث والسمر » . فخرج هرثمة فسأل فدل عليــه . فنادم الرشيد تلك الليلة وأجاز ما اقترحه من الشــعر بديها ، فحسن موقعه عند الرشيد ، وأمر له بمال . وكان ذلك سبب اتصاله به . وكان ابو نواس يحدثه من قبــل بنوادر الناس ، ولكن من غير أن يفكه بأعراضهم ، ثم أعرض عن ذلك. فقال له الرشيد ذات يوم : « حدثنا يا أبا نواس » . فقال : « لا يحضرنى شىء » فقال الخليفــة : « بحياتى الا ما قلت شيئاً » قال : « كان الكذب عملى ، واليوم هجرته يا أمير المؤمنين » . فضحك الرشيد وقال : « هذا أحب الى من الحديث »

وقيل انه انما حصل على هذه المكانة عند الرشيد بانه كان اذا بكر اليه سأل خواص أهل بيته عما يكون فى نفسه أو يكون جرى له فى ذلك الوقت ، ثم ينشده أشعارا لطيفة فى مطابقة ذلك فيطيب بها نفسا . فمن ذلك أنه كان يوما مع الرشيد فى قصره ، فعلم من بعض خدمه أنه دخل مقصورة جارية من جواريه على غفلة منهـا فوجدها تغتسل وقت الظهر ، فلما رأته تجللت بشعرها فأعجبه ذلك منها . فلما أن دخل أبو نواس تلك الليلة الى مجلس سمر الخليفة انشده :

نضَتْ عنها القميصَ لِصبِّ ماءٍ ... فورّد وجهَها فرطُ الحياءِ
وقابلتِ الهواءَ وقد تعرّتْ ... بمعتدلٍ أرقَّ من الهواء
ومدّت راحة كالماء منها ... إلى ماءٍ مُعَدٍّ فى إناء
فلما أن قضتْ وَطَراً وهمّت ... على عجلٍ إلى أخذ الرِّداء
رأت شخصَ الرقيب على التدانى ... فأسبلت الظلامَ على الضياء
وغاب الصبحُ منها تحت ليلٍ ... وظلَّ الماءُ يقطر فوق ماء
فسبحان الاله وقد براها ... كأحسن ما يكون من النساء

فنادى الرشيد على سبيل الاستغراب : « سيفا ونطعا يا غلام ! » . فقال الشاعر : « ولم يا أمير المؤمنين ؟ » . فقال : « أمعنا كنت ؟ » قال : « لا ، وانما شيء خطر لى بالبال فقلته » . فضحك الخليفة ثم أمر له بجائزة

واذا صحت هذه النوادر المتكررة ، فلا مندوحة من القول مع الأقدمين بأن أبا نواس كان له بين خدم القصر ووصيفاته من كان يوافيه على الفور بما يجرى فى المقاصير ، وما يقع بين الخليفة وجواريه خاصة من وقائع الصبوة ومواقف الغزل ليكون له من ذلك مدخل الى قلب الخليفة ؟

ولكن أتراها صحيحة هذه النوادر وأمثالها مما رواه بعض المتقدمين وجعل يردده غيرهم من بعدهم ويضيفون اليه ؟ ان القول بصحتها له مؤيدون ، وهم يجعلون لأبى نواس عند الخليفة هرون منزلة النديم الذى داخله وخالطه وانبسط اليه وتكشف معه ، حتى أنه أخذ المقام الاول بين الندمان وبنى لنفسه فى نهر طابق الدور التى لم تبن مثلها عظماء الناس .

وعلى الضد من ذلك المترجمون الذين قيل انهم المحيطون علما بأحوال أبى نواس . فهم يجزمون بأن هذه الحكايات عن ابى نواس والرشيد موضوعة ، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط ولا رآه ، وانما دخل على محمد الأمين ، وانه ما ملك عشرين ألف نواة ، فكيف بعشرين ألف درهم !

وأغلب الظن أن الفريقين ذهبا مذهب الغلو فى الوهم ، وأن القولين لا يسلمان من المبالغة والسرف فى الجزم . ولكى نتبين وجه الرأى ، يحسن أن نتمثل حياة البلاط فى ذلك العهد

الخليفة فى ساعات فراغه

كان هرون فى تفويضه أمور الدولة وتدبيرها الى البرامكة يجد من وقته الفراغ للتملى بنعيم الأسرة ، بين زوجاته وأخصهن بالمكانة عنده زبيدة ، وأمهات أولاده اللاتى يزدن على العشرين ، وجواريه وهن زهاء الألفين نذكر منهن ضياء وهيلانة الرومية ، وأولاده وأنبههم عندنا ذكرا الأمين والمأمون وسائر أفراد بيته. وكذلك وجد الخليفة الفراغ للجلوس الى أهل الفقه والأدب ، وللخلوة بعد ذلك لمجلس المنادمة والشراب ، وكان هرون تام الخلقة جميلا ، طويلا ، أبيض مسمنا ، له وفرة وقد وخطه الشيب . وقد اشتهر بشرب النبيذ الذى كان يرخص أهل العراق فى شربه . وكان يحتفل باحياء أبهى ما عرف فى بلاط الملوك من حفلات السماع يشترك فيها أعلام المغنين والمغنيات على أنواع المعازف والملاهى

ولا عجب فأولاد المهدى كلهم من محبى الموسيقى لما كان يجتمع فى قصر ابيهم من القيان ، ولطول ما تردد فى مجلسه من الغنـاء والألحان . وكان هرون يقرب الشعراء ويحب المديح من شاعر فصيح ويجزل العطاء له . وكان مما يزيد فى سروره بالشعر وطربه عليه ان يعمل فيه ما يوافقه من اللحن ويغنى له . ولكنه على كل حال كان من أحكم النـاس بصرا بالشعر واصحهم تذوقا لجيده وأشدهم تأثرا به . فلا يمكن وهرون الرشيد بهذا الموضع أن يخفى عليه شأن شاعر كأبى نواس والا يلتفت الى براعة معانيه وحلاوة لفظه

الأسانيد على تقدير الخليفة للشاعر

واذا كان المعقول لا يكفى ولا بد من منقول ، فالدلالة حاضرة فيما رواه اسحق الموصلى من تقـديم الرشـيد لشاعرنا مع ما كان من مماراة جعفر البرمكى فى أمره وتعصب اسحق نفسه عليه وقتئذ لشىء جرى بينهما حتى صار لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا

ولقد كان شعر أبى نواس مما يتغنى به بين يدى الرشيد فى مجالس الغناء العامرة الزاهرة ، ومن ذلك هذه المقطوعة التى غناها سليم بن سلام فيما كان مولعا به من الاهزاج :

أصـبح قلبى به نُدوبُ ... أندَبه الشادنُ الربيبُ

تمادياً منه فى التصـابى ... وقد علا رأسىَ المشيب

أظنني ذائقاً حمـامى ... وأنّ إلمـامه قريب

إذا فؤادٌ شجاه حبٌّ ... فقلّما ينفـع الطبيب

ونزيد عليه هنا ما رواه كاتب الرشيد اسماعيل بن صبيح ، قال :

قال لى الرشيد : « يا اسماعيل ! ابغنى وصيفة مليحة مقدودة شكلة ، حلوة متكلمة ، ظريفة عالمة ، تسقينى ، فان

الشرب يطيب من يد مثلها » . فقلت : « يا سيدى ! على الجهد » . فقال : « اجعل أمامك قول هذا العيار — يريد أبا نواس — وامتثل فيها ما حد فى مثلها لك » . قلت : « يا سيدى ! فما قوله ؟ » . فقال الرشيد :

« من كف ساقيةٍ ناهيكَ ساقيةً
فى حسن قدٍّ وفى ظَرْفٍ وفي أدبِ
كانت لربِّ قِيانٍ ذى مغالبةٍ
بالكشح محترفٍ ، بالكشخ مكتسب (١)
فقد رَوَتْ ووعتْ عنهن ، واختلفت
ما بينهن ومن يهوَيْنَ بالكتب
حتى إذا ما غلا ماءُ الشباب بها
وأفعمت فى تمام الجسم والقصب
وجُمشت (٢) بخفىِّ اللحظ فانجمشتْ
وجرَّتِ الوعدَ بين الصدق والكذب
تمتْ فلم يرَ إنسانٌ لهــا شَبهاً
فيمن بَرا اللهُ من عُجمٍ ومن عرب
تلك التى لو خلتْ من عين قيِّمها
لم أقضِ منها ولا من حبها أرَبى »

واقطع مما تقدم فى تقدير الرشيد لشاعرنا ومعرفته لفضله ومغالاته بقدر ما رواه يوسف بن الداية ، قال : غاب

(١) الكشخ : الجمع بين النساء والرجال (٢) جمشها : لاعبها

أبو نواس عنـا وعن اخوته غيبة طويلة متصلة فلم نعرف له خبراً . وجعلنا نسأل عن امره فلم نعلم له أثرا ، حتى مضى نحو من سنة ، فظن أنه قتل . وبلغ ذلك الرشـيد فقال : « والله ان صح أنه قتل لأقتلن قاتله ولو كان محمدا ولدى . انظروا كل من كان هجاه من الناس فاكتبوا اسمه وارفعوه الى » . فارتجت لذلك بغداد . فلما كان على راس الحول ، اذا نحن به قد وافى . فقلنا له : « يا أبا على ! قد غبت عنا هذه الغيبة فغممتنا وظننا بك الظنون » . قال : « كنت فى موضع أرتضيه واشتهيه » . فقلنا له : « ألم تسمع بافتقادنا لك ، وقول الرشيد فيك ؟ » ولم يبق أحد من اخوانه الا عذله ، وقالوا : « ان فى هذا تعريضاً لنفسك للآفات » . فأنشأ يقول :

إنى لفى شغلٍ عن العالمين بالراح والريحان والياسمين

عند غزالٍ حسَنٍ وجهه قلبى حبيسٌ بهواه رَهين

ونذكر الى جانب ذلك حديث الحسين بن الضحاك الشاعر ـ وقد كان وأبو نواس تربين نشآ فى مكان واحـد وتأدبا بالبصرة وكانا يحضران فيها مجالس الأدباء متصاحبين ـ قال : « خرج أبو نواس عن البصرة قبلى واقام مدة ، واتصل بى ما آل اليه أمره ، وبلغنى ايثار السلطان وخاصته له ، فخرجت عن البصرة الى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم وعددت فى الشعراء ، وهذا كله فى أيام الرشيد الا انى لم أصل اليه »

وأخيرا ما نقـله بعض الرواة عن مطيع ـ وكان خادما للبرامكة ثم دخل بعدهم فى خدمة الرشيد ـ قال : « كنت واقفا على رأس الرشيد اذ دخل ابو نواس (وذلك بعـد قفوله من رحلته الى مصر كما سيأتى) فقال له الرشيد : انشدنى قولك فى الخصيب « محضتكم يا أهل مصر نصيحتى » فأنشده اياها ، فلما بلغ قوله :

فان يكُ باقٍ افكُ فِرعونَ فيكمُ
فان عصـا موسى بكفّ خصيب

قال له الرشيد : الا قلت : « فباقى عصـا موسى بكف خصيب » ؟ فقال الشاعر : « هذا أحسن ، ولم يقع لى »

واحسبنا بعد هذا الذى سمعنـاه من الخبر المتواتر من مختلف المصادر لا نكون متعسفين اذا لم نستبعد دخوله على الرشيد ، ونحن نرجح ذلك بعد زوال دولة البرامكة

الترفع عن منادمة الخلعاء

ولـكن الذى لا نرجـحه ونستبعده كل الاستبعاد هو ملازمته الرشيد ومنادمته له على الوجه الذى يقولون . فقد كان خلفـاء بنى العبـاس حتى ذلك الحين ـ مع تفرج من تفرج منهم ببعض اللعب واللهو ـ محافظين على وقار الملك . كما أن لهوهم لم يكن كله لهو ترف . فقد كان المهدى مولعا بالصيد واللعب بالدبوق والصوالجة . وكذلك كان الرشيد يتصـيد ويلعب بالصـوالجان فى الميـدان ، الى جانب لعبه بالكرة والطبطاب ورميه فى البرجاس بالنشاب ، مع احتفاله بشهود السباق وكلفه بالشطرنج . ثم انهم حتى فى خلواتهـم للشرب واللهـو كانوا كارهين للتبذل وطرح الاحتشام . فالمهدى كان شديد الحب للنساء ، ومع هـذا كان ينهى بشارا عن الفحش فى الغزل، واذا حن الى سماع شىء منه قال لبشار : « قل فى الحب شعرا ولا تطل ولا تسم احدا » . وكذلك لما اتصل بالرشيد قول أبى العتاهية فى عتبة متغزلا :

ألا انّ ظبياً للخليفـة صادنى ... ومالى على ظبى الخليفة من عدْوَى

غضب الرشيد وقال : « أسخر منـا ، فعبث ! » . وأمر بحبسه وطال فى الحبس مكثه . وكان المهدى يسمح لمنادميه

فى مجلس السماع أن يشربوا وأن كان لا يشرب ، ولكنه حين رأى ابراهيم الموصلى يشرب فى منازل النـــاس ، ويتبذل معهم ويجيئه منتشيا ، أمر به فضرب وحبس . والرشيد على حبه للتنعم واستمتاعه بألوان الترف كان يصلى فى كل يوم مائة ركعة ، ويكثر من الخروج للحج ومعه مائة من الفقهاء ، واذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والـكسوة الظـاهرة . وكان يكره الخوض والمراء فى الدين ، وتسرع دمعته حتى تخضل لحيته لوعظ الواعظين

وما دام أمر الخلفاء كذلك ، فليس يصح فى العقل اتخاذهم لمثل أبى نواس جليسا ملازما ، وانما جاز لأبى نواس أن يكون ذلك النديم حين ولى الخلافة محمد الأمين

فى زمرة الشعراء المادحين

ولما كان الرشيد قد أصبح بعـد نكبة البرامكة صاحب الأمر كله والمتصرف برأيه دون سواه ، والمطلق اليد فى خزائن الدولة والمتحكم فى رقاب الرعية ، فقد أقبل أبو نواس يتحين المناسبات الرسمية ليمدحه فيمن كان يمدحه من الشعراء المنقطعين لذلك . وهو وان لم يكن فى طبقتهم فى هذا الباب قد كانت له مع ذلك فى المديح أبيات يعدونها من غرر الشعر وفرائده

وقد نظم الشاعر فى انتصارات جيوش الخليفة فى آسيا الصغرى على جيوش الروم ـ حين قطع صاحبهم نقفور الجزية ـ قصيدة فى مدح الرشيد يقول فيها :

إنى حلفتُ عليك جهد أليّة(١) ... قسما بكل مُقصرٍ ومُحلقِ

لقد اتقيتَ اللهَ حقّ تقاته ... وجهدتَ نفسك فوق جهد المتقي

وأخفتَ أهلَ الشرك حتى إنه ... لتخافك النطفُ التى لم تخلقِ

(١) الآلية : القسم

وبضاعةُ الشعراء إن أنفقتها(١) نفقت، وان أكسدتها لم تنفق

وفى سنة ١٨٩ تم للرشيد أخذ البيعة بولاية العهد لأولاده الثلاثة الأمين فالمأمون فالمؤتمن ، واحدا بعد الآخر . فقال شاعرنا فى ذلك :

تباركَ مَن ساس الأمورَ بعلمه وفضل هاروناً على الخلفاء
نزالُ بخيرٍ ما انطوينا على التقى وما ساس دنيانا أبو الأمناء

ولما ان شخص هارون الرشيد الى بلاد الروم لعشر بقين من رجب عام ١٩٠ واتخذ قلنسوة يلبسها مكتوبا عليها : (غاز ـ حاج) تبارى الشعراء فى ذكر ذلك ، فقال أبو المعالى الكلابى :

فمن يطلبْ لقاءَك أو يُرِدْهُ فبالحرمين أو أقصى الثغورِ
ففى أرض العدوِّ على طِمِرٍّ(٢) وفى أرض الترفه فوق كورِ(٣)

وكان شاعرنا أبو نواس ممن قالوا فى ذلك :

هارون ألفنا ائتلافَ مودّةٍ ماتت لها الأحقادُ والأضغان
فى كل عام غزوةٌ ووفادةٌ تنبتّ بين نواها الأقران(٤)
حجٌّ وغزوٌ مات بينهما الكرى باليعملات شعارُها الوخدان(٥)

فالشاعر كان عند باب الرشيد فى زمرة المادحين ، ولم يكن له قط بالنديم

على أنه لم يكن موفقا فى هذا الميدان ، بل كان لغيره فيه قصب الرهان ، سواء أكان السبب قصور شعره أم غير ذلك من مجريات أمره . فعزم على الخروج الى مصر

---

(١) انفقتها : روجتها
(٢) الفرس الجواد الطويل القوائم (٣) رحل البعير (٤) تنقطع حبال المطايا (٥) اليعملات النوق المطبوعة على العمل السريعة السير

أبو نواس في مصر

كانت مصر من وفرة الخيرات التي يغلها واديها الخصيب بفضل نيلها المبارك ، أغنى ولايات الامبراطورية الاسلامية، وكانت جباية خراجها الركن الأهم لخزانة الخلافة . وقد بلغ من اهتمام الخلفاء بهذه الجباية وتعويلهم عليها وازدياد شرههم اليها أن أخرجها بعضهم من يد عاملهم على مصر ، وندبوا صاحب الخراج من قبلهم ليكون أوثق صلة بهم وأحرص على مصلحتهم

ويذكر التاريخ من أصحاب الخراج من بالغوا في الزيادة على أصحاب الالتزام حتى ارتفعت جملة ما حمل الى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك من خراج مصر الى اثنى عشر ألف ألف دينار

ومهما يكن من انحطاط الخراج دون ذلك كثيرا على أيام العباسيين ، فانه ما برح ذا شأن خطير في تدعيم خزانة الخلافة ببغداد كما هو ظاهر جلى فى رسالة محمد بن زياد الحارثى للرشيد اذ يقول : « مصر خزانة أمير المؤمنين التى يحمل عليها مؤنة ثغوره وأطرافه ، ويقوت بها عامة جنده ورعيته ، فليس أمرها بالصغير ولا فسادها بالهين ، ولا ما يلتمس به صلاحها بالامر الذى يأتى بالرفق ولا يصبر له على مشقة »

عدم استقرار الولاة

ولقد عمد خلفاء بنى العباس الى الاكثار من تغيير الولاة

على مصر والمداولة بينهم حتى الثقات منهم ، مددا متقاصرة، وكانت هذه سياستهم مع عمالهم فى أطراف الأمبراطورية الاسلامية الواسعة ليأمنوا استفحال أمرهم فى الأطراف الموكولة اليهم والطمع فى استقلالهم بها

بيد أن ما ترتب على هذه السياسة من عدم الاستقرار جر على مصر ما جره لا محالة من اهمال مرافقها الحيوية من تدبير الرى والاستكثار من الترع وتقدير الأقنية واقامة الجسور وكرى الخلجان وسائر ما فيه صلاح الزراعة ، مع تأمين الطرق وتيسير التجارة • ولم يلبث هذا الاضرار بمرافق مصر من قلة الاستقرار أن ظهرت آثاره فى نقص خراجها أيام الرشيد • وقد كان الرشيد أكثر خلفاء بنى العباس تولية وعزلا لعماله على مصرحتى ندر فيهم منطالت مدته على العام ، ومنهم من لمتجاوز ولايته الشهرين فماكاد يبلغ الفسطاط حتى دعى الى بغداد،وكان من ذلك أن بلغت عدتهم فى اثنتى عشرة سنة ستة عشر واليا

ولاية الخصيب على الخراج

وكان الرشيد بعد نكبة البرامكة قد أراد استعمال قوم لم يعملوا معهم ، فقلد فيمن قلدهم من العمال على الامصار الحسين بن جميل على ولاية مصر وذلك فى ١٩ شعبان سنة ١٩٠ ، وجعل على خراجها أبا النصر الخصيب بن عبد الحميد العجمى الذى تنسب اليه منية بنى خصيب المعروفة اليوم فى صعيد مصر بالمنيا • وكان الخصيب هذا رئيسا فى أراضيه ، فانتقل الى بغداد وصار كاتب مهرويه الرازى ، ثم انتقل الى امارة الخراج على مصر

والذى عليه الرواة أن الخصيب كتب الى أبى نواس يستزيره وهو من خواصه فخرج اليه • وخرج فى وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبى نواس ، حتى اجتمعوا ببستان الرقة فى

الجانب الغربى من بغداد ، فقال بعضهم لبعض : « هــذا أبو نواس يمضى الى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحد معه ، فارجعوا عن قرب » . وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار اليهم مسلما ، ثم قال لهم : « قد بلغنى ما عزمتم عليه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ، فانى والله لا أبدأ الا بكم » . فشكروه وسكنوا الى قوله

فى الطريق الى مصر

ومضوا جميعا الى عقرقوف ، وتقع غربى بغداد على ستة فراسخ ، فلحقوا بالقافلة الراحلة منها الى مصر، وهى رحلة عظيمة المشقة ، بعيدة الشقة ، مسافتها خمسمائة وخمسون فرسخا . وقد بكرت القافلة فى المسير ، أول ما لاحت فى آخر الأفق من الفجر التباشير ، وتابعت سيرها ناشطة غير مترفقة، فلم تتوقف الا بعض ساعة للاراحة فى الهاجرة. وما وافى المساء حتى كان الركب وراء الانبار فى وادى «عين اباع » . فأدلجوا فى الغسق ما استطاعوا ، ثم نزلوا للتعريس . وبعد هجعة من الليل ، استأنفت القافلة المسير فى الهزيع الاخير ، وعند انبلاج الصبح كانوا عند ماء « النقيب » فشربوا حتى ارتووا ، وأوردوه ابلهم ، وتزودوا منه ملء زقاقهم . ثم انطلقت القافلة فأوغلت بهم غربا فى برية الشام حتى أشرفوا على آثار « تدمر » القديمة وأطلال معابدها العظيمة

ودخلت القافلة الشام ، ولعلها عرجت على حمص ، فهى التى تلى تدمر من قريب . ويرجح ذلك ما رواه النضر بن أمية الحمصى الشاعر ، قال :

« لما خرج أبو نواس الى مصر ، كتب الناس الينا بذلك، فلم نزل نرقبه حتى قيل لنا قد قدم . فجئت الخان لأسأل

عن خبره ، فاذا انسان قاعد على درجه ، متشح بخلوقية(١) يستاك ، فدنوت منه ، فقلت : « يا فتى ، انسان قدم من العراق يقال له أبو نواس »،وكان معي ابن لى حسن الوجه جـــدا • فقال : « ما تجعل لمن يدلك عليه ؟ » • قلت : « حكمه » ، قال : « قبلة من هذا الغزال الذى معك » ، قلت له : « ويحك ! هذا ابنى » ، قال : « آدم خير منك،والناس يقبلون بنيه ويلاعبونهم » ، فقلت له : «أنت أبو نواس ؟»، قال : « أنا هو ، فمن أين عرفتنى ؟ » ، قلت : « بنـــور الايمان » ، قال : « لا والله ، ولكن بظلمة الكفر ، فمرحبا بك » • فما زلت أنادمه ، وما فارقته حتى ارتحل عن حمص وشيعته • »

وقد يطعن فى صحة هذه الرواية أنه لا شاهد فى شعر أبى نواس على تعريجه فى طريقه الى مصر على مدينة حمص، غير أنه غير مســتبعد مع ذلك أن يكون قد ورد ذكرها فى بيت سقط من سياق قصيدته المصرية

وأيا كان الامر ، فقد انحدرت القافلة فى الديار الشامية الى غوطة دمشق • وهنا اجتازت أرض « جولان » الصخرية وقد دميت منها أخفاف المطايا ، ثم لاقوا بعدها الويل فى مسراهم بالليل الى « بيسان » وهى بلدة حارة وبئة بالاردن بالغور الشامى بين حوران وفلسطين • ثم أمعنت القافلة فى فلسطين ، فجاوزوا بالرملة ثم بنهر أبى فطرس قريبـــا منها . ومضوا متعجلين فلم يعرجوا على بيت المقدس لفرط استعجالهم بلوغ مصر • وأخيرا بلغوا غزة على الحدود بين فلسطين ومصر • وكان دخولهم الارض المصرية من ناحيـــة افرما حتى أتوا الفسطاط

فى حضرة الخصيب

واتصـــــل خبر قدوم أبى نواس بالخصيب ، فجلس له

(١) ثياب فارسية كانت معروفة بذلك الاسم

جلوسا عاما فى مجلس جليل . وأقبـــل أبو نواس ومعه جماعة الشعراء ، فدخل وحده اليه ، وبقى الشـــعراء فى دهليزه ، فسلم عليه وقال :

يا أيهذا الملك المؤمَّلُ   قد استزرت عصبة فأقبلوا

وعصبة لم تستزرهم طفّلوا   رجوك فى تطفيلهم وأملوا

وللرجاء حُرمة لا تُجهل   فافعل كما كنت قديماً تفعل

فاستحسن الخصيب قـــوله وكل من حضره ، وقال له الخصيب : « من شريكك ؟ » . فعرفه أبو نواس خبر الشعراء ، فقال : « اجلس فقدر لهم صلاتهم على حسب مقاديرهم فى نفسك » . فقدر أبو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها عليه ، فوقع باطلاقها ، فأطلقت من وقتها . وقال له : « أخـــرج ففرقها عليهم ، واصرفهم ، ففعل ذلك ، وعاد اليه

واحتفل الأمير بالشاعر ، وأكرمه غاية الاكرام وقربه ورفع موضعه . ولما استقر به المجلس استنشده وكان عنده جماعة من الشعراء . فقال أبو نواس : « هنا جمـاعة من الشعراء هم أقدم منى وأسن . فأذن لهم فى الانشاد ، فان كان شـــعرى نظير أشعارهم أنشدت والا أمســـكت » . فاستنشدهم الامير فأنشدوا المدائح فيه . فتبسم أبو نواس وقد رأى أشعارهم غير مقاربة لشعره . ثم قال : « أنشدك أيها الأمير قصيدة هى بمنزلة عصا موسى تتلقف ما يأفكون » فقال : « هات » . فأنشده قصيدة طويلة من بلاغاته مطلعها :

أجارةَ بيتينـــا أبوكِ غيورُ   وميسورُ ما يُرجى لديكِ عسيرُ

وفى القصيدة عدا المديح المعتاد وصف للقافلة السيارة ورحلته معها من العراق عابرا البيداء الى البلاد الشاميـــة قاصدا مصر . وقد أتى الشاعر فى هذه القصيدة على ما تقدم بنا ذكره من المنازل التى مر بها والبلاد التى حل فيها

ولقد اهتز الخصيب لما جاء على لسان الشاعر من المديح .

ولما بلغ الى قوله فى مخاطبة جارته فى بغداد قبل رحلته :

تقول التى من بيتها خفّ مركبي :

« عزيزٌ علينا أن نراكَ تسيرُ

أما دون مصرٍ للغنى مُتطلبٌ ؟

بلى ، ان أسباب الغنى لكثيرُ »

فقلت لها ـ واستعجلتها بوادرٌ

جرت ، فجرى فى جريهنّ عبير :

« ذَريني أُكثّرْ حاسديك برحلة

الى بلد فيها (الخصيبُ) أمير »

قال الخصيب : « اذن يكثر حسادها وتبلغ املها » ، وأمر له بألف دينار

فلما كان من غد ذلك اليوم ، دخل ابو نواس الى مجلس الخصيب كذلك ، وانشده قصيدة اخرى ، استهلها بالنسيب على طريقته ، ثم انتقل الى وصف الناقة التى استقلها فى قصده الى الممدوح على طريقة الاقدمين من شعراء العرب ، واخيرا رفع عقيرته بهذه الخاتمة المشهورة :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ | فتدفقا فكلاكما بحرُ
لا تقعدا بي عن مدَى أملي | شيئاً ، فما لكما به عذر
ويحقُّ لي اذ صرتُ بينكما | أن لا يحلّ بساحتي فقر
النيل ينعش ماؤه مصراً | ونداكَ ينعش أهلَه الغمر

فقال الخصيب : « اذن لا يخيب املك ، ولاينقطع مرادك » ثم أمر له بألف دينار اخرى

ولشاعرنا فى مدح الخصيب أكثر من قصيدة ، وهى قاطعة فى الدلالة على صحة ما ردده شعراء البرامكة بعد نكبتهم وزوال دولتهم من كساد تجارة الشعر وانفضاض سوقه فى بغداد على حد قول سلم الخاسر فى رثائه لهم :

هوت أنجم الجدْوَى ، وشُلت يد الندى
وغاضت بحور الجود بعد البرامك

وهذا الكساد بعدهم هو الذى اضطر شاعرنا النواسى الى التغرب عن وطنه والنزوح عن العراق الى مصر طمعا فى نوال الخصيب والتماسا للغنى والوفر :

لم تدْرِ جارتنا ولا تدرى ... أنَّ الملامةَ ربما تغرى
هبت تلومك غير عاذرةٍ ... ولقد بدا لك أوسعُ العذر
واستبعدتْ مصراً وما بعدت ... أرض يكون بها أبو نصر
ولقد وصلتُ بك الرجاء، ولى ... مندوحةٌ لو شئتُ عن مصر
فيما تنافسه الملوك من الـ ... ـحُور الحسان ، وعاتِق الخمر
ومحدِّث كثرت طرائفه ... عانٍ لدىَّ ، لقلة الوَفر
انى لآمل يا خصيب على ... يدك السعادةَ آخرَ الدهر
وكذاك نِعمَ السوق أنت لمن ... كسدت عليه تجارة الشعر
أنت المبرِّز يوم سبقهمو ... ان الجواد بعرفه يجرى
عرَف الخليفة أن نعمته ... حلت بساحة طيب النشر
كان اذا صعب الأمور به ، ... ماضى العزيمة طيب الذكر
فانعمْ بسيبك غُلة نزحت ... بى عن بلادى، وارتهن شكرى

ومع ذلك فقد حرص ابو نواس فى سياق هذه القصائد على ذكر أمير المؤمنين الرشيد ، فهو اليوم الحاكم بأمره دون غيره ، والمستبد بسلطته فى أرجاء دولته . ذلك فضلا عن طمع الشاعر فى أن لايخطىء عند عودته موضع رضـــاه وحظوته . ومن ذلك قول شاعرنا فى سياق قصيدته الاولى بين يدى الخصيب :

فمن يكُ أمسى جاهلا بمقالتى فان أميرَ المؤمنين خبير

فما زالتَ توليه النصيحة يافعاً الى أن بدا فى العارضين قتير

اذا غاله أمرٌ ، فامّا كفيته واما عليه بالكفاء تشير

تجارة الشعر

ولم يقصر شاعرنا تجارة الشعر على أمير الخراج وحده ، فمدح أثناء مقامه فى مصر آل حديج وغيرهم . فمن حرموه منهم أو قصروا فى حقه على حسب زعمه ، عاد فذمهم على عادة الشعراء المستجدين ، وذم من اجلهم المصريين أجمعين :

دم المكارم بالفسطاط مسفوح

والجود قد ضاع فيها وهومطروح

يا أهل مصر لقد غبتم بأجمكم

لما حوى قصبَ السبق السماميح

أموالكم جمة ، والبخل عارضها

والنيل معْ جوده فيه التماسيح

على انه لا جدال فى أن النواسى قد اجتمعت له فى مصر جملة طائلة من المال . ويغنينا عن اكتناه ذلك واستنتاجه ، ما قرره الشاعر نفسه فى منطوق شعره :

ياسائلي كيف حالي ؟ تنبيكه أشعاري
بمصر صرتُ غنياً عن سائر الأمصار
بها استقام طباعي وتمّ خلع عذاري

مجون ابي نواس في مصر

وهو هنا ماض كعهده ، في باطله ولهوه . فكان يخرج أحيانا في زي الشطار وتقطيعهم ، بطرة قد صففها ، وكمين واسعين ، وذيل مجرور ، ونعل مطبق ، يدور في أسواق مصر في طلب الندمان من الغلمان الحسان . ومن نوادره التي يفكه ابن منظور الأنصاري المصري ـ صاحب لسان العرب ـ باعادة حكايتها والافاضة في تفصيلها ، ما وقع للشاعر حين كان يختلف الى أسواق مصر يومذاك مع ثلاثة غلمان أقران أخدان ، حسان الوجوه كأنهم أقمار ، أصحاب ظرف وأدب ومروءة وحالة حسنة حتى لم يكن بمصر أحد يتقدم عليهم في صباحة الوجوه ، أحدهم من ولد شبيب بن ربعي التميمي ، والآخر من ولد عطية بن الاسود الخارجي ، والثالث من أولاد الدهاقين . ولعل هذه النادرة ـ مع تعيينها الأسماء والأنساب ـ كأمثالها من النوادر مصنوعة موضوعة من قبيل التمهيد والتشويق لتكون بين يدي ما يروى للشاعر من شعر ماجن

والناظر في ديوان أبي نواس ، المتتبع لاشعاره في مفترق مواطنها ، يقع له هنا وهناك ما يستدل منه على زيارته لبعض الاديرة القبطية وشربه فيها ، وان كان لم ينص على اسم واحد منها أو يعين لنا موضعه :

هاتِ من الرّاح فاسقني الراحا أماترى الديكَ كيف قد صاحا
من كف قبطية مزنرة تجعلهـــا للصبوح مفتاحا
تقول للقوم من مَجانتها « بالله لا تحبسنّ الاقداحا »

بيد ان الاحوال فى مصر لم تكن مما يطمأن اليه . فقد كانت لا تسكن فتنة حتى تنشب فتنة ، من زيادة الاسعار واشتداد الغلاء مع الشطط فى جباية الخراج . وكان يشترك فى هذه القلاقل الاقباط والمسلمون والنازلون من عرب قيس واليمانية . اذ كانت المعاملة المجحفة تعم الاهلين أجمعين ، ولا سيما المزارعين

ولقد تكرر فى خلافة الرشيد خروج عرب الحوف مما يلى فرع النيل الشرقى ، وتمردهم السافر وممانعتهم فى الخراج وطردهم للجباة وقطعهم الطريق على المسافرين وسلبهم أموال التجار واجتراؤهم أحيانا على السير نحو الفسطاط يواجهون جند الحكومة ويتحدون سلطانها فى قصبة الامارة وعقر دارها . حتى اضطر الخليفة اكثر من مرة الى تسيير الجيوش الكثيفة من الشام تحت امرة كبار قواده الاعلام لاخماد الفتنة واستخراج الخراج عنوة

ولا نحسب ابا نواس الا كان على علم قبل قدومه الى مصر باخبار اهل الحوف وكثرة انتقاضهم وتمردهم ، بدليل ما ورد فى قصيدته الاولى من اشارة لمسير الخصيب صاحب الخراج الى اهل الجور او — على ترجيح تصحيفها — اهل الحوف ، والقبض على ثوارهم وجعلهم فى الوثاق ، اذ يقول :

وأطرقُ حياتِ البلاد (١) لحيّةٌ
خصيبيةُ التصميم حين تسورُ

سموتَ لأهل الجوْر فى دار أمنهم
فأضحوْا وكلٌّ فى الوثاق أسير

ولقد شهد شاعرنا ابو نواس طرفا من مشاهد هذا

---

(١) طرق القوم اتاهم ليلا ودهاهم ، ومنه الطارقة بمعنى الداهية

الشغب المتكرر من أهل مصر لاشتداد الغلاء وزيادة الخراج. فقد ماج الناس ذات يوم فىالمسجد الجامع وكانوا قد تواعدوا أن يجتمعوا فيه . وبلغ ذلك الخصيب نفسه وهو على شربه وعنده ابونواس. فقال الشاعر: « دعنى أيها الامير أكلمهم » فقال الامير : « ذاك اليك » . فخرج أبو نواس حتى وافى المسجد الجامع ، فصعد على المنبر ، واعتمد على عضادتيه ، وحول وجهه للناس وعليه ثياب مشمرات ، فقال :

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى
ألا فخذوا من ناصح بنصيب
ولاتثبوا وثب السفاة (١) فتحملوا
على حد حامى الظهر غير ركوب(٢)
فان يك باق إفك فرعون فيكم
فان عصا موسى بكف خصيب
رماكم أميرُ المؤمنين بحية
أكول لحيات البلاد شروب

ويقال انه لما سمعها الجمع تفرقوا فلم يبق منهم احد

وعاد ابو نواس الى مجلس الخصيب ، فأمر له بألف دينار ثالثة . واكبر الظن ان الشاعر بعد الذى رآه رأى العين من الشغب والخصام ، داخلته رهبة فأشفق على نفسه من اطالة المقام ، فلم يعتم أن استأذن الامير الجليل فى امضاء عزمه على الرحيل ، فأذن له بعد أن زوده من طرائف مصر

وقد اصدر الخليفة فى ٧ رجب سنة ١٩١ أمره لواليه على مصر الحسين بن جميل بأن يتولى كذلك أمر الخراج .

(١) الحية (٢) يريد بهذا الوصف السيف .

فانتهت بذلك امارة الخصيب . وعليه تكون امارة الخصيب على خراج مصر من ١٩ شعبان سنة ١٩٠ الى ٧ رجب سنة ١٩١ ، وتكون السنة التى قيل ان ابا نواس قضاها فى ربوع مصر واقعة فى هذه المدة

مصر كما يراها ابو نواس

وكان ابونواس يستحب من مصر جوها السجسج ويقول غابطا لأهلها : « ان دنياكم مستوية لا حر ولا برد عليكم . وانكم تتصرفون فى حوائجكم سائر نهاركم فى أوله وآخره وفى وسطه ، وليس هذا لاحد غيركم » . الا انه كان ممتلىء القلب رعبا من النيل لما سمعه من مزعجات القصص والاخبار عن تماسيحه . ولا نشك فى انه قضى المدة التى قضاها فى مصر لم تنحدر به مركب فيه ، ولعله لم يعرف حتى النزهة على شواطئه وحوافيه . وكيف لايكون ذلك كذلك ، والشاعر يشهد على نفسه فى بعض شعره بأنه من خوف التماسيح لم ير النيل رأى العيان ، اللهم الا فى القلال والكيزان :

أظهرتُ للنيل هجراناً ومقلية (١)
اذ قيل لى انما التمساح فى النيل
فمن رأى النيلَ رأىَ العين من كثب
فما أرى النيلَ الا فى البواقيل (٢)

كما انه كان يكره شراب مصر ولا يمكنه الخمر بها الا ماكان يحمل الي الخصيب ويخص به ، وكان الخصيب يدخره لنفسه ويضن به علي من سواه ولو كان ضيفه ، حتى قال

---

(١) المقلية : البغض (٢) مفردها بوقال واصلها رومى Baucalis وهو اناء كالكوز بلا عروة

ابو نواس محتجا : « ما نرى استئثار الخصيب علينا بشرابه ! » ثم قال كالمحدث نفسه :

يُخَصُّ « خصيبٌ » بالشراب وتُرتجى
لديه نوالا ، ان ذا لعجيبُ

وليس « خصيبٌ » بالخصيب لضيفه
ولكنه وعرُ المحلِّ جديبُ

ومما لاشك فيه ان لابى نواس بمصر قصائد لم يأتنا خبر عنها . وقد قال احمد بن ابى طاهر ان المصريين يروون له أشعارا لم تقع الى اهل العراق . وروى عن ديك الجن الحمصي انه قال : « دخلت مصر بعد ابى نواس ، فوجدت له بها أشعارا ليست عند اهل العراق » . وفى رسالة تنسب الى أبى العباس فى شعر ابى نواس انه سقط من الشعر الذى قاله بالشام ومصر شيء كثير

اشتياق الشاعر الى وطنه

على ان الثابت المحقق أن أبا نواس كان وهو فى مصر شديد الشوق دائم الحنين الى المعاد الى بغداد ، ولم يكن يحتبسه تلك المدة اليسيرة فيها الا طمعه فى عطاء الخصيب

اذا ذُكرتْ بغدادُ لى فكأنما
تحرك فى قلبى شَباةُ سِنانِ

وأوبةُ مشتاق بغير دراهم
الى أهله من أعظم الحدثان

ولعل الذى جعله يبرم بها ويجتويها ويستثقل ظلها ويستكره المقام فيها عدم استجادته لشرابها وجهله بمعاهد لهوها ومخالفته لاهليها فى ايثارهم الكتمان والتستر ، مع عدم كمال اللذة عنده الا بالتهتك والمجاهرة . فنراه فى مصر

لا يفتأ يذكر من بغداد وارباضها تلك الحياة اللاهية الصاخبة التي لا مشبه لهـا في مظاهر اللذة والحبور الا ما اشتهر في العصور الحديثة عن باريس مدينة النور :

ذَكَرَ الكرْخَ نازحُ الأوطانِ
فصبا صبوةً ولاتَ أوان

ليس لي مُسعدٌ بمصر على الشو
ق الى أوجهٍ هناك حسان

نازلات من السراة فكرْخا
يا ، الى الشط ذي القصور الدواني

إذ لِبابِ الأمير صدرُ نهاري
ورواحي الى بيوت القيان

واغتفالي المولى لأختلس الغمـ
زةَ ممن أحبه بالبنان

واعتمالي الكؤوس في الشرب تسعى
مُترعات كخالص الزعفران



أبو نواس في سجن المطبق

في بغداد

انصرف شاعرنا أبو نواس عن مصر ، بعد أن أصاب من عطاء أمير خراجها أبى نصر الخصيب غاية ما كان فى الامكان اصابته ، وبلغ من ذلك ما ليس يطمع فى المزيد عليه . ولم تكن مصر بعد ذلك من همه ولا اربه ولا موضع هواه . فقد كان المقام فيها مما لايطيب لشاعر مثله الفت نفسه من أساليب الحياة وألوان الحضارة الفارسية ومختلف النزعات الثقافية ما يفتقده هنا ويكاد لايقع على أثره . ولقد عاد الشاعر الى العراق فكانت تعاوده ذكريات عن مواضع حله وترحاله فى مراحل اسفاره فى الشام والجزيرة ، فيشتاقها ويحن اليها فى أشعاره ، الا مصر فلم يكن لها فى طيب ذكرياته نصيب ، على الرغم من عطايا الخصيب

وكان منصرف الشاعر عن مصر كما أسلفنا فى منتصف عام ١٩١ . وقد سلك فى عودته الطريق التي سلكها فى مقدمه أو قريبا من ذلك . ولكنه كان فى هذه المرة ميسور الحال ، كثير المال ، عامر الوفاض فهو ينزل على كل مدينة يمر بها ويكون لها فى واسع محفوظه شهرة بالملاهى والخمر

ويحكى انه لما انصرف من مصر ، مر — فى اجتيازه الشام — بحمص ، فرأى كثرة خماريها ، وجودة الشراب فيها ، وترك الشاربين لها كتمان شربها ، فأعجبه ذلك وكان قد طال بمصر حرمانه منه ، فأقام بها مدة مغتبقا ومصطحبا . ثم

عاج على دير الرصافة ، وهى رصافة هشام ، فبات فيه ليلته وقضى سحابة اليوم التالى ، ويشهد بذلك قوله :

ليس كالدَّير بالرُّصافة دير
فيه ماتشتهى النفوسُ وتهوى
بتُّ فيه ليلة فقضيتُ أوطا
راً ، ويوماً ملأتُ قطرَيه لهوا (١)

ثم اجتاز بعانة ، من أعمال الجزيرة بين الرقة وهيت ، وهى مشرفة على الفرات ، فسمع اصطخاب الماء فى الجداول ، فقال : « اذكرنى هذا قول الاخطل :

من خمر عانة ينصاعُ الفؤادُ لها   بجدول صخبِ الآذيِّ مَوَّارِ

واقام فيها ثلاثا يشرب من شرابها ، ثم قال : « لولا قربها من قطربل ، ومجاذبة الدواعى اليها ، لاقمت بها أكثر من ذلك » ومضى فلما دخل الانبار تسرع الى بغداد ، ولكنه لم يتمالك حين بلغ ضاحية بغداد أن عدل الى قطربل وهو يقول : « ما قضيت حق قطربل ان أنا لم أبطؤ بها » . فأقام ثلاثا حتى أتلف فضلة كانت معه من نفقته ، وباع رداء معلما من اردية مصر ، ولعله مما اهداه الخصيب اليه من طرائف ، وقال عند انصرافه من قطربل :

طربتُ الى قُطْرُبّل فأتيتُها
بألفٍ من البيض الصحاح وعَيْن
ثمانين ديناراً جياداً أعُدُّها
فأتلفتها حتى شربت بدَيْن

(١) القطر : الشق والناحيه ، والمراد بقطرى اليوم الصباح والمساء

رهنت قميصاً سابرياً وجُبة
وبعت إزاراً مُعْلَم الطرفين
وقد كنت فى قطربل اذ أتيتها
أرى أننى من أيسر الثقلين
فروحت عنها مُعسراً غير موسر
أُقَرْطِس فى الافلاس من مئتين
يقول لىَ الخمّار عند وداعه
وقد ألبستْنى الراح خفّ حنين
«ألا أُرحْ بزيْن يوم رحت مودعاً»
وقد رحت منه يوم رحت بشَيْن

وعلى هذه الحال من الافلاس مع ازدياد الشوق الى استئناف حياة الباطل واللهو ، عاد شاعرنا الى بغداد ، وهو يطمع فى توثيق الاتصال ببلاط الرشيد ، ويحلم بالنوال الذى ليس بعده نوال ، بعد أن صارت الى الخليفة خزائن المال ، وصار له الامر كله

هرون الرشيد فى اواخر عهده

ولكن الخليفة هرون الرشيد كان يزيد مع السن والعلة شدة وتزمتا ، وزاد على ذلك أن قد ذهب البرامكة فلم يغن عداتهم غناءهم ، ولم يقوموا مقامهم ، فكان هو الناهض وحده بأعباء الحكم وضبط الامور وتوجيه الجيوش لحرب الروم وقمع الفتن فى الاطراف . فكان من ذلك ما لوحظ على الرشيد من السرعة الى الغضب وانزال النقمة

وهذا التغير فى حال الرشـيد ، كان قمينا بأن يصيب شاعرنا السكير الماجن بالخيبة المرة فى عهد بغداد الجديد ، كما كان نذيرا بما سوف ينزل به من عنت شديد . وبلغ من ذلك أن ندم أبو نواس على عودته الى العراق :

رجعتُ الى العراق برغم أنفى وفارقتُ الجزيرة والشآما
على شاطى البليخ وساكِنيه ســلامُ مسلّم لقى الحماما

حبس الشاعر لسكره ومجونه

فلقـد حبسه الخليفة فى المطبق (١) أكثر من مرة لشربه الخمر مجاهرا بها متهتكا فيها . فكان يقضى وقته يعبث مع من يكون معه فى الحبس ويلاعبه الشطرنج والنرد

واتهم أبو نواس أكثر من مرة بالزندقة ، ومن ذلك أنه كان قد انصرف من بعض المواخير سكران ، فمر بمسجد قد حضرت فيـه الصلاة . فدخل ، فقـام فى الصف الاول ، فقرأ الامام الآية : « قل يا أيهـا الـكافرون » ، فقال أبو نواس من خلفه « لبيك » . فلما قضيت الصلاة اندفع اليه المصلون ولببوه . وانتهى أمره الى أن دفع به حمدويه صاحب الزنادقة فحبسه أياما . ولولا علم حمدويه أنه ماجن وليس هو بحيث يظن ، لكان قد قضى عليه

وكان لبعض الأمراء وأصحاب الكلمة ترات عند أبى نواس لهجائه لهم . ومن هؤلاء سليمان بن جعفر بن أبى جعفر المنصور . وكان أبو نواس قد هجاه وحاف عليه ، ولم يعدل بعدها الى مدحه ولم يرجع عن مكروهه . فاتفق أن جلس الرشيد مجلسا ، وأفاض من حضره فى ذكر المطبوعين من الشعراء المحدثين ، الى أن اتصل الذكر بأبى نواس ، فغمز عليـه سليمان بن جعفر ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! كافر

---

(١) سجن بغداد فى عهد العباسيين

بالله ، لا يرعوى من سكره ولا يأنف من فاحشة » . وقد كان نمى الى الرشيد من خبره شيء . فقال : « يا عم ! هل تأثر عنه من ذلك شيئا ؟ » . قال : « قوله يا أمير المؤمنين :

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ ؟ لا قَدَرٌ صحّ ولا جَبْرُ !
ما صحّ عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموتُ والقبرُ

ثم قوله أيضا :

باح لساني بمضمر السرّ وذاك أني أقول بالدهر
وليس بعد الممات مرتجعٌ وإنما الموت بيضة العُقْر

فاستشاط الرشيد غضبا وطار شققا وقال : « على بابن الفاعلة » . فقال رجل من جلساء الرشيد : « ان اذن لى أمير المؤمنين أنشدته من قول هذا الفاسق ماهو أشنع وأفظع مما أنشده أبو ايوب » . قال : « هات ! » قال : « قوله في غلام نصراني :

تمرّ فأستحييك أن أتكلّما
ويثنيك زهوُ الحسن عن أن تسلّما
ويهتزّ في ثوبيك كلّ عشية
قضيبٌ من الريحان شبّ منعّما
بحسبك أن الجسم قد شفّهُ الضّنى
وأن جفوني فيك قد ذرفت دما
أليس عظيماً عند كل موحّدٍ
غزالٌ مسيحيٌّ يعذّب مسلما

ولولا دخولُ النار بعد بصيرةٍ

عبدتُ مكان الله عيسى بن مريما

فازداد حنق الرشيد عليه فقال: « ياامير المؤمنين ! واشنع من ذلك » . قال : « هات ! » فأنشده قوله فى غلام نصرانى آخر :

وملحّةٍ بالعذلِ ذات نصيحةٍ ترجو إنابة ذى مجونٍ مارقِ

بكرت تبصّرنى الرشاد وهمتى غير الرشاد ومذهبى وخلائقى

فأجبتُها: «كُفّى ملامكِ إننى مختارُ دينِ أقسّةٍ وجثالق

والله لولا أننى متخوّفٌ أن أبتلى . . . .

وقطع الانشاد . فقال له الرشيد : « بماذا ويلك ! » . فاستعفاه ، فقال : « ويلك ! بماذا » فقال :

. . . . بإمام جورٍ فاسق

فضج المجلس بأهله ، وانكر الرشيد نفسه ثم قال : «امض» فقال :

لتبِعْته فى دينه ودخلتُهُ ببصيرةٍ منى دخولَ الوامق

إنى لأعلم أن ربى لم يكن ليخصّهم إلاّ بدينٍ صادق

فقال الرشيد للفضل : « برئت من المنصور ان لم يبت هذا الكلب فى المطبق ، ولتنكرنى قولا وفعلا » . وكان ابو نواس نمى اليه الخبر فساخ فى الارض . فوجه الفضل من ساعته من اخذ بأفواه السكك ، فوجد ، فأودع « المطبق » . ثم أعانه الفضل بن الربيع بعدها الى ان اطلق ، فقال فى ذلك :

لله فـــرّج لى برأ

ى «الفضل» من حَلَق الكُبول

وأقالنى عَثَرت العِثـــــا

ر وقد أيستُ من المُقيل

والشاعر كلما تمثل ما كانت عليه حاله فى غيابة المطبق فى انتظار الموت وقد انقطع به الرجاء واستحكم اليأس ، ثم عاد الى نفسه فوجده طليقا معافى ، تملكه الشعور العميق الصادق بأن حياته دين عليه « للفضل » ، وانه أصبح ملك يمينه غير منازع وعبد معروفه :

أصبحتُ ـ غيرَ مُدافَعٍ ـ مَولاكا

والحظُّ لى فى أن أكون كذاكا

لله دَرّى ! أىُّ رهنِ منيّةٍ

بالأمس كنتُ ، وهالكٍ لولاكا

أصبحتَ معتــدًّا علىّ بنعمةٍ

ما كان يُنعمهــا علىّ سواكا

وكان خاتمة المطاف ما أبلغ الرشيد من قول شاعرنا يفتخر بقحطان التى يدعيها ، ويسب عدنان ويهجوها فى قصيدة طويلة يقول فيها :

فافخرْ بقحطان غيرمكتئبٍ	لحاتمُ الجودِ من مناقبها
ولا ترى فارساً كفارسها	إذ زلّت الهامُ عن مناكبها
واهجُ نزاراً وأفْرِ جلدتها	وهتّك الستر عن مثالبها

وكانت العصبية لاتفتأ تهيج بين اليمانية والنزارية كما يعلم

قراء التاريخ العربي وكانت في ذلك العهد تهيج بالشام خاصة، وقد بلغت في بعض أطوارها هيجا تشيب لهوله الولدان ، وقتل فيها خلق كثير . وكان الخليفة يلاقي كل مرة عنتا في اخمادها ، يوجه لذلك القواد والعسكر الكثيف ، وكانت مع ذلك لاتسكن حتى تعود . فلما بلغت الى سمع الخليفة قصيدة شاعرنا اشتد به الغضب . ولم يشفع للشاعر استثناؤه للنبي محمد دون سائر قريش « ذات المتاجر » في هجائه للقبائل العدنانية ، ولا تنبيهه الى أن شطر الخليفة يمان من ناحية جدته :

أحبُّ قريشاً لحبِّ «أحمدها» واعرفُ لها الجزْلَ من مواهبها

انّ قريشاً اذا هي انتسبتْ كان لها الشطر من مناسبها

فأمّ مهديٍّ هاشم ـ أمّ موسى الخيـر ـ منا ، فافخر وسام بها

ان فاخرتنا فلا افتخار لهـا الا التجارات من مكاسبها

وانها ـ ان ذكرتَ مكرمةً ـ جاءت تجاراتها بغالبهـا

واذا كانت هذه الشفاعات لم تنفع الشاعر عند الخليفة، فذلك أن الأمر كان يعدو شخص الخليفة الهاشمي القرشي الى تعريض البلاد للفتن الداخلية

فأمر الخليفة بالشاعر المنكود فألقي في غيابة « المطبق » انتظارا للموت فبقي فيه دهرا فجعل يتشفع بالوزير الفضل ابن الربيع وهو لايستطيع له شيئا . فقال متحسرا لما صار اليه ، متندما لما تورط فيه ، متسخطا على الفضل :

على مركَبي مني السلامُ ، وبزّتي
وغدواتِ لهوٍ قد فقدْنَ مكاني
فلو أن خِدْنيَّ القرينيْن أبصرا
خضوعيَ للسجّان ما عرفاني

ولو أبصراني والقيود تقودني

ومشي الى البوّاب بالنجشان (١)

تَلحى الله من أمسى يرشّح نصرَهُ

بفكّ إسارٍ منه عنـــد يمانی

ومالی وقحطاناً وبثّ مديحها

ونَصبي لهـا نفسی بكل مكان

فإن أُمْـس لا تُخْشَى لسيفِ فتكةٌ

فلا تأمَنْ يا «فضلُ» فتكَ لسانی

وإنی لأرجو أن أراك كجعفر (٢)

ونصفاك فوق الجسر يقتسمان

وكتب الى الحســين الخادم مولی هرون متزلفــا يرجو وساطته ، ويعلن لله توبته وانابته :

تَلْـقَى المراتبَ للحسين ذليلةً

وإذا سواه يرومها تتصعّبُ

إنّ الامام إذا اجتبـــاك لسرّه

لَمُسَدَّدٌ فيما أتى ومُصوّبُ

لم يَبْلُ مثلَكَ عفّةً فيما ولا

وحزامةً فى كل أمرٍ يحزُبُ

---

(١) النجش : الاسراع ، والمبالغة في الثمن بقصد التغرير وايقاع الغير

(٢) هو جعفر البرمكي الوزير وقد قتله الرشيد وصلبه ببغداد فجعل نصف جثته على الجسر الأعلى ونصفها على الجسر الأسفل ونصب رأسه على الجسر الأوسط

وخالطتَ خوفَكَ للإله بخوفه

فعلمتَ ما تأتي وما تتجنّب

أبلغْ - هُديتَ - إلى الامام رسالةً

عني بأني بعدها أستعتب

وشهادتي أني حليفُ عبادةٍ

فاباوا على الأيام ذاك وجرّبوا

وكتب الى عبيد الخادم مولى الملكة زبيده :

جعلتُ عُبَيْداً دون ما أنا خائفٌ

وصيّرته بيني وبين يد الدهر

أشار اليه النـاسُ من كل جانبٍ

وقالوا أبوعمرو لهـا وأبوعمرو

ثم التجأ الى الأمير الحسين بن عيسى بن ابى جعفر المنصور مستغيثا مستصرخا :

رَفَعَ الصوتَ فنادَى يا أبا عيسى الجوادا

كُنْ عماداً - يا ابنَ مَن كا ن غياثاً وعمـــادا

وتداركْ جســـداً قد مات أو قد قيل كادا

قُلْ له إن قال « هل تا ب ؟ » « نعم تاب، وزادا »

واضمن التوبة عَمَّنْ كلمـــا أطراك عادا

ولما أعيته الحيلة ولم تنفع الشفاعة ، توجه الى الخليفة نفسه ضارعا مستغفرا ذاكرا محامده معددا مآثره :

بعفوك ـ لا بجودك ـ عُذْتُ لا بل
بفضلك يا أمير المؤمنينا
فلا يتعذّرنّ عليّ عفوٌ
وَسِعْتَ به جميعَ العالمينا
فإنى لم أخنك بظَهْرِ عيبٍ
ولا حدّثتُ نفسى أن أخونا
براك الله للإسلام عزّاً
وحصناً دون بيضته حصينا
فشفِّعْ حسنَ وجهك فى أسيرٍ
يدين بحبك الرحمنَ دينا
اذا ما الهولُ حلّ بدار قومٍ
فليس لجار مثلك أن يهونا .

ولكن الخليفة كان فى شغل عنه بتوجيه قواده هنا وهناك لمداركة الفتوق قبل اتساعها فى أطراف ملكه . ولقد شخص بنفسه مع اشتداد العلة عليه لحرب رافع بن ليث الثائر فى خراسان مصطحبا معه المأمون الذى جعلت له الولاية عليها ، وقد استخلف ابنه القاسم الملقب بالمؤتمن على الرقة وكان الخليفة قد اتخذها مقرا له ونقل اليها خزائنه فى ذلك الحين ، واستخلف على بغداد عاصمة الخلافة ولى عهده والخليفة من بعده محمدا الامين .

نديم الأمين

كان محمد الأمين ببغداد ، حين ورد من صاحب البريد خبر وفاة والده العظيم هارون الرشيد فى غرة جمادى الأولى سنة ١٩٣ ، فى قرية بالقرب من طوس ، بعلة فى حشاه كانت لاتزال تعاوده وهو يغالبها ويكتمها الناس كلهم . وتسلم الخليفة الجديد الخاتم والقضيب والبردة ، وتحول من قصر الخلد وكان نازلا فيه الى قصر الخلافة بالمدينة وهو قصر أبى جعفر . وأمر الناس بالحضور يوم الجمعة ، فحضروا فصلى بهم وألقى الخطبة التقليدية ، وتقبل البيعة من جلة أهل بيته والقواد ورجال الدولة . وتقبل عبد الله المأمون البيعة من الخراسانيين لأخيه ، ثم لنفسه من بعده ، وأقام على ما كان يتولى من عمل خراسان ، وتواترت كتبه الى الخليفة بالتعظيم والهدايا اليه من طرف تلك البلاد من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح . وشخصت السيدة زبيدة من الرقة بجميع ما كان معها هنالك من الخزائن وغيرها الى بغداد ، فتلقاها ابنها الأمين خارج المدينة فى جميع من كان بالحضرة من الوجوه ، وانزلها معه فى قصر الخلافة

الوزير الفضل بن الربيع

وكان الوزير الفضل بن الربيع مع الرشيد بطوس ، فلما مات الخليفة جمع الفضل جميع ما فى المعسكر مما أوصى به الخليفة الراحل للمأمون ، وانصرف بذلك كله الى بغداد وهو

يقول : « لا ادع ملكا حاضرا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره » . واغرى القواد والجند بالرحيل واللحاق بالأمين ، ففعل أكثرهم محبة منهم باللحوق بأهلهم ومنازلهم. فلما وافى الفضل بغداد عرف له الخليفة الجديد ما قدمه فاستوزره

ثقافة الأمين

وكان الأمين قد تلقى فى صباه على الكسائى وعلى ابن المبارك الأحمر وغيرهما من المؤدبين ما يتلقاه أبناء الخلفاء من فنون العلم والأدب وقتئذ ، فاقرأوه القرآن ، وعرفوه الآثار، وعلموه السنن ، ورووه الأشعار وبصروه بمواقع الكلم وبدئه ، مع ما يجب على الخليفة العباسى من تعظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ، وما الى ذلك مما يكون فيه صلاح أمره واستيثاق ملكه فى مستقبل عمره . وكان الأمين حسن الوجه ، تام القامة ، أبيض مسمنا ، صغير العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، شديدا فى بدنه . وكانت طبيعة اللهو هى الغالبة عليه ، فلم يغن فى ذلك حفاوة والده بأمر تنشئته وتعهد المؤدبين له بالتفقيه والتثقيف ، وظل على ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركته النساء والاماء فى رأيه . ولولا منزلة أمه زبيدة من هارون ، وميل بنى هاشم بأهوائهم اليه تعصبا لولد الهاشمية على ولد الفارسية ، لما جعل هارون ولاية العهد له قبل أخيه الأكبر المأمون

الخليفة يلهو

فلما أن أفضت اليه الخلافة ، أصبح صبيحة السبت ـ أى بعد البيعة له فى بغداد بيوم ـ فأمر ببناء ميدان حول قصر الخلافة فى المدينة للصوالجة واللعب . ولما أن جاءت الكتب من خراسان وسائر الأطراف بالبيعة ، واستتبت له الأمور

واطمأن باله من ناحية الملك ، وجه فى طلب الملاهين وضمهم اليه واجرى لهم الأرزاق ، وطلب الخصيان وابتاعهم وغالى بهم ، ورفض النساء الحرائر والاماء حتى رمى بهن ، وصير الخصيان لخلوته فى ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وامره ونهيه ، وفرض لهم فرضا سماهم الجرادية ، وفرضا من الحبشان سماهم الغرابية ، وكان يقضى أوقات لهوه وفراغه مع هؤلاء الخصيان فى المنادمة والشرب . وفى ذلك قال بعض الشعراء :

لهم من عمره شطرٌ وشطرٌ ... يعاقر فيه شرب الخندريسِ
وما للغانيـــات لديه حظٌّ ... سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيما ... فكيف صلاحُنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس (١) ... لعزَّ على المقيم بدار طوس

تقريب الأمين لأبى نواس

وبديهى ، وقد جلس الخليفة هذا المجلس للشراب بين الندمان والخصيان ان يجرى فى الجماعة ذكر المجون والمجان ، وان تروى ـ فيما هم بسبيله ـ طرائف النوادر والأخبار ، وتنشد لطائف الأشعار . ولا نزاع فى أن النواسى كان اشهر خلعاء ذلك الزمان واجراهم شعرا على كل لسان ، فلا جرم يتردد فى المجلس اسمه ويستماد شعره . والخليفة لا شك عندئذ ذاكره ، فقد دخل عليه مع الكسائى فى بعض درسه ، وكان يغشى حضرته ويشترك فى منادمته أيام امارته . فلما ان سأل الخليفة عنه ، قيل له : « محبوس لما يزل فى المطبق » فقال : « ليس عليه بأس » . ومضى اسحق بن فراشة وسعيد بن جابر أخو الخليفة فى الرضاعة الى ابى نواس فى

(١) يريد الرشيد لدفنه بطوس

محبسه فقالا له يطمئنانه : « ان أمير المؤمنين ذكرك البارحة فقال ليس عليه بأس » . فنظم الشاعر أبياتا بعث بها اليه يصف حاله ويمدحه ويستعطفه :

أرقتُ وطار عن عيني النعاسُ ونام السامرون ولم يؤاسوا

أمينَ الله، قد مُلِّكتَ مُلكاً عليك من التقى فيه لباس

ووجهك يستهلّ ندًى فيحيا به في كل ناحية أناس

كأن الخلق في تمثالِ روحٍ له جسد ، وأنت عليه راسُ

أمينَ الله ، إن السجن بأسٌ وقد أرسلتَ ليس عليك باس

فلما أنشدت الأبيات للخليفة في مجلسه بالعشية قال : « صدق ، علي به » فجيء به في الليل فكسرت قيوده واخرج حتى أدخل عليه ، فأنشأ يقول وهو ماثل بين يديه :

مرحباً مرحباً بخير إمامٍ صِيغَ من جوهر الخلافة نَحْتا

يا أمين الاله يكلؤك اللـ ـه مقيماً وظاعناً أين سرتا

إنما الأرض كلها لك دارٌ فلك الله صاحبٌ حيث كنتا

وسر الأمين به وخلع عليه وجعله من ندمائه

ومما يجب ذكره لأبي نواس شاهدا على طيب نفسه ، وسلامة صدره من الضغن الذي يعمي ويصم ، وارتفاعه بحكمه عن الهوى ، أنه لم يغير رأيه في الرشيد بعد موته ، ولم يخل من حزن عليه مع حبسه اياه ، ولم يجحد احسانا أسلفه اليه وأسداه . فنراه لا ينسى وهو يهنيء الخليفة الجديد ويظهر سروره به أن يبكي الخليفة الراحل ويذرى عليه دمعه :

جرَتْ جوارٍ بالسعد والنحسِ

فنحن في مأتم وفي عُرْسِ

القلب يبكى ، والسنُّ ضاحكة ،
فنحن فى وَحشة وفى أنس

يُضحكنا القائمُ الأمينُ ، ويُبْ
كينـــا وفاةُ الامام بالأمس

بَدْران ، بدرٌ اضحَى ببغداد بال
خُلْد ، وبدرٌ بطوس فى رمس (١)

وقد عاد ثانية الى رثائه فى قوله :

الناس ما بين مسرورٍ ومحزونِ
وذى سقامٍ بكفِّ الموتِ مرهونِ

مَن ذا يُسَرُّ بدنياه وبهجتِها
بعد الخليفةِ ذى التوفيق هارونِ

كما قال يعزى الوزير الخطير الفضل بن الربيع ، عن موت مولاه القديم بحياة مولاه الخليفة الجديد :

تعزَّ أبا العبـــاس عن خير هالكٍ
بأكرم حىٍّ كان أو هو كائنُ

حوادثُ أيامٍ تدور صروفُهـــا
لهنَّ مَساوٍ مرةً ومحاسنُ

وَفى الحىُّ بالميت الذى غَيَّب الثرى ،
فلا أنت مغبونٌ ولا أنت غابن

---

(١) تنسب كذلك الى الشاعر أبى الشيص

احتجاب الخليفة للهو

وكان الفضل ينزل فى بغداد فى الشارع الأعظم بازاء درب السقائين ، وقد صارت الامور كلها اليه وفوض اليه الخليفة ما وراء بابه ، فهو الذى يولى ويعزل ويحل ويعقد عنه . واحتجب الأمين ، وفى ذلك يقول شاعرنا يمتدح الفضل :

لعمرُك ما غاب (الأمين محمدٌ)

عن الأمر يعنيه إذا شهد (الفضلُ)

ولولا مواريث الخلافة أنهـــا

له دُونه ما كان بينهما فضـل

لئن كانت الأجسادُ فيهـا تباينت

فقولها قولٌ وفعلهما فعــــل

أرى (الفضل) للدنيا وللدين جامعاً

كما السهم فيه الريشُ والفُـوق والنصل

وذهب الأمين فى الاحتجاب حتى عن اخوته واهل بيتـه وقواده واستخف بهم ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبـدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبـار وغيرها ، ونافس فى ابتياع فره الدواب واخـذ الوحوش والسباع والطير . وحمل اليه ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وانقطع عن تدبير المملكة مشتغلا عنهـا باللهو واللعب ومعاشرة المجان ، وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى جلسائه ومحدثيه وخصيانه على الخصوص ، حتى قال فى ذلك أبو نواس :

احمدوا الله كثيرا يا جميع المسلمينا
ثم قولوا ، لا تملوا «ربنا أبق الأمينا!»
صدّر الخصيانَ حتى جعل التعنين دينا
فاقتدى الناسُ جميعاً بأمير المؤمنينا

الغلاميات

ولما رأت الملكة الوالدة زبيدة ما كان من تقديم ولدها أمير المؤمنين للخصيان ورفعه منازلهم مثل كوثر وغيره من خدمه وشدة شغفه واشتغاله بهم ، أرادت صرفه عن ذلك فاتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فماست قدودهن وبرزت أردافهن . ثم بعثت بهن اليه ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس فى مجالسه . فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وامتلأت بغداد بهؤلاء الفتيات اللواتى كانوا يسمونهن « الغلاميات »

مجالس الغناء

وكان للأمين كأبيه الرشيد تولع بالغناء ، مع ا فارق فى وقار الوالد ونزق ولده . وكان يهيأ له فى قصر الخلد مجالس غناء يتغنى فيها ، فيرفع له دكان عال يفرش له ويبسط عليه بساط زرعى ، وتطرح عليه نمارق وفرش فى لون البساط ، ويصفف له من آنية الفضة والذهب والجوهرامر عظيم . وتكون فيمة جواريه قد هيأت له مائة جرية صانعة ؛ فيصعدن اليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان يعزفن عليها وهن صاعدات اليه ، وحين يستوين على الدكن يندفعن فى غناء

لحن من اللحون بصوت واحد ، ثم ينزلن ويتقدم عشر غيرهن ، وهكذا دواليك فى جو فاتن ساحر بما يتمايل فيه من القدود المليحة وما يتجاوب به من اللحون الفصيحة

وكان يجزل العطاء لأساطين الغناء فى عهده أمثال اسحق الموصلى ومخارق وعلوية وغيرهم ، حتى ليروى أنه استقدم ابراهيم بن المهدى عمه فانحدر اليه فى زورق الى قصره ، وغناه صوتا طرب له الأمين فأمر أن يوقروا له زورقه ذهبا

وكان ابراهيم بن المهدى (١) يغنى الأمين احيانا بشعر أبى نواس فى مدحه كقوله :

يا كثيرَ النوح فى الدِّمَنِ | لا عليها ، بل على السَّكَنِ
رشأٌ لولا ملاحتُـــــهُ | خَلَتِ الدنيا من الفِتَنِ
كلَّ يومٍ يسترقُّ له | حسنُه عبداً بلا ثمنِ
يا أمين الله عِشْ أبداً | دُمْ على الأيام والزمنِ

ولقد استخف الطرب الأمين حتى قام من مجلســه ، واكب على عمه يقبل راسه . فقام ابراهيم من مجلسه يقبل أسفل رجليه ، وما وطئتا من البساط . فأمر الخليفــة له بثلاثة آلاف درهم . فقال ابراهيم : « يا سيدى قد أجزتنى الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » . فقال الأمين : « وهل هى الا خراج بعض الكور ؟ ! »

حفلات الرقص

كذلك استحدث الأمين حفلات للرقص كان يديرها بنفسه فى أبهاء القصر الملكى ، فاذا الصحن مملوء شمعا من الشمع الكبار وكأن الصحن من ذلك فى نهــار ، واذا الدار مملوءة غلمانا ووصــائف بحــلل الوشى والجوهر ، واذا الجوارى

---

(١) ورد فى العقد أنه ابراهيم الموصلى ، ويمنع من ذلك وفاته قبل خلافة الأمين

والمخنثون يزمرون ويضربون ، والقيان يغنين على الطبول والسرنايات ، والجميع فى شىء واحد ، ومحمد فى وسطهم يرتكض رقصا . ولقد شهد مخارق وابراهيم بن المهدى احدى هذه الحفلات ، وكان الخليفة وجه من جاء بهما ركضا ، وقد جاء فى وصفهما لما مر بهما تلك الليلة ، أنهما لم يبلغا القصر حتى جاءهما رسول الخليفة فقال : « قوما فى هذا الباب مما يلى الصحن ، فارفعا اصواتكما مع السرناى أين بلغ ، واياكما أن أسمع فى اصواتكما تقصيرا عنه » . فأصغيا للغناء المردد :

هذى «دنانيرُ» تنساني وأذكرها
وكيف تنسى محبًّا ليس ينساها
والله، والله، لوكانت ـ إذابرزتْ ـ
نفسُ المتيم فى كفّيه ألقاها

فانطلقا يشاركان ، وما زالا يشقان حلقهما مع السرناى ، ويتبعانه حذرا من أن يخرجا عن طبقته أو يقصرا عنه . والخليفة الأمين يجول فى الكرج ما يسأمه ، يدنو اليهما مرة فى جولانه ، ويتباعد مرة ، ويحول الجوارى بينهما وبينه ، حتى الغداة

مجالس الشراب

وكان محمد الأمين شديد المحبة للشراب قوى الاحتمال له ، يجد بندمائه فى الشرب ويسقيهم معظم الليل وعلى الريق . وكان اذا انتشى صاح فى ندمائه « من منكم يكون حمارى » فكل واحد يقول « أنا » لأنه كان يركب الواحد منهم عبثا ثم يصله . ولم يكن لأحد غلبة عليه فى الشرب غير أبى نواس

ابو نواس شاعر البلاط

ولقد انشد أبو نواس الخليفة بوصفه شاعر البلاط قصائد عدة فى مدحه . ولكن القارىء لها لا يلمس فيها من صدق الاعجاب بالممدوح ما يلمسه فى هذه القصيدة التى قالها للأمين كما يقول النديم للنديم :

ونَدْمانٍ يرى غبناً عليه
بأن يُمسى وليس له انتشاءُ
إذا ناديتَه من نومِ سكرٍ
كفاه مرةً منكَ النداء
فليس بقائلٍ لك « إيه ، دَعْنى »
ولا مستخبرٍ لكَ « ما تشاء ؟ »
ولكن « ياسْقنى » ويقول أيضاً
« عليكَ الصِّرفَ إن أعياك ماءُ »
وذاك محمدٌ تفديه نفسى
وحقَّ له وقلَّ له الفداء

وقد اجازه الأمين عليها بكل بيت الف درهم

وكان أبو نواس فى بعض الأحيان لا يتورع حتى فى مدائحه الرسمية للخليفة الشاب أن يشير الى منادمتـه له وشربه معه . من ذلك قصيدته الاولى فى مديحه وهى المطولة المشهورة التى مطلعها :

يا دارُ ، ما فعلتْ بكِ الأيامُ ضامتكِ ، والأيام ليس تُضامُ

وهو مطلع فى وصف الرسوم والديار تجىء بعده أبيات

فى طى الفيافى وتجشم الأسفار من أجل الممدوح جريا على المذهب التقليدى . ولكن الشاعر النديم لا يلبث أن تغلب عليه نزعته فيجرى على طبعه ويخلص الى طريقته :

مَلِكٌ أغرُّ إذا شربتَ بوجهه ... لم يَعْدُكَ التبجيل والاعظامُ

فالبَهْوُ مُشتملٌ ببدرِ خلافةٍ ... لَبِسَ الشبابَ بنورِهِ الاسلام

إن الذى يرضى الاله بهديه ... مَلِكٌ تردّى الملكَ وهو غلام

اشتغال الخليفة عن شئون الدولة

وليس أكثر مما يروونه من استغراق الخليفة محمد الأمين فى اللهو والشرب ، واظهاره الاهمال لشؤون الملك ، حتى كانت تمر السنة لا يفرغ فيها ساعة للنظر فى اخص الامور ، كاعمال الخراج والضياع ومتصرفات الحكام . دخل عليه يوما اسماعيل بن صبيح كاتبه فاذا هو عازم على الاصطباح ، وقد احضر الندماء والمغنين وصفت الموائد ، واقبل الخليفة على مائدته وابتدأ . فقال اسماعيل بن صبيح : « يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذى وعدتنى فيه ان تنظر فى أعمال الخراج والضياع وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على أعمال منذ سنة لم تنظر فى شىء منها ، ولم تأمر فيها ، وفى هذا دخول خلل فى الاعمال » . فقال له محمد : « ان اصطباحى لا يحول بينى وبين النظر ، وفى مجلسى من لا انقبض عنه ، من عمى وبنى عمى واخوتى ، وهم اهل هذه النعمة التى تجب أن تحاط ، فاحضر ما تريد عرضه ، فاعرضه على وانا آكل ، لأتقدم اليك فيه بما تحتاج اليه ، الى ان يرفع الطعام ثم اتم النظر فيما يبقى ، ولا اسمع سماعا او ابرم الباقى وافرغ منه . فحضر كتاب الدواوين بأكثر ما فى دواوينهم ، واقبل اسماعيل بن صبيح يقرأ عليهم ومحمد يأمر وينهى بأحسن امر ونهى واشده ، وربما شاور من حوله

فى الشيء بعد الشيء ، وكلما وقع فى شيء وضع بالقرب من اسماعيل بن صبيح . ورفعت الموائد ، ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب فى القدح أقل من رطل واحد فى تتميم العمل ، ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشيء أسره اليه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهض واستنهض سليم بن على وابراهيم بن المهدى ، فما مشوا عشر أذرع ، حتى أقبــل جماعة من النفاطين ، فضربوا تلك الكتب والاعمال بالنار ، وكان الفضل بن الربيع حاضرا . فلحق محمدا وقد شق ثوبه وهو يقول : « الله الله اعدل من ان يرضى ذلك » ومحمد يضحك

وقوع الخلف بين الامين والمأمون

وكان الوزير الفضل بن الربيع تساوره المخاوف ، ان وافى الامين اجله وولى الخلافة المأمون أن يجزيه شرا بفعلته . فجعل يزين للأمين صرف ولاية العهد من بعده الى ابنــه موسى ، وهو يومئذ طفل صغير لايعرف حسنا ولا يعقل قبيحا ، ولا يخلو من الحاجة الى من يخدمه فى ليله ونهاره ويقظته ومنامه وقعوده وقيامه . ومن ثمة وقع الخلف بين الامين والمأمون ومكر كل واحد منهما بصاحبه ، واستشرى الفساد واشتدت العداوة بين الاخوين . فقطعت الدروب من بغداد الى خراسان وفتشت الكتب وصعب الامر . وفى شهر ربيع الاول عام ١٩٤ عقد الخليفة لابنه « موسى » على جميع ما استخلف عليه واسقط اسم المأمون من الخطبة فى بغداد وقبض على وكلائه . وكذلك فعل المأمون بخراسان. ونما الشر بينهما . وبقدر ما كان عند المأمون من التيقظ والضبط كان ما عند الامين من الاهمال والتفريط والغفول. وسارت الركبان بغدر محمد الامين بأخيه وقبح سيرته ، مع حسن سيرة المــأمون وما كان يظهره من الورع والدين . فاستوحش الناس من الامين وانحرفوا عنه . وفى ســنة ١٩٥ جهز الخليفة على بن عيسى بن ماهان ومعه عسكر كثيف

وسلاح كثير واموال وافرة . وخرج معه الخليفة مشيعا مودعا. ثم تشاغل بعدها بلهوه وبطالته وتخلى عن كل تدبير للقائد والوزير . وشخص على بن عيسى الى حرب المأمون فلاقاه قائده طاهر بن الحسين ظاهرمدينة الرى ، فاقتتلوا قتالا شديدا كانت الغلبة فيه لطاهر وقتل على بن عيسى

اللهو والخمر فى ابان الخطر

وكان ذلك جميعه ، والامين فى غفلة سادر فى لذته ، منهمك فى لعبه متفرغ لصيده ونزهته . حتى ليروى انه حين ورد نعى على قائده ، كان فى وقته ذلك على شط دجلة يصيد السمك . فقال للذى اخبره : « ويلك ! دعنى ، فان كوثرا قد اصطاد سمكتين وانا ما اصطدت شيئا بعد » . على ان الامين لم يلبث أن أفاق للخطر ، لما شاع الخبر بأن المأمون أعلن خلعه بعد أن أتاه كتاب قائده بالعز والنصر ، ودعا بالخلافة لنفسه فى جميع كور خراسان وماياليها ، فجعل الامين يتابع ارسال الجيوش والقواد واصطنع فى اموره شيئا من الجد

وجعل الامين يحمل على نفسه فيخرج لقواده وجنده وعامة رعيته بين الفينة والفينة ، وقد ساءت ظنونهم وكبر عندهم ما يرونه من احتجابه عنهم ، فكان يجلس لهم بعض الاحيان ساعة من نهار ، وبين يديه الفضل بن الربيع وزيره واسماعيل بن صبيح كاتب سره ، ليكون ذلك تسكينا لهم ومراجعة لآمالهم . وكان اذا جلس فى مجلسه هذا أذن للناس عامة ، فدخلوا على مراتبهم ومنازلهم ، وقام الخطباء فخطبوا والشعراء فأنشدوا . بيد انه لم يكن أحد منهم يتعدى الى الاطناب والتطويل الا أمر بالسكوت ومنع من القول . وفى هذه المناسبات انشد ابو نواس مدائحه القصار فى الخليفة الامين ، نذكر منها قوله :

ألا يا خيرَ مَنْ رأت العيونُ نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ

فأنت نسيجُ وحدِك لا شبيهٌ ... تحاشيه عليك ولا خدين
خُلِقتَ بلا مشاكلةٍ لشيءٍ ... فأنتَ الفوقُ ، والثقلان دون
كأن المُلْكَ لم يكُ قبلُ شيئاً ... إلى أن قام بالملك الأمين

النزهة على الحراقات فى دجلة

وكان الخليفة قد أمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة « الاسد » و « الفيل » و « العقاب » و « الحية » و « الفرس » ، وانفق فى عملها مالا عظيما ، وقد اتخذها للنزهة . وكان اذا خرج لركوبها اصطفت له الخيل وعليها الرجال على شاطيء دجلة ، وحملت معه المطابخ والخزائن . وفى مرة من هذه المرات كان ركوبه الى الشماسية فى الحراقة التى على مثال الاسد . فما راى الناس منظرا ولا مسيرا كان ابهى واحسن من ذلك المنظر والمسير . وركب ابو نواس معه يومئذ وهو ينادمه فقال :

سخّر الله للأمين مطايا ... لم تُسخَّرْ لصاحب المحرابِ
فاذا ما ركابُه سِرْن بحراً ... سار فى الماء راكباً ليثَ غاب
أسداً باسطاً ذراعيْه يعدو ... أهرتَ الشِّدْق كالحَ الأنياب
لا يعانيه باللِّجام ولا السَّو ... ط ولا غمزِ رجله فى الرِّكاب
عجِب الناسُ إذ رأوك على صو ... رةِ ليثٍ تمرُّ مرَّ السحاب
سبَّحوا إذ رأوك سِرْتَ عليه ... كيف لو أبصروك فوق العُقاب
ذاتِ زَوْرٍ ومِنْسَرٍ وجناحَيـ ... ـنِ تشقُّ العُبابَ بعد العُباب
تسبق الطَّير فى السماء إذا ما اسـ ... ـتعجلوها بجَيْئةٍ وذهابِ
بارك الله للأمين وأبقا ... هُ وأبقى له رُواءَ الشباب

ولابى نواس غير هذه قصيدة اخرى فى حراقة على مثال الدلفين ، مطلعها :

قد ركب الدلفينَ بدرُ الدجى مقتحماً فى الماء قد لججا

ضيق الأمين بسوء سمعة شاعره

ولما كان ابو نواس فى مجاهرته بالمعاصى وتهتكه فى السكر قد شاعت له سمعة قبيحة ، واشتهر بشهرة فاضحة ، فقد اشفق ابراهيم بن المهدى من حرج ذلك على الأمين فى وقت هو أحوج مايكون فيه الى أهل الجد والرأى للخلاف الذى كان قائما بينه وبين المأمون . فلم يتمالك أن دخل على الامين وقال له : « ما رأيت كالذى ظهرت به من التهتك وخلع العذار وتخلية نفسك وهواك ، حتى لقد نادمت ابا نواس وهوخليع الفكر مشهور بالمجون والتهتك » . فنظر اليه نظرة منكرة ، وقال : « الساعة ترى ، هاتوا أبا نواس » . فلما جاء سلم وجلس ناحية . فقال الخليفة : « ههنا » ، فأدناه حتى حكت ركبته ركبته . واقبل ابونواس ينشده ويحادثه ، فيفكه به وينبذه له من كل ضرب . ثم قام الشاعر لبعض حوائجه ، فأقبل الخليفة على عمه وقال : « يا ابراهيم ! من يصبر عن مثل هذا ، ولا يحتمل فيه كل شيء ، والله ، ان هذا يحسن منه كل ما يأتى به » . ويعترف ابراهيم بن المهدى أن الذى قاله الامين حق ، وانه ما رأى فى الدنيا مثله .

ولقد وجد دعاة المأمون فى منادمته للأمين واختصاصه به وجها من اوجه الحيلة للزراية على خليفة بغداد والعيب عليه باحتماله اياه . فكان وزير المامون الفضل بن سهل ذو الرياستين يخطب بمساوىء الامين ويحرض الناس على قتاله ، وقد أعد رجلا يحفظ شعر ابى نواس فيقول : « ومن جلساء محمد الامين رجل ماجن كافر مستهزىء يقول كذا وكذا » وينشد قوله :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر　　ولا تسقني سراً اذا أمكن الجهرُ

وينشد قوله :

يا أحمدُ المرتَجَى في كل نائبةٍ

قُمْ ـ سيدي ـ نَعْصِ جبّارَ السموات

وغير ذلك من قبائح شعره ومجونه . ويذكر أهل العراق فيقول : « أهل فسق وفجور ، وخمور وماخور » . فيلعنهم من يحضر المجلس من أهل خراسان . فكتب عيون محمد الامين اليه بذلك ، فجزع لذلك واراد التنصل من التبعة واسقاط الحجة ، بأن يظهر غضبه على الشاعر وينزل به نقمته . وكان قد اتصل به عنه أبيات احفظته عليه ، منها قوله وهو سكران يشير الى ما أدى اليه الخلف بعد وفاة هرون الرشيد :

إسقنيها يا ذفافَهْ　　مُرَّةَ الطعم سُلافه

هاتها جهراً ودعني　　من أحاديث خرافه

ذَلَّ عندي مَن جفاها　　لِرجاءٍ ومخافه

مثلَ ماذلّتْ وضاعتْ　　ـ بعدهارون ـ الخلافه

ومنها قوله مفاخرا وهو بحال من العسر والحاجة :

وقد زادني تيهاً على الناس أنني

أرانيَ أغناهُمْ وإن كنتُ ذا عُسْرِ

ولو لم أنلْ فضلاً ، لكانت صيانتي

فمي عن جميع الناس حسْبي من الفخر

ولا يطمعنْ في ذاك مِنّيَ طامعٌ

ولا صاحبُ التاج المحجّبِ في القصر

فبعث الامين باحضاره ، وعنده أعدى أعدائه سليمان بن جعفر بن ابى جعفر المنصور . فلما احضر الشاعر ومثل بين يدى الخليفة بادره : « يابن اللخناء العاهرة » وشتمه أقبح الشتم . وقال : « انت تتكسب بشعرك أوساخ أيدى جميع الناس ، ثم تقول : « ولا صاحب التاج المحجب فى القصر » . أما والله لا نلت منى شيئا أبدا »

وطرده من حضرته ، وكاد ينتهى الأمر عند هذا الحد

ولكن الحزازة التى كانت بنفس الامير الهاشمى على الشاعر ما كانت لتجد فى ذلك شفاءها . فأقبل الامير على الخليفة كالمنكر ورفع اليه ان ابا نواس هجاه ولم يكف عن النيل منه ، ثم زاد : « وانه زنديق كافر حلال دمه » وانشده من أشعاره المنكرة أبياتا . فاطرق الامين لحظة ثم قال متلطفا : « ياعم اقتله بعد قوله فى مدحى :

صَدَقَ الثناءُ على الأمين محمد ومن الثناء تكذُّبٌ وتخرُّص

قد يَنقص القمرُ المنيرُ اذا استوَى وبهاء وجه محمدٍ لا ينقص

واذا بنو العباس عُدَّ حصاهم فمحمدٌ ياقوتها المستخلص

ومضى الخليفة يتبع المقطوعة اخرى ثم اخرى وهو يردد « يا عم اقتله بعد قوله ... » : « ياعم ! فكيف أعمل بقوله ... »

فغضب سليمان وقال : « والله لو شكوت من عبد الله — يعنى ابن الامين — ما شكوت من هذا الكافر ، لوجب أن تعاقبه . فكيف منه ؟ ! » . وانقطع سليمان عن الركوب اليه حتى خشى الامين ان يؤدى ذلك الى تغير الكثيرين من امراء بنى هاشم عليه ، وهو فيما هو فيه من خلاف مع أخيه المأمون . فوجه الى وزيره الفضل بن الربيع وامره بحبس ابى نواس فى المطبق مع الزنادقة

فى المطبق مع الزنادقة

وقد حكى صاحب الشرطة انه لما حبس ابو نواس ، كان أكثر من يزوره فى حبسه المرد والشبان والخمارين، وأصحاب الريبة ، ويقول صاحب الشرطة انه عرف منهم وقتئذ من لم يكن عرفه من قبل ذلك فجعل عليهم الضرائب ، ثم فقد ذلك لما أطلق الشاعر لتفرقهم

ولما كانت الفرصة مواتية لكل مضطغن على أبى نواس ، موتور بهجائه ، أن يسعى به لدى السلطان ويرميه بالحق او بالباطل باحدى موجبات الحدود ، فقد كثر ما كان يرفع الى الامين من الاتهامات ، ينسبون فيها الزندقة والكفر الى الشاعر فجعل الخليفة أمر ذلك الى وزيره الفضل بن الربيع وكان واجدا عليه . فاتى بالشاعر وقال له : « رفع الى امير المؤمنين انك زنديق » فجعل يبرأ من ذلك ، ويحلف . وجعل الفضل يكرر عليه ، ثم أعاده الى الحبس

استحكام اليأس بين جدران الحبس

وبقى أبو نواس فى المطبق دهرا وهو يترقب الموت بين لحظة واخرى وقد تخلى عنه أصدقؤه وثقاته ، وذلك حيث يقول :

أخـــلائى أذمكم إليكم ... وكنت عدحكم قمناً خليقا
إذا استبطأتُكم عنّفتمونى ... وقلتُمْ إنّ فيه لذاك ضيقا
فأقسم لو تكونون الأسارى ... وكنت أنا المخلّى والطليقا
إذاً لجهدت فوق الجهد حتى ... أطيقَ خلاصكم أوْ لا أطيقا
فلا ـ والله ـ أذْخركم هجاءً ... وشتماً ـ ما بقيتُ ـ ولا عقوقا

وطال حبس ابى نواس فى المطبق ، حتى يئس من عفو الأمين،

ولم تبق له بارقة أمل فى الخلاص الا بدخول المامون . وذلك فى قوله :

يارب إن القوم قد ظلمونى
وبلا اقترافٍ معطِّلٍ حبسونى
والى الجحود بما عليه طويّتي
بالزور والبهتان قد نسبونى
ما كان إلا الجرىُ فى ميدانهم
فى كل خزىٍ ، والمجانة دينى
لا العذر يُقبَل لى ، ويَفرَق شاهدى
منهم ، ولا يرضون حَلف يمينى
أما الأمين فلست أرجو دفعَه
عنى ، فمَنْ لى اليومَ بالمأمون !

شعاع من الأمل

وكان الفضل بن الربيع خال يعرض أهل السجون ويتفقدهم ويتعهدهم ، فدخل الى حبس الزنادقة الذى فيه أبو نواس ، ولم يكن يعرفه ، فقال له : « يا هذا انت مع الزنادقة ؟ » فقال له أبو نواس « معاذ الله » فقال له « فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ » فقال له « أنا آكل الكبش بصوفه » فقال له « فلعلك تعبد الشمس ؟ » فقال له « انى لأتجنب القعود فيها بغضا لها » ، فجاء الى الفضل فقال له « يا هذا لا تحسنون جوار نعم الله بحبس الناس بغير جرم » فقال الفضل : « وما ذاك ؟ » فخبره الخبر ، فضحك منه ، ودخل على الخليفة فأخبره وشفع اليه فيه

الافراج عن ابى نواس

وكان الأمير فى غير حاجة الى اللجاجة فى التشفع لشاعره ، بعد أن بلغته منه أبيات قالها فى استعطافه :

تذكرْ أمينَ الله ، والعهد يذكرُ
مقامى ، وإنشاديك والناس حُضَّرُ
ونثرى عليك الدرّ يا درّ هاشم !
فيامن رأى درًّا على الدر ينثر
أبوك الذى لم يملك الأرضَ مثلُه
وعمُّك موسى الصفوةُ المتخيَّر
وجدُّك مهدىُّ الهدى ، وشقيقُه
أبو أمك الأدنى أبو الفضل جعفر
ومَن مثل منصوريْك : منصورِ هاشم
ومنصورِ قحطان إذا عُدَّ مفخر
فمن ذا الذى يرمى بسهميْك فى العلا
وعبدُ منافٍ والداك وحمْيَر
تحسنت الدنيا بوجهِ خليفةٍ
هو البدرُ إلاّ أنه الدهرَ مقمر
أيا خيرَ مأمولٍ يُرجَّى : أنا امرؤ ،
أسيرٌ رهينٌ فى سجونك مقبر

مضت لى شهورٌ ، مُذْ حبستُ ، ثلاثةٌ

كأنى قد أذنبت ماليس يُغفر

فان كنتُ لم أذْنب ، ففيم حبستنى ؟

وإن كنتُ ذا ذنب فعفوك أكبر

فلا غرو اذا رأينا الخليفة الأمين يهش لما تقدم به الوزير من شفاعة فى الشاعر السجين ، حتى لم يتمالك أن قال « اخرجوه واجيزوه ولو غضب ولد المنصور كلهم »

على أن الفضل بن الربيع رأى مع ذلك تدبير الأمر بما فيه مصلحة الدولة وحسن الدعاية للخليفة . فدعا بالشاعر فى حضرة الخليفة ، وحوله بنو هاشم وغيرهم ، وكان قد دعا بالنطع والسيف تهديدا له بالقتل . وأمر باستحلافه وأخذ العهد عليه أن يجتنب الخمر والسكر . وقال له الخليفة ؛ مظهرا الصرامة ليخفى من ورائها ابتسامة ، « فان شربتها ؟ » قال « دمى لك يا أمير المؤمنين » . وعاود الفضل الشفاعة فيه ، فأطلق سبيله ، وهو لا يصدق انه اطلق ، ومضى الى أهله يقول :

أهلى ، أتيتكمُ من القبر والناس محتَبِسون للحشر

لولا أبو العباس ما نظرت عينى إلى ولدٍ ولا وَفر

وكتب الى الفضل ، شاكرا له تناسى موجدته عليه وشفاعته فيه :

ما من يدٍ فى الناس واحدةٍ كيَدٍ أبو العباس أولاها

نام الثقاتُ على مضاجعهم وسَرَى إلى نفسى فأحياها

قد كنتُ خفتُكَ ، ثم أمّننى، من أن أخافك ، خوفُك الله

فعفوتَ عن عفوَ مقتدرٍ وجَبَت له نِقَمٌ فألغاها

المتهتك في مسوح المتنسك

ولزم ابو نواس بيته من خوف المطبق ، وظل علي ذلك اياما يظهر التوبة ويتذرع بالنسك والتقوى . والى القارىء الصورة التي يمثلها لنفسه كما يريده الخليفة ووزيره على أن يكون ، وهي – وان تكن صورة ناسك متبتل – تكاد لاتخفي ما وراءها من التهكم على النسك والسخر بالناسكين:

أنت يا ابن الربيع ألزمتني النُّسـ ـكَ وعوّدتنيه ، والخيرُ عاده
فارعوى باطلي ، وأقصر حبلي وتبدلتُ عفـةً وزهاده
لو تراني ذكرت بي «الحسن البصـ ـري» في حسن سمته، أو «قتاده»
من خشوعٍ أزينه بنحولٍ واصفرارٍ مثل اصفرار الجراده
المسابيحُ في ذراعيَّ ، والمصـ ـحف في لَبَّتي مكانَ القلاده
وإذا شئتَ أن ترى طُرفةً تعـ ـجب منها ، مليحةً مستفاده
فادعُ بي ، لاعدمت تقويم مثلي ، وتفطَّنْ لموضع السجّاده
ترَ أثراً من الصلاة بوجهي توقن النفس أنها من عباده
لو رآها بعض المُرائين يوماً لاشتراها يُعِدُّها للشهاده
ولقد طال ما شقيتُ ولكن أدركتني على يديك السعاده

توبة المضطر

والظاهر أن تهديد الخليفة هذه المرة قد أفزعه وروعه . فقد ظل زمنا يرفض الخمر ، وكلما هم بالمخالفة ذكر موقفه بين النطع والسيف ، فقال يخاطب نفسه :

أطِعِ الخليفةَ واعصِ ذا عَزْفِ وتنحَّ عن طربٍ وعن قصفِ

عين الخليفة بى موكّلةٌ عَقَدَ الحذارُ بطرفه طرفى
محت علانيتى له ، وأرى دينَ الضمير له على حَرْف
فلئن وعدتُك تركها عِدَةً إنى عليك لخائفٌ خُلْفى

وهو يذكر فى أسف لا يخفى كيف كان يغدو الى حوانيت الخمر فيملأ زقة من صفوها قبل الزقاق ، ويحوز قبلها قصب السباق . ولكن ما الحيلة وهذا أمر ملك العراق ، قد جعل هلاكه فى كف ساق :

أعاذلُ ، لا أموت بكف ساق ولا آبى على ملك العراقِ
هجرتُ له التى عنها نهانى وكانت لى كمُمْسكة الرماق
وقد يغدو إلى الحانوت زِقّي فيأخذ عفوه قبل الزِّقاق
وكُنَّ إذا نزعن إلى مداه حوى قدامها قصب السباق

المنادمة على غير شراب

وكان الفتيان يتعرضون لأبى نواس للشرب معه ، وهو يستعفيهم ويعتذر اليهم . فقال بعضهم « وان لم تشرب فآنسنا بحديثك » . فأجاب ، وحضر مجلس شرابهم . فلما دارت الكأس بينهم عادوا يعزمون عليه ويستهوونه ، « ألم ترتح لها ؟ » قال « نعم والله ! ولا سبيل الى شربها » وانشأ يقول :

أيها الرائحان باللوم ، لُوما لا أذوق المدام إلا شميما
نالنى بالملام فيها إمامٌ لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فانى لست إلاّ على الحديث نديما
إنّ حظّى منها إذا هى دارت أن أراها وأن أشم النسيما

فكأنى وما أزيِّن منها قَعَدِيٌّ يزيِّن التحكيما

كلَّ عن حمله السلاحَ إلى الحر ب ، فأوصى المطيق ألاّ يقيما

على أن الشاعر وان يكن قد أقلع عن الخمر لم يكف عن ذكرها واللهج بأوصافها :

لولا الأميرُ ، وأنّ العذر منقصةٌ

والعارُ بالعذر عندى أقبحُ العار

جاءت بجاتها من بيت خمّار

روحٌ من الكرم فى جسم من القار

فالريح ريحُ زكيٍّ الأذفر الدارى

والبردُ بردُ الندى ، واللونُ للنار

شاعر الخمر يتغنى بالأطلال طاعة للأمر

ولكن هذا لم يرض أولى الأمر ، فشددوا عليه فى ترك التغنى بالخمر . فكأنما قضى على هذا الثائر على مذهب العرب فى الشعر ، الساخر من اوصافهم للطلول والقفر ، أن ينعتها وان يكن كارها لها :

أعِرْ شعركَ الأطلالَ والدِّمنَ القفرا

فقد طال ما أزرى به نعتُك الخمرا

دعانى الى وصف الطلول مسلّطٌ

تضيق ذراعى أن أجوز له أمرا

فسمعاً أميرَ المؤمنين وطاعةً

وان كنتَ قد جشمتنى مركباً وعرا

احتيال الشاعر للتغنى بالخمر

ومع ذلك فقد كان الشاعر من بعد نعته للطلول يحتال للتغنى بالخمر . وانك لتحس وقتئذ فى نعوته للخمر من لهف اشتياقها ، وسعار تعطشه لها ، ما يحرك منك ـ وان كرهت ـ الاشفاق عليه والرحمة له :

أدرِ الكأس حان أن تسقينا ... وانقرِ الدفَّ إنه يُلهينا
غنِّنا بالطلول كيف بلينا ... واسقنا نُعْطِك الثناء الثمينا
ودَعِ الوصف للطلول اذا ما ... دارت الكأس يسرةً ويميناً
من سلافٍ كأنها كل شىءٍ ... يتمنى مُخيَّرٌ أن يكونا
أكَل الدهرُ ما تجسّم منها ... وتبقَّى لبابَها المكنونا
فاذا ما اجتليتها فهباءٌ ... يمنع الكفَّ ما يبيح العيونا
ثم شُجَّت فاستضحكت عن لآلٍ ... لو تجمَّعن فى يدٍ لاقتُنينا
فى كؤوس كأنهن نجوم ... جاريات ، بروجُها أيدينا
طالعات من السقاة علينا ... فاذا ماغربن يغربن فينا
لو ترى الشَّرْب حولها من بعيد ... قلت قومٌ من قِرَّةٍ يصطلونا
وغزال يديرها ببنانٍ ... ناعمات يزيدها الغمزُ لينا
كلما شئتُ علَّنى برضابٍ ... يترك القلب للسرور خدينا
ذاك عيشٌ لو دام لى ، غير أنى ... عِفْتُه مكرهاً وخفت الأمينا

الغزل فى الساقى دون الخمر

على أن شاعرنا كان لا يعدم فى مجلس الشراب بعض التعزية عنها ، فثمة ـ على الأقل ـ الساقى المليح الغرير ،

اذا هو طاف بالخمر فلم يشربها من يديه ، شربها لذيذة مسكرة من سحر عينيه :

أعاذل ، أعتبت الإمام وأعتبا ... وأعربت عما فى الضمير وأعربا
وقلت لساقينا «أجزه» فلم يكن ... ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوّزها عنى سلافاً ترى لها ... إلى الأفق الأعلى شعاعاً مطنّبا
إذا عبّ فيها شارب القوم خاتَه ... يقبّل فى داج من الليل كوكبا
يدور بها ساقٍ أغنّ ترى له ... على مستدار الأذن صُدغاً معقربا
سقاهم ومنّانى بعينيه مُنيةً ... فكانت على قلبى ألذّ وأطيبا

العودة للسكر بعد التوبة

وكان أبو نواس قديم عهد بالكوفة وله فيها أصدقاء يالفهم ولا يبرح يحن الى مجالسهم . ولا غرو ، فهو شديد العجب بالطنبور ، وهم كانوا كلما جاءهم يجمعون له ضراب الطنابير ، والكوفة كانت معدنهم . وكان أبو نواس يصحبهم الى بيت خمار بالحيرة يؤثره ، يقال له جابر ، لطيف الخلقة نظيف الثياب ، نظيف الآلة ، يعتق الشراب سنين . وهنا كان أبو نواس يسكر فى الليلة الواحدة سكرات . ويروى الشاعر الكوفى ابن الصلصال فيما نحن بسبيله من معاناة أبى نواس نهى الخليفة اياه عن الشراب ، قال : قدم علينا أبو نواس مرة وقد نهاه الأمين عن الشراب . فسأل عنى ، فقيل « هو بالحيرة » فوافانى ، وفى يدى شىء من شراب جابر ، عجيب الحسن والرائحة . فقال لى « يا أبا جعفر ، لا يجتمع هذا والهم فى صدر واحد ! » فوجهت فجمعت له من ضراب الطنابير جماعة ، وأحضرته شيئاً من ذلك الشراب ، فقال لى « ألم تعلم ما حدث على ؟ » قلت « وما هو ؟ » قال « نهانى

امير المؤمنين عن الشراب وتوعدنى عليه » . ثم انشدنى قصيدته التى مطلعها :

أيها الرائحان باللوم ، لوما لا أذوق المدام إلا شميما

الى أن انتهى الى قوله :

فكأنى وما أزين منها قعدى يزين التحكيما

كل عن حمله السلاح الى الحرب فأوصى المطيق ألا يقيما

فقلت له : « اقم معنا كما حكيت من فعل القعدية » . قال : « أفعل » . وأقمنا على ذلك ساعة ثم أنشدته شعرا يتضمن قوله :

لا تحسبن عقار خابية والهم يجتمعان فى صدر

فبادر أبو نواس « هاتها فى كذا وكذا من أم الأمين ! » . ومد يده فأخذ القدح ، وشرب معنا . ثم شخص الى بغداد ودخل على الأمين . فقال له « أين كنت ؟ » قال « عند صديقى الكوفى » وحدثه الحديث . قال الخليفة « فما صنعت حين انشدك الشعر ؟ » قال « شربت والله يا أمير المؤمنين » قال « احسنت وأجملت ، فاشخص الى الكوفة حتى تحمل الى صديقك هذا » . فقدم الى ، فحملنى اليه . فلم ازل معه حتى قتل

وهكذا لم يلبث شاعرنا النواسى ان غلب عليه طبعه فنازعته الى الخمر نفسه . وكيف يتاتى لمثله التنكر لها والسلو عنها وانه ليحس بينه وبينها نسبا شابكا ورحما ماسة ، فهو تارة ابنها ، وهى تارة شقيقة روحه :

أنا ابن الخمر ، مالى عن غذاها – الى وقت المنية – من فطام

لائمى فى المدام – غير نصوح – لا تلمنى على شقيقة روحى

السرف يفضى الى التلف

وكان شاعرنا مسرفا مضياعا لا تحتوى يده على عطاء مهما جل حتى يتلفه على الخمر والندمان . ولقد حمل ما حمل اليه أولا وآخرا من جوائز ممدوحيه من الملوك والأمراء والوزراء وارباب الدولة ، وترادف ما ترادف عليه من صلات محبى منادمته من السراة وأهل النعمة ، ولكنه لم يدخر من ذلك كله شيئا . ويا ليته وقف فى غرامه بالخمر واستهتاره بها عند اتلاف ما لديه فيها ، بل صار يزرى على من لا يفعل فعله من عشاقها وخاطبيها :

يا قهوة حرّمت إلاّ على رجل ... أثرى فأتلف فيها المال والنشبا

فلا غرو وقد نزفت ما عنده من مال ، أن تشتد به الحاجة ويعانى جهد الحال ، لاسيما والخليفة غير مقبل عليه كما كان

فهو يتوجه الى آل الفضل بن الربيع بالسؤال يستمنحهم ويستدر عطاءهم فيبطئون عنه ، ويشكو الشاعر من خلف الوعد وكثرة المطل ، فيثقل عتابه على نفوسهم ويلقى فى الحبس . فيكتب الشاعر الى الفضل فى حبسه معتذرا اليه ذاكرا بره طالبا عفوه :

أبا العباس ، ما ظنّى بشكرى ... ـ إذا ما كنتَ تعفو ـ بالذميم

وكنتَ أباً ، سوى أن لم تلدنى ، ... رحيماً أو أبرَّ من الرحيم

لئن أصبحتُ ذا جرم عظيمٍ ... لقد أصبحتَ ذا عفوٍ كريم

ويتشفع بجعفر اخى الفضل قائلا :

فلا تجحدوا بى ودَّ عشرين حجةً ... ولا تفسدوا ما كان منكم من الفضل

وفيما يرويه الرواة من هذه الأخبار أن أبا نواس صار الى

العباس بن الربيع فى حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده وهو يقول :

لعمرك ما العباس من ولد الفضل فيرجى لعرفٍ أو يغار على بذل

فتى كلما ناديتـــه لملمّةٍ دعوت مثالاً لا يُمِرّ ولا يُحلى

فبلغه ذلك فشكاه لأبيه ، فامر بكر بن المعتمر ، فأخذه وضربه وحبسه وقيده وأسلمه الى سجان فظ غليظ كان على المطبق اسمه « سـعيد » فضيق عليه وآذاه . فكتب الشاعر السجين رقعة وانفذها الى بكر فيها :

وُقيت بى الردى . زدنى قيودا
وثنِّ علىّ سوطاً أو عمودا
ووكِّلْ بى وبالأبواب دونى
من الرقباء شيطاناً مريدا
وأعفِ مسامعى من صوت رجسٍ
ثقيل شخصه يدعى « سـعيدا »
فقـد ترك الحديد علىّ ريشاً
وأوقر بغضـــه قلبى حديدا

فضحك بكر من الأبيات ، ووقف الفضـــل عليها ، فامر باطلاقه فخرج وهو يقول :

يافضلُ قد أوسعتنى عظةً ما بعدها غلطٌ ولا سهوُ

ومضى الشاعر المغلوب على أمره ، يتخفف من أثقال همه فى المتنزهات المونقة خارج بغداد ، بعيدا عن رجال الحكم وتناحر الأحزاب السياسية وجلبة الحرب الأهلية ، عاكفا

على الشراب لا يشبع منه ولا يفتر عنه ، كمن يتعوض مما فات ، أو يتزود لما هو آت :

أما يسرك أن الأرض زهراء   والخمر ممكنة شمطاء عذراء
بادر، فإن جنان الكرخ مونقة   لم تلتقيها يد للحرب عسراء

حصار بغداد

وكانت جيوش طاهر المأمونية قد تقدمت ونزلت حلوان وذلك على خمسة أيام من بغداد مدينة السلام . فاضطربت الناس من زيادة أمره ، وادبار أصحاب الأمين وهزيمتهم فى كل حال . وايقنت القلوب بغلبة المأمون ، فسقط فى يدى الفضل بن الربيع وأصحابه . ورجع الخليفة الى قواده وبطانته يجمعهم ويشاورهم ويكرر عليهم « أحضرونى غناءكم كما أحضرت خراسان عبد الله غناءها » ، ويستحث فيهم قيام رجل مثل طاهر قائد خصمه ، ويقول فيه : « أما والله لقد حدثت بأحاديث الأمم السالفة وقرأت كتب حروبها وقصص من اقام دولها ، فما رأيت فى ذلك كله حديثا لرجل منهم كهذا الرجل فى اقدامه وسياسته . وقد قصد الى واجترأ على ، فهاتوا اليوم ما عندكم » . ولكن جيوش محمد ما برحت تنهزم بين يدى طاهر ولم تقم لها قائمة

وأراد بعض الأمراء أن يستجيش للأمين جندا من الشام والجزيرة ممن أدبتهم الشدائد وضرستهم الحروب . فأبى سوء حظ الأمين الا أن تقوم فتنة فيهم بين الأبناء الجزريين وأهل الشام الزواقيل . فانفض اهل الشام الى بلادهم . ونادى قائد الأبناء الحسين بن على بن ماهان فى عسكره بالرحيل قاصدا بغداد ، فلما وصلها خلع الأمين فى ١١ رجب سنة ١٩٦ وحبسه وأعلن البيعة للمامون . ولكن كبار الأبناء ثاروا على قائدهم وأسروه ، واطلقوا الأمين ، واقعدوه فى مجلس الخلافة

وبينما كانت الأمور فى بغداد على هذه الحال من الاضطراب والفساد ، كان أمر المأمون على غاية ما يكون من النظام واحكام التدبير . وقد أرسل من قواده هرثمة بن أعين فتسلم من طاهر بن الحسين ما غلب عليه من الكور والمدن بشرقى بغداد وتحول طاهر الى الأهواز والبصرة فى غربيها ، ليكون الهجوم على بغداد من جهتين

ولم تلبث أن اجتمعت الجيوش المأمونية حول بغداد ، فحوصرت من عدة جهات ، وقطعت عنها الأزواد والتجارة ونصبت عليها المنجنيقات والعرادات وصارت المدينة ترمى فى كل وقت بالحجارة . فكثر الهدم والتحريق ، وخربت الديار ، وعفت الآثار ، وانتهبت الأموال وغلت الأسعار . وبلغت الشدة بالناس كل مبلغ . وانفض عن الخليفة المنكود الحظ طلاب الجاه وأرباب المراتب من خاصته ، والتجار ، واصحاب الأموال والودائع والذخائر . والعجيب ان الذين بقوا على الولاء وصمدوا للدفاع خلق من السوقة والعيارين وأهل السجون . وكانوا على مداخل المدينة يقاتلون نصف عراة ، فى أوساطهم التبابين والمآزر ، وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص يسمونها الخوذ ، ودرقا من الخوص والبوارى قد قيرت وحشيت بالحصى والرمل . وكان على كل عشرة منهم عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ولقد ارتضى بعضهم أن يكون مركبا للرؤساء يركبونهم بالمقاود واللجم والمذاب . وعلى هذه الحال كان يتقدم الرؤساء منهم وسائر المقاتلة الى حرب أصحاب الخيول الفره والجواشن والدروع والتجافيف والسواعد والدرق التبتية ، فهؤلاء عراة وهؤلاء بكامل العدة ، فكان يقتل منهم الخلق الكثير

ولقد سجل هذه الأحداث وقعة وقعة فى قصائد عدة ، زميل أبى نواس ومواطنه البصرى ، صاحب الأخبار الكثيرة معه ، عمرو بن عبد الملك العنزى الوراق ، وهو على مجونه

قد اشتغل بهذه الخطوب واهتم لها

أبو نواس أثناء الحصار

وأما أبو نواس فانه فى وسط هذه الحروب والفتن لم يكن له هم ، وقد شغل عنه اولو الأمر ، الا ان ينغمس فى حياة الفجور والسكر . واذا كان لم يفكر فى خيانة الأمين والانحياز الى خصمه ، فانه كذلك لم يخطر له أن يحمل سيفا أو يعتقل رمحا فى القتال عنه . وانما كان ميدانه مجلس اللهو ، وآلات حربه مقارعة الأقداح والترامى بالزهر وقد استبدل بهيعة الوغى وسفك الدماء صوت المعازف وحمرة الخمر :

إذا عبّا أبو الهيجا ءِ للهيجاءِ فرسانا
وسارت رايةُ الموْت أمام الشيخ إعلانا
وشبّت حربها واشـتعلتْ تُلهب نيرانا
جعلنا القوسَ أيدينا ونَبْلَ القوس سوسانا
وقدّمنا مكانَ الرُّمـح والمِطْرد رَيْحانا
فعادت حربُنا سِلْماً وعُدنا نحن خُلاّنا
بفتيانٍ يَرَوْنَ القتـلَ فى اللذّة قُرْبانا
إذا ما ضربوا الطبلَ ضربنا نحن عيدانا
وأنشأنا كراديساً من الخيرىِّ ألوانا
وأحجارُ المجانيق لنا تفّاحُ لُبنانا
ومَنْشاخرْ بناساقٍ سَبَا خمراً فسقّانا
يحثُّ الكاسَ كى تلـحق أخرانا بأولانا

ترى هـذاك مصروعاً وذا ينجرُّ سكرانا
فهذي الحرب، لا حربٌ تغمُّ الناسَ عدوانا
بهـا نقتلهم ، ثمّ بها ننشرُ قتـلانا

وهذه مقابلة اخرى من مقابلاته بين الحربين :

أحسنُ من رَمْيٍ بعرّادةٍ ومِنْ قِذَافِ المنجنيقاتِ
مُسامرٌ في مجلس حاضرٌ أمام أعـوادٍ ونايات
وقينةٌ تشدو على صحبها تُعطيك أسباب اللذاذات
فذاك يُسْلي الهمّ لا معركٌ يرمى بأحجار المنيّاتِ

واذا كان هـذا حال صاحبنا ، فالأمر ليس رأيا يرتئيه ومذهبا فى التفكير يذهب اليه ، وانما هو شيء فى أصل تكوينه وتركيب طباعه . واليك عذره وهو لا شك أدرى بنفسه :

يا « بِشْرُ » مالى والسيفِ والحَرْبِ
وإنّ نجمى لِلَّهوِ والطربِ
فلا تثقْ بى فانني رجـلٌ
أكُعُّ عنـدَ اللقاءِ والطلب
وإن رأيتُ الشُّراةَ قد طلعوا
ألجمتُ مُهرى من جانب الذَّنَب
ولستُ أدرى ما الساعدان ، ولا التر
س ، وما بَيْضَةٌ من اللَّبَب
همِّى إذا ما حروبهـم غلبتْ
أىُّ الطريقين لى إلى الهرَب

لو كانَ قصفٌ وشربٌ صافيةٍ
وجدتَني ثَمَّ فارسَ العَرَبِ

وقد روى ابراهيم الطبرى أنه كان فى أيام الفتنة جالسا على بابه ، اذ مر به أبو نواس وقال : « قم حتى نأخذ من شأننا » فدخلا فجعلا يشربان . وأقبل الداخل بعد الآخر يدخل اليهما فيقول : « كان كذا وكان كذا » فأنشأ أبو نواس:

عنديَ للخمرة أسماءُ ... لها دواءٌ ولها داءُ
يُصلحُها الماءُ إذا صُفقتْ ... وربما أفسدها الماء
وقائل كانت لهم قصةٌ ... فيها أحاديثٌ وأنباء
قلت له : «أيُّ امرىءٍ جاهلٍ ... فيك عن الخيراتِ إبطاء
اشربْ ودعنا من أحاديثهم ... يصطلح الناس إذا شاءُوا »

الحرب الأهلية ومقتل الأمين

ولم تزل الحرب قائمة بين الفريقين : المأمونية ، والمحمدية أربعة عشر شهرا . وكان القتال يشتد كل يوم عما قبله ، وصبر الفريقان جميعا . وانقطعت الموارد بالأمين فى أرزاق الجند ، فضرب الآنية من الذهب والفضة سرا وأعطى رجاله ثم شغب عليه من لم يعطهم من قادته وجنده وخذلوه ، واقتصرت حامية المخلوع وجنده على العراة أصحاب خوذ الخوص ودرق البوارى ورماح القصب وأعلام الخرق وبوقات القصب وقرون البقر .. وكانوا فى حربهم كالشياطين ، وقد اتخذوا تحت آباطهم المخالى فيها حجارة وقطع آجر يبتدرون بها الفرسان ويصرعونهم عن أفراسهم . فصار القتل أعم فى أصحاب طاهر ، والغرق والحريق فى العراة أصحاب المخلوع واشتد الأمر بالناس أى اشتداد وهم تحت وابل المنجنيقات

والمرادات ، ينتقل أهل السكك والدروب من موضع الى موضع ، حتى ضاق أهل بغداد بها ، وصار أكثرهم يسخطون على الأمين ما جلب على الأمة بغدره وسوء رأيه. وكثر القتل فى الطرق والشوارع . ينادى هذا « يا للمأمون » ، وهذا « يا للمخلوع » فيقتل بعضهم بعضا . وانتهبت الدور ، وأعملت النار ، وعظمت الحال . وكان الفوز الأكبر والفرح الأعظم لمن نجا بنفسه من رجل وامرأة ، وكبير وصغير بما يسلم معه ، الى عسكر طاهر فيأمن على دمه وماله

وشدد طاهر النكير وضيق الخناق . وأقبل يقتطع من بغداد الشارع بعد الشارع ، فينحاز اليه من يصير فى حيزه من أهل تلك الناحية ، ويعاونونه فى حربه . واشتد الأمر على محمد المخلوع وجد به . فنصح اليه من نصح بالتسليم والح عليه الصعاليك من أصحابه بالخروج من المدينة بالليل الى بلاد الجزيرة وديار ربيعة ، لاستنفار الرجال وجباية الأموال ، ثم العودة للقتال . فما زال به دعاة التردد والهزيمة حتى أسلموه الى يد عدوه القائد طاهر بن الحسين ورجاله ، فأخذته سيوفهم حتى قتلوه

وهنا انقلب الكثيرون من مادحى الأمين فى أيام عزه ، الى القدح فيه والتشنيع به وتعديد مثالبه بعد موته ، يتقربون بذلك الى الغالب ويخطبون وده . ولكن أبا نواس لم يكن من هؤلاء ، بل كان صاحب الشعور الجميل كما يجمل بالشاعر أن يكون ، وكان مثالا على الوفاء بما روى له من رثاء

طوى الموتُ مابينى وبين محمدٍ
وليس لما تطوى المنيــة ناشرُ
لئن عَمِرَتْ دورٌ بمَنْ لا أوَدُّه
لقد عَمِرَتْ ممن أحبُّ المقابر

الخاتمة

عاش ابو نواس ما عاش « طالب لذة » . ولو كان ذلك الانصراف منه الى اصابة اللذة والتهالك على مواقعتها من قبيل جنون الشباب وفورة الصبا ، لذهب ما به مع تقدم السن وتجاوز هذا الطور من العمر . ولكنه ظل على حاله من الخلاعة والمجون الى أن بلغ الخمسين والى ما بعد الخمسين . واذا ذكرنا أنه كان ناعما نحيل البدن تعوزه الصلاعة ومتانة التركيب منذ حداثته ثم أضفنا الى ذلك علو سنه وكهولته ، لم نصدق أن استهتاره باللذات وانغماسه فيها مما ينسب الى فيض القوة وغلبة الشهوة ، ولا سيما اذا تدبرنا ما قيل من أنه لم يكن مجدودا من النساء . فالأمر اذن لا يخلو من أن الرجل كان صاحب لذة من ناحية مزاجه قبل كل شيء ، وأن فجوره كان فنيا ، أو ـ اذا شئنا اصطناع لغة الفلسفة ـ كان فجورا بالقوة لا بالفعل ، أو بلفظ أدق كان بالقوة أكثر منه بالفعل . فهو ـ مهما يقل عن نفسه ـ لم يكن أقبح أهل الأرض عملا ، وان يكن من أقبحهم قولا :

عفٌ ضميري ، هازلٌ لفظي ، وفي نظري عرامه

ولقد كان في وسع أبي نواس أن يتستر ويتكتم ويستعمل التقية والنفاق كغيره ، ويصيب في السر والخفاء من اللهو وألوان اللذاذات ما يشاء . ومن المحقق الثابت أن أهل زمانه لم يكونوا يختلفون عنه كثيرا الا في تسترهم ومجاهرته ، وسرهم وعلانيته ، كما تنطق بذلك وصية شيخ البرامكة يحيى الى ولده :

إنْصَبْ نهاراً في طِلابِ العُلا ... واصْبِرْ على فقْدِ لقاءِ الحبيب
حتى إذا الليلُ بدا مُقبلاً ... وغاب فيه عنك وجه الرّقيب
فبادر الليلَ بما تشتهى ... فإنما الليلُ نهارُ الأريب
كم من فتًى تحسبه ناسكاً ... يستقبلُ الليلَ بأمرٍ عجيب
ألقى عليه الليلُ أستارَه ... فبات في لهوٍ وعيشٍ خصيب
ولذّة الأحمق مكشوفةٌ ... يسعى بها كلُّ عدوٍّ مريب

ولكن أبا نواس كان لا يعرف اللذة الا في المجاهرة بها ، واعلام القاصي والداني بشينها ، مع المبالغة والتهويل في أمرها كأنما اللذة ليست هي التي تعنيه ، وانما استهتاره بها هو المعنى المقصود . وقد يكون من المفيد أن نشير هنا الى أن هذه الآفة تكون أحياناً من علامات مركب النقص في الضعافه القاصرين من أهل الاباحة المستهترين :

غدوتُ إلى اللذات منهتك السّتْرِ
وأفضتْ بناتُ السرِّ مني الى الجهر
وهان عليَّ الناسُ فيما أرومه
بما جئتُ فاستغنيْتُ عن طلب العذر

ألا فاسْقِني خمراً ، وقل لي هي الخمرُ
ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ
وَبُحْ باسم مَن أهوى ودعني من الكُنَى
فلا خير في اللذاتِ من دونها ستر

أطيب اللذّات ما كا   ن جهاراً بافتضاحِ

والقارئ لمجون أبى نواس ينتهى لا محالة الى أن الشاعر يعترف على نفسه بأكثر مما يقترف ، ذاهبا مع خياله المريض الى أبعد ما تذهب اليه نزعات الشهوة ، مستغرقا فى تصور ما ليست له عليه قدرة. وهو بهذا الخلط بين الوهم والحقيقة يتعوض من عجزه فيما بينه وبين نفسه ، ويرضى غروره بما يزعمه عند من لف لفه من أبناء عصره . وأياما كان الحال فقد مضى صاحبنا فى غوايته ، سادرا فى جهالته ، مستكثرا من الفضائح ، يضع لهوه ولذته فوق كل اعتبار ، ولا يبالى ما يجب لسنه من الوقار

يقولون فى الشيب الوقارُ لأهله   وشيبى بحمد الله غير وقارِ

وكان كلما أدبر شبابه وتداعى عنفوانه وتقدم به العمر ، تركزت كل شهوته فى الخمر ، فاستهلك فى شربها والعكوف عليها :

لم يبْقَ لى فى غيرها لذّةٌ   كَرْخِيَّةٌ فى الكأس كالنارِ

قالوا: «شمِطْتَ» فقلتُ: «ماشمطتْ يدى

عن أن تحث الى فمى بالكاس »

فالشيخ متعلق بها ، مصر عليها ، غير آس على شىء يفوته غيرها . فهى شغله فى الحياة وطلبته ، وهى ما بعد الحياة همه وموضع تفكيره وموضوع وصيته :

خليلىَّ بالله لا تحفرا   لىَ القبرَ إلا بقُطْرُبُّلِ

خلالَ المعاصر بين الكُروم   ولا تُدْنيانى من السُّنْبُلَ

لعلّىَ أسْمَعُ فى حفرتى   إذا عُصرتْ ضجّةَ الأرجل

على أن للشاعر مع هذا أبياتا فى الزهد لا نحسبه نظمها منافسة لأبى العتاهية أو غير أبى العتاهية فى هذا الباب من الشعر ، واظهارا لاقتداره فى كل غرض من أغراض النظم .
وانما الذى نراه ، أنه كان فى بعض هذه الزهديات صادقا كل الصدق فى شعوره ، وأن شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من المنساقين فى حياة الفسوق والشرب ، تنتابهم فى الحين بعد الحين فترات يذكرون فيها الله وموقف الحساب وما ينتظرهم من العقاب ، وقد تبتدر عبراتهم وتتصعد زفراتهم ، ولكنهم ماضون فى ضلالهم لا يستطيعون عنه صبرا :

بكيتُ ، وما أبكى على دِمَنٍ قَفْرِ
وما بى من عشقٍ فأبكى على الهجرِ

ولكنْ حديثٌ جاءنا عن نبيِّنا
فذاك الذى أجرى دموعى على النحر

بتحريم شرب الخمر والنهى جاءنا
فلما نهى عنها بكيتُ على الخمر

فأشربُها صِرْفاً وأعلم أنني
أُعَزَّر فيها بالثمانين فى ظهرى

فموقف هذا المدمن السكير فى خمره ، موقف المؤمن المغلوب على أمره ، يشربها وهو عارف حق المعرفة ما يتعرض له من أجلها فى الدنيا وفى الآخرة :

الراحُ شىءٌ عجيبٌ أنت شاربها
فاشربْ وإن حمَّلتك الراحُ أوزارا

يا مَن يلوم على حمراء صافية

صِرْ فى الجنان ودَعْنى أسكن النارا

والقارىء لزهدياته يراه دائم التفكير فى الموت ، يتمثل حكمه الجارى على الأجيال والأشياء من قبل ومن بعد بغير انتهاء ، فيرى كل جهد الى ضياع ما دامت الغاية الفناء

وتسلط فكرة الموت والشعور بفناء كل شىء ووشك زواله من الأمور التى قد تؤدى الى الزهد فى نعيم هذه الحياة العاجلة ، كما قد تؤدى الى ضد ذلك تبعا لمزاج الشخص وما ركب عليه طباعه . ولقد كان من شعور شاعرنا بقصر المدة التى للأحياء على هذه الارض ، وتيقظ حسه للأيام تعبر به سراعا ، والعمر ينطوى بساطه تحت قدميه ، وعقد الحياة ينفرط بين يديه ، أن حرص على مبادرة اللذات والتمتع بها قبل الفوات :

رأيتُ الليالى مرصَدات لمدّتى فبادرت لذّاتى مبادرةَ الدهر

ولعله مما تجب ملاحظته ، أن أبا نواس لا يبرح حتى فى زهدياته تغلب عليه نزعته الحسية ، فاذا هو ذكر الموت والقبر اقترن ذكرهما بما يتمثله تحت التراب من الوجوه الوضاء ذات السمت والرواء

أيا رُبَّ وجهٍ فى التراب عتيقِ ويارُبَّ حسنٍ فى التراب رقيقِ

وما الحىُّ إلا هالكٌ وابن هالكٍ وذو نسبٍ فى الهالكين عريق

وهو اذا زجر نفسه عن الهوى ، ووعظها بالشيب ، واستحثها على العمل الصالح لتفوز مع أهل الطاعة والتقوى بجنة المأوى ، لم يذكر من جنة المتقين الا نساءها من الحور العين :

أيةُ نار قَدَحَ القادحُ وأى جِدٍّ بلغ المازح

لله درُّ الشيبِ من واعظٍ وناصحٍ لو حذّر الناصح
يأبى الفتى إلا اتباعَ الهوى ومنهجُ الحق له واضح
فاسْمُ بعينيك الى نسوةٍ مهورهنّ العملُ الصالح
لايجتلى الحوراءَ منخدرها الا امرؤٌ ميزانُه راجح
مَن اتّقى اللهَ فذاك الذى سيق اليه المتجرُ الرابح

ومن كان هذا مزاجه وهذه ارادة طباعه ، فكيف يرجى له أن يزهد ويتبتل ، ولاسيما اذا كان حوله من الغوايات والمغريات مثل ما فى بغداد وأرباضها فى ذلك العصر ، مما لا يحيط به وصف ولا يدخل تحت حصر :

قالوا « تَنَسَّكَ بعدالحج » قلتُ لهم
« أرى ، وأرجو ، وأخشى طيزناباذا
أخشى قُضَيِّبَ كرْمٍ أن ينازعنى
رأسَ القِطار وان أسرعت إغذاذا
ما أبعدَ النسك من قلب تقسَّمه
قُطْرُبُّلٌ ، فقُرى بُنَّى ، فكلوا ذا
فان سلمتُ — وما قلبي على ثقةٍ
من السلامة — لم أسلَمْ ببغداذا



والى جانب هذه الغوايات الحسية غواية أدبية ، ان جازت هذه التسمية على حرص هذا الماجن على ما شاع له من شهرة وصيت فى القبائح والمنكرات . لقيه أبو العتاهية فى

المسجد وقال له : « أما آن لك أن ترعوى ؟ أما آن لك أن تنزجر وقد بلغت من السن والعلم ما فى دونه يتعظ العاقل اللبيب ، وأنت تعاقر بنت الحان ، وتصبو صبوة الشبان ! » فرفع أبو نواس رأسه اليه وهو يقول :

أتُراني يا عَتَاهِى تاركاً تلك الملاهى !

أتراني مُفسداً بالنسك بين الناس جاهى !



والذى يقرأ عن أبى نواس ما ركب من المحارم وما بلغ من مجاهرته بالمعاصي ، ويقرأ له شعره فى المجون وقبح خروجه أحيانا على حرمة الدين ، ويرى كيف كان يتعرض للقتل بجهده ، وما جره على نفسه من التعزير والضرب والحبس فى المطبق ، وهو لا يقصر عن باطله ولا ينزع عن جهله ، قد يتصور أنه منكر من الملاحدة المعطلة افتتن بالنظر والفكر ، وذهب مذهب القائلين بالدهر ، أو هو ثائر مارد من العصاة العتاة على غرار ابليس ، يجترىء اجتراءه ويقف من التحدى موقفه . ولكن حقيقة الأمر لمن يتقصى أشعاره وأخباره بخلاف ذلك وعلى الضد منه . فالرجل مؤمن مصدق بقلبه . ولا نقول انه لم يتشكك ، فقد عاش فى عصر من عصور الشك. ولكنه شك من النوع الذى قد يعرض للمؤمن فلا يخرجه الى الانكار ، ثم ان معظمه لا يعدو ما يجرى عليه ظرفاء كل عصر من مخالفة العامة واظهار الخروج على العرف ، يضاف اليه ذهابه مع الخلاعة والمجون الى غير حد . وقد جاء على لسان أصحابه ممن كانوا يعذلونه ويعيبون عليه مجونه روايات عدة كلها شاهد على ايمان الرجل وصحة اعتقاده . وكان يقول اذا أطالوا توبيخه وتخويفه : « والله انى لأعلم ما تقولون ، ولكن المجون يفرط على ، وارجو ان اتوب فيرحمنى الله عز وجل »

وظاهر من هذا أن أبا نواس لم يرتكب ما ارتكب من المعاصي وهو فارغ البال من خشية الله ، ولكنه مع ذلك لم يكن بالذي يستطيع تركها والاقلاع عنها التماسا لرضاه . وهي حال من التناقض توقع في الحيرة ولا يتبين معها وجه الطريق . على أن العصر ـ بما كان شائعا فيه من مذاهب الجدل والكلام ـ لم يعدم ما يغالط به ويستند اليه ليمضي في حياة اللذة التي كان عليها ، من غير حاجة الى التكذيب بالدين أو اليأس من الجنة . ذلك هو مذهب المرجئة القائل بأن الايمان يكفي فيه التصديق بالقلب . فليست أعمال الانسان ركنا من أركان الايمان . والمؤمن الذي يرتكب الكبيرة لا يعد كافرا ، بل يقال عليه فاسق في كذا من غير اطلاق ، واذ كان غير معدود في الكفار فهو لا يخلد في النار . ثم ان الله لا يتخلف في الثواب وعده ، لأن الثواب فضل فيفي الله به لأن في خلفه نقصا . وأما وعيده بالعقاب فقد يتخلف ، لأن العقاب عدل ولله أن يتصرف فيه كما يشاء ، وليس في الخلف في الوعيد نقص . وفي ذلك يقول أبو نواس :

لا بأعمالنا نُطيق خلاصاً ... يومَ تبدو السِّماتُ فوق الجباهِ

غير أنَّا ـ على الاساءة والتفريطِ ـ نرجو لحسنِ عفو الاله

ولقد عارض الخوارج والمعتزلة هذا الرأي أشد المعارضة . ولعل لهم في ذلك العذر ، لا كراهة لما ينطوي عليه من التسامح ، بل لما قد يؤدي اليه من تهوين أمر المعاصي وخلع الطاعات ، عند العامة وأصحاب الخلاعات :

غاد المدامَ وان كانت مُحرَّمةً ... فللكبائر عند اللهِ غفران

وقد ختم أبو نواس احدى قصائده في وصف الخمر ، وطروقه للخمارات معرضا ببعض أصحابه من فلاسفة المعتزلة ، وهو ابراهيم النظام لمعارضته مثلهم لهذا المذهب في العفو عن مرتكب الكبيرة :

فقُلْ لمن يدّعى فى العلم فلسفةً :

« حفظتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ

لاتَحْظرِ العفوَإن كنتَامرأًحرِجاً

فان حَظْرَكَهُ بالدين ازراء »

من أجل ذلك كان العصر العباسى بما فيه من اللهو ، تروج فيه مذاهب الارجاء وخاصة فلسفة العفو . ولقد أكثر المجان الخلعاء من الشعراء القول فى ذلك ، وكانوا يتواصون بالاستكثار من المعاصى ليظهر عفو الله أجل وأشمل :

تَكَثّرْ ما استطعتَ من الخطايا

فانك بالغٌ رباً غفورا

ستبصر ان قَدِمتَ عليه عفواً

وتَلْقَى سيِّداً مَلِكاً كبيرا

تعضُّ ندامةً كفيْكَ مما

تركتَ مخافةَ النار الشرورا

ويروى أن الأمير العباس بن محمد الهاشمى كان يتشوق أبا نواس ويميل اليه ، فلما رآه وسمع منه ، ورأى ظرفه وكماله ، أقبل عليه وقال : « يا أبا على ، أريد أن أقول لك شيئا فأستحييك ، وأستحيى من نفسى فى ترك نصحك . وقد بلغنى أنك مكب على المعاصى ، مشتهر بالقبائح والمجون » . فقال أبو نواس : « أيها الأمير ! أما المجون ، فكل أحد يقدر أن يمجن ، وانما المجون ظرف ، ولست أبعد فيه عن حد الأدب ، ولا أتجاوز مقداره . أما المعاصى ، فانى أثق فيها بعفو الله عز وجل . ولو أن السندى يقول ما قال الله عز

وجل ، لوثقت به ، فكيف بقول رب العالمين وهو يقول : (يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا) . . »

ولا جرم أن يكون اشد القوم تورطا فى الآثام والمعاصي ، اكثرهم توجها الى الله ، وألهجهم بذكر عفو الله ، وأن عفوه وسع كل شىء ، فما من ذنب مهما عظم الا وعفوه أعظم . ولا جرم تكون أشعار أبى نواس فى ذلك فوق الجميع وفرة وحرارة لهجة :

يا كبيرَ الذنب، عفو الله من ذنبك أكبرْ
ليس للانسان الا ماقضَى اللهُ وقدَّرْ
ليس للمخاوق تدبيرٌ بل اللهُ المدبِّرْ
أعظم الأشياء فى أصغر عفو الله يصغر



ولقد اثرت الحياة التى عاشها أبو نواس فى صحته ، وفعلت فعلها فى بنيته ، فدب الوهن الى قوته وغاض معين شرته ، ورث برد شبابه وذوى عوده ، وبادرته الشيخوخة قبل الأوان ، وأسرع اليه المشيب ولات حين مشيب :

شيّب رأسي الهوى على صِغَر   وليس شيبى من باطن الكِبَر

واذا عدَدْتُ سِنيَّ كَمْ هِيَ ، لم أجِدْ
للشيب عذراً فى النزول براسي

ولم يلبث أبو نواس ان ضعف جسمه عن المقاومة ، على ما به من الحيوية والمراح . فجعلت تترادف عليه الأسقام

والأوصاب ، وهو يغالبها بالشراب ويحمل عليها باللهو ، حتى اشتدت به العلة وأثقله المرض ومنعه عن الحركة . فلزم المسكين بيته ، وقضى أياما مثبتا فى فراشه لا يبرحه ، عميدا لا يقدر على الجلوس حتى يعمد من جوانبه بالوسائد . وكان أصدقاؤه يعودونه فى مرضه ، فيجدونه كلّ يوم أسوأ حالا من اليوم الذى قبله ، منقوف الوجه ، متغير اللون ، قد برى السقم جسمه ، وأذهب لحمه وأوهن عظمه . وهو مع ذلك صاحى الذهن متنبه الحس ، لا ينى ينظم الشعر ويغمغم به فى وصف حاله ، ويكتب به الى أصحابه :

شِعْرُ حيٍّ أتاك فى لفظ مَيْتٍ ... صار بين الحياة والموت وَقْفا
لو تأمَّلتَنى وأبصرتَ وجهى ... لم تجد من مثال رسمى حرفا
نَفَسٌ خافتٌ ، وجسمٌ نحيلٌ ... أرمضته الأسقام حتى تعفَّى

ولم يلبث الحسن بن هانىء الشاعر الماجن الخليع أن طفىء وعاجلته المنية . وكانت وفاته فى سنة تسع وتسعين ومائة ، وعمره تسع وخمسون سنة . ودفن فى مقابر الشونيزى فى التل المعروف بتل اليهود ، على شاطىء نهر عيسى ببغداد . وقد كتب صديقه ورفيق صباه الحسين بن الضحاك على قبره :

نازعَتْنيكَ الزمانُ يا حَسَنُ ... فخاب سهمى وأفلح الزمن
ليتك اذ لم تكن بقيتَ لنا ... لم تَبْقَ روحٌ يحوطها بدن

ومما يروى عنه فى مرض موته أنه التفت ذات مرة الى عواده فقال : « لا تشربوا الخمر صرفا ، فانى شربتها صرفا فأحرقت كبدى » . وكان لا يكف فى كل مرة ــ مع ضعفه وخفوت صوته ــ عن انشادهم شعرا له بعد شعر ، يظهر فيه التوبة ، ويطلب من الله الصفح والمغفرة :

دبَّ فيَّ الفناءُ سُفْلاً وعُلْوا — وأراني أموتُ عضْواً فعضوا

ذهبتْ شِرَّتي بجِدَّةِ نفسي ، — وتذكرتُ طاعةَ الله نِضْوا

ليس من ساعةٍ مضت بي الا — نقصَتْني بمرِّها بيَ جُزْوا

لهفَ نفسي على ليالٍ وأيّا — م سلكتُهُنَّ لعباً ولهوا

قد أسأنا كلَّ الاساءةَ ـ يارَ — بِّ ـ فصفحاً عنا الهي وعفوا

وقد مضى بعض أصدقائه الى بيته عقب وفاته ودفنه ، فدخل الى مرقده وثيابه لم تحرك بعد ، فاذا كل ما خلفه قمطر فيه دفاتر وجذاذات قراطيس فيهـا نسخ أشعار وغريب ألفاظ ، ونرد وشـطرنج وعود وطنبور . فرفع وسادته ، فاذا برقعة مكتوب فيها :

يارب ، ان عظمتْ ذنوبيَ كثرةً

فلقد علمتُ بأن عفوكَ أعظمُ

مالي اليك وسيلة الا الرجا

وجميلُ عفوك ، ثم أني مسلمُ

فهرس

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات — مركزها الرئيسى بطريق الملكي المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ — ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ — أو باحدى وكالاتها فى الجهات الاخرى . (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العـــــراق : السيد محمود حلمى حلمى — صاحب المكتبة العصرية — ببغداد

اللاذقيـــة : السيد نخلة سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس — ص . ب ٩٧

البحرين والخليج الفــارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد — مكتبة المؤيد — البحرين

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400 Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجـــريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652; Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجـــلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

أبو نواس من الأفذاذ القلائل فى الأدب العربى الذين كان لهم أثر بارز فى الابتكار والتجديد ، وحياة ثائرة أحدثت فى عصرهم دويا ، وتركت بعدهم ذكرا على الأجيال خالدا فتيا. ولقد اشتهر بالمجون والمزاح... ولكن مجونه ومزاحه كانا كما قال :

صار جدا ما مزحت به   رب جـد جره لعب

فعلى الرغم مما قال وقيل عنه ، فقد كانت حياته دنيا جديدة ، امتلأت بالبدائع الفنية ، وعمرت بمختلف الصور الأدبية . وقد اهتم بها نقاد الأدب فى جميع العصور ، وعنى بها مؤرخو الآداب فى عصرنا الحديث ، حتى قال عنه الاستاذ جيب :

« برز أبو نواس على شعراء عصره وبزهم جميعا . والحق أنه لا يدانيه شاعر من حيث نصاعة الأسلوب ، وصدق العاطفة ، وحرية الفكر ، وبراعة البيان »

ولقد عنيت سلسلة كتاب الهـلال بالعبقريات فى
مختلف العلوم والآداب ، خصوصا من كانت حيـ
يكتنفها الغموض ولهذا اختارت هذا الكتاب النـ
الذى وضعه الشاعر الكبير عبد الرحمن صدقى ، وضـ
قصة حياة أبى نواس من نشأته الى وفاته . وقد
فيها منهج التراجم الحديثة ، فدرسها مرحلة مر
وجلى حياته الوجدانية والنفسية تجلية بارعة